المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثالث والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٨ — ٩ رمضان سنة ١٣٥٧

حصاد الصيف

في حقول العلم

١ — رؤية ما لا يرى

مجهر جديد عجيب يفتح آفاقاً علمية واسعة

ما أكثر الاجسام الدقيقة التي يتمنى العالم ان يراها ! الذرة والجزيء وكيف تتركب الذرات جزيئات وكيف تنتظم الذرات والجزيئات بلورات ، وما شكل « الڤيروس » الذي تسند اليه أمراض لا يعلم لها سبب ظاهر او جرثومة ترى ، والمورثات genes المنتظمة حبيبات في سبحات الصبغيات Chromosomes وكيف يطرأ عليها التحوّل العضوي فتحدث التغايرات في الصفات الوراثية ؟ هذا قليل من كثير يتمنى العلماء ان يروه بأم العين ، لانهم ينظرون من رؤيته الى فهم بعض هذه الاسرار التي تحيط بنا في المادة والحياة ، وحجابها لا يزداد الا سمكاً وكثافة كلما أمعنا في البحث والتنقيب

كان الرأي ان تكبير الدقائق لا يمكن ان يتعدّى حدوداً معيّنة . أثبت ذلك علماء الرياضة كما أثبتوا ان الامواج اللاسلكية لا يمكن ان تدور حول الارض لانها اذا كانت مشتقة من معدن امواج الضوء الكهرطيسية ، فلن تلبث حتى تنطلق في الفضاء في خطٍ مماسٍّ لكرة الارض

الأ ان القول باستحالة شيء حافز للعلم المطبوع . وكذلك أثبت مركوني على الرغم من أقوال العلماء بالتجربة البسيطة الخاصة التي جرّبها في شهر دسمبر من سنة ١٩٠١ خطأ العلماء إذ أطلق الاشارات اللاسلكية من جنوب انكلترة وتلقاها فعلاً في جزيرة نيوفوندلند . وكذلك تمكن الآن الدكتور غراتون أحد اساتذة جامعة هارفرد ، من أن يصنع مجهراً يكبر قطر الجسم الدقيق ستة آلاف ضعف بدلاً من بلوغ التكبير عند حدّ عبّة العلماء وهو ١٥٠٠ ضعف

فقد ذهب الدكتور ارنست آبه Abbe خير المجاهر المشهور في محلات زيس Zeiss المختصة بصنع الآلات البصرية ان تكبير قطر الجسم الدقيق بالمكرسكوب ١٥٠٠ قطر هو الحدّ الاعلى للتكبير الآن . أما الدكتور غراتون فقد تمكن من تكبيره ستة آلاف ضعف ويرى ان ليس هناك حدّ نظريّ للتكبير اذا استطاع الانسان الصنّاع ان يتقن الاجهزة اللازمة لذلك . وليدرك القارىء معنى هذا التكبير نضرب لهُ مثلاً بصورة سلبية صورت بمصوّرة خوثية صغيرة . طول هذه الصورة بوصة ونصف بوصة وعرضها بوصة واحدة . فبحسب رأي الدكتور آبه يمكن تكبير هذه الصورة تكبيراً يحتفظ بجميع خطوطها جلية غير مشتبهة حتى يصبح طولها ١٨٧ قدماً وعرضها ١٢٥ قدماً . (وهذا بصرف النظر عن العوامل الاخرى الداخلة في الموضوع من حيث صغر فلم هذه مساحتهُ) . ولكنها تكبر بحسب أسلوب الدكتور غراتون حتى يصبح طولها ٧٥٠ قدماً وعرضها ٥٠٠ قدم . فكأنك تكبر صاحباً من طوابع البريد الجوّي حتى تغدو مساحته فدانين تقريباً . اما النظرية القديمة فكانت تحتّم انهُ من المتعذر جعله اكثر من نصف فدان بعد أقصى التكبير

اما مجهر الدكتور غراتون فلا يشبه المجهر العادي الذي نراهُ في مختبرات الاطباء ومعامل المكتبات . ذلك ان جهازاً يكبّر قطر الجسم ستة آلاف ضعف لا بدّ يكبّر كذلك كلّ خدش صغير ناشيء عن اضعف الهزّات . ثم ان الهزّة مهما تكن ضعيفة لا بدّ ان تؤثر في الجهاز بتحريك الجسم المرئيّ فتكبّر الحركة ويبدو الجسم الذي كان واضحاً جليًّا وهو مشتّت خفيّ . أو ينتقل من مجال النظر الخلي ويحلّ محلّهُ جسم آخر لا يعنى به الباحث

ولذلك بُني هذا المجهر العجيب على نمط المراقب الكبيرة بحيث لا يهتزّ ولا يرتجّ . وهو قائم على قواعد راسخة من الصلب مغروزة في الارض تطوها مصطبة من الاسمنت المسلّح ، وهذا يجعل المجهر القائم عليها بعيداً عن الاهتزاز والارتجاج الاّ اذا نسفت الارض على مقربة منهُ بالديناميت او اصابها زلزال

ثم ان الزوس التي يضبط بها قربُ العدسة الى شريحة المجهر الحاملة للجسم الدقيق او بُعدها عنها حتى يرى ذلك الجسم وهو اوضح ما يكون ، لا تُدار باليد . بل صنع لها الدكتور غراتون جهازاً يضبطها ضبطاً آليًّا بالضغط على زرّ . ولو ان باحثاً اراد ان يضبط العدسة بيديه دون

هذا الجهاز الآلي لاستغرقت سبع دقائق وهو يدير التروس فلا ترتفع السدسة او تنخفض عن الشريحة أكثر من جزء واحد من مائة جزء من البوصة ، اي مقدار سماكة الورقة التي تقرأ عليها هذا الكلام ، وهذه الحركة لا تستغرق أكثر من بضع ثوان اذا اعتمد الباحث على الزر وجهاز الضبط الآلي

وكذلك ترى ان هذا المجهر العجيب يجمع بين الضخامة والدقة . فهو والقاعدة القائم عليها ضخم كالقاطرة دقيق كالساعة . وهما صفتان لا بدَّ منهما لان كلَّ خطإ يكبر ٦٠٠٠ ضعف فيه

ومما لا ريب فيه ان صنع هذا المجهر سيكشف عن آفاق جديدة في مختلف العلوم ، لان كشف وسائل جديدة للبحث واتقانها من اهم الاساليب التي تدفع بالعلوم الى الامام . فالطيران خلق علماً جديداً جمع بين الارض والسماء . ولولا « غرفة ولسن الغائمة » لما شهدنا التقدم العظيم الذي شهدناه في الثلاثين السنة الاخيرة في فهم المادة وتركيبها . وكذلك شأن مجهر جرانون . فقد اثبت غرانون وصحبهُ ان هذا المجهر على حداثة العهد به سيكون وسيلة جليلة الشأن في الكشوف العلمية . وقد بلغ من عناية الحكومة الكندية به ان اوصت حالاً بصنع مجهر على مثاله لكي تستعمله في دراسة معادنها المختلفة وتركيبها البلوري

خذ مثلاً على ذلك حبيبات من الذهب كان من المتعذر رؤيتها وتصويرها قبلاً . فجاء الدكتور غرانون بمجهره وجعل دراستها مكيرة من أيسر الامور . وهذه الدراسة تيسر للباحث في شؤون المعادن والمناجم ان يعرف مبلغ الذهب في عرق ما ولو كانت حبيباته خفية عن الباحث الذي لا يستعين بمجهره . فاذا عرف مقدار الذهب الخفي والظاهر في عرق ما فلا يتعذر على البحاث ان يبتدعوا الوسائل لاستنباطه منه . وغني عن البيان انه اذا كان استخراج الذهب يقتضي نفقة اكبر من ثمن الذهب المستخرج فلا مجهر صاحبنا يجدي ولا غيره

وكما يفيد المجهر الجديد علماء المعدن يفيد كذلك في الصناعة لانه يمكن الباحثين في الصناعات المختلفة من دراسة الفلزات من ناحية تركيبها البلوري اذ ثبت في العهد الحديث بالاشعة السينية وغيرها ان بين التركيب البلوري وقوة الفلز صلة وثيقة . ولعلهم يفتدون حينئذٍ الى فهم ما اغلق عليهم حتى الآن مما تصاب به الفلزات من « الاعياء » او « التعب » يقوى البناء الشاخ والجسر الموطد ثم لا تلبث ان ترى تصدعاً وانهياراً تعجز العلماء عن تفسيرها الا بقولهم ان الفلزات تتعب فيضعف تماسك بلوراتها وتنهار

ثم ان علماء الطب يرقبون بفارغ الصبر وسيلة تمكنهم من فهم سرّ « الفيروس » الذي يجتاز أدق مسام المرشحات وهم يسندون الى اصناف مبانة منه امراضاً تعجز عن معرفة سبب ظاهر لها او جرثومة تشاهد وتزرع . وقد ذهب الدكتور وعدل صاحبي الاميركي حديثاً الى ان

« فيروس » داء التبغ جزيء بروتيني كبير واقع على حدود الحياة والجماد . فهل يكون مجهر غراتون سبيل العلماء الى رؤية هذا الجزيء وفهمه

نعم ان هذا المجهر لا يزال في حالته الحاضرة عاجزاً عن جلو الذرة نعيوتنا القاصرة . ولكنه سيتيح ولا ريب فرصاً نادرة للعلماء فلعلهم ينفذون من طريقه الى فهم الظاهرات الكيمياوية وذلك لانه يتيح للباحث رؤية اجسام يزيد حجمها مائة ضعف عن حجم الذرة . واذن فالجزيئات البروتينية الكبيرة — من قبيل جزيئات الڤيروس على رأي وعدل ستانلي — ستكون في متناوله ومن هذا القبيل دراسة البلورات وكيف تبدأ في التكون ثم كيف تنمو في الطور . فالبلورات لها شأن عظيم في علم الكيمياء الحديثة ، لا يتسع المجال الآن للتوسع فيه

يضاف الى ما تقدم ان هذا المجهر سيسدي خدمة عظيمة الى علم الآثار المتحجرة (Paleontologist) الباحث عن هياكل الحيوانات البائدة في صخور يرجع تاريخها الى ملايين السنين . ومن هذه الحيوانات ما كان دقيقاً الدقة كلها فلا تراه العين ، ولكن وجوده في صخر ما في منطقة ما او انتفاء وجوده فيها قد يكون سبيلاً الى العثور على ثروة نوعية من النفط في تلك المنطقة او الى التوفير على الباحثين عن النفط عناء البحث ونفقاته . وهذا علاوة على ما يمكن ان يضاف من هذا الطريق من حقائق جديدة تزيدنا معرفةً بأحوال الارض في العصور المتغلغلة في القدم . أو لعله يكشف لنا في هذه الصخور القديمة أحياء دقيقة ما كنا نعلم انها كانت تعيش على سطح الارض في ذلك الزمان . ومن المتوقع ان يكون لهذا المجهر شأن كبير في تصنيف البكتيريا ، وقد كان الاعتماد حتى الآن في تصنيفها على شكلها . فلعل المجهر الجديد يكشف عن خواص في تركيبها وتطورها تكون أصلح أساساً للتصنيف من شكلها الخارجي

٢ — الاشعة السينية في الحيوانيت

امتحان المواد الغذائية بها لتجنب المعيب منها

اقتصر استعمال الاشعة السينية (X Rays) بعيد كشفها او كاد على الاطباء ، فاستعملت لاستطلاع كسر في العظم أو رصاصة في الجسم او علة خفية في سن او ضرس . ثم استعملت ايضاً لمعالجة بعض انواع السرطانية

الا ان كاشفها وتجن ندرك عند كشفها انها قد تستعمل في الصناعة فوصف رسالته الاولى التي نشرها في سنة ٨٩٥ بعض الاجسام التي صوّرها بهذه الاشعة وبينها « قطعة من المعدن تستحيل ان تبين عدم تجانسها بالاشعة السينية » . وقد تحقق ما تنبأ به وتجن نيف وأربعين سنة أو نحوها . ودخلت الاشعة السينية ميدان الصناعة فتستعمل الآن في تحسين الاعمدة

والعوارض المصنوعة من الصلب او غيره من الفلزات ليعرف هل فيها شرخ داخلي او ضعف او ثقب حفر خطأ في غير محله ثم ملىء فلا يُرى. وبذلك يجتنب اصحاب المصانع الحوادث التي قد تنشأ عن ضعف في بناء الاجهزة التي يصنعونها والمباني والجسور والطيارات او بعض الاعمدة والعوارض في صنعها. والخشب يمكن فحصهُ بها كذلك فتدل فيه على شقوق او عقد او جيوب جمعية خفية او ثقوب تنقرها الحشرات. كل ذلك تبديه عين الاشعة السينية فلا يخفى على بصرها النافذ. والحوادث التي تثبت فائدة الاشعة السينية من هذه الناحية كثيرة لا تحصى

ثم دخلت هذه الاشعة ميدان الفن. ففي مؤتمر خبراء الفن الذي عقد في رومية سنة ١٩٣٠ تحت رعاية جامعة الامم صرّح الدكتور پول جانتز انهُ كشف بالاشعة السينية صورة تحت صورة لرنبن تحت صورة سخيفة لا قيمة لها. وهذه الوسيلة في امتحان الصور معتمدة الآن. وغيرها من الاساليب الفنية المحضة بين مديري دور الصور المشهورة وكبار المقتنين يبيعها وشرائها. ذلك ان أعلام المصورين الفساد كانوا يستعملون أصباغاً معدنية وهي أكثف من الاصباغ النباتية التي تستعمل الآن فاذا أخذت صورة قديمة ورسم فوقها صورة محدثة أو غيرت بعض معالمها وتحويلاً كان في الوسع معرفة ذلك كله بالاشعة السينية

وأحدث الميادين التي دخلتها الاشعة السينية هو ميدان حوانيت البدّالين أو بالحري المركبات المختلفة التي تجهز حوانيت البدالين بانواعها كالخضر واللحم وغيرها

في وسع البدالات والطهاة في أغلب الاحيان ان يتبينوا بلمحة او بلمسة او بشمّة هي ما يشترونهُ من البطاطس والبرتقال واليوسفي والليمون الهندي والتفاح واللحم وغيره من مواد الغذاء، سليم من العيوب أو لا. ولكن هذه المواد الغذائية وغيرها قد تصاب بعيوب لا تستطيع عين السيدة الناقدة ولا خبرة الطاهي ان تبينها. وكثيراً ما يؤتى بالليمون اليوسفي الى المطبخ هو في مظهره الخارجي فاخر ريّان فاذا قشر ثبت انهُ جاف يكاد يكون والخشب سواء. وليس بالنادر ان تبتاع السيدة رؤوس بطاطس تبدو قشرتها ملساء غير مشققة فاذا جيء بها الى المطبخ وسلقت ثم قدمت على المائدة وقطعت ظهر ان فيها تجاويف او جيوباً هاطم كريه، فيقع اللوم على البدّال الذي أبتيعت منهُ. ولكنهُ ليس باللوم ولا التاجر الذي باعهُ والزارع الذي باع التاجر. لان جميع هؤلاء يرغبون أشدّ الرغبة في تقديم خير ما تجود به الارض ليكفلوا اطراد الصيت والربح

ولذلك خطر للاستاذ هارفي R. B. Harvey أحد علماء جامعة مينسوتا الاميركية ان يستعمل الاشعة السينية في استطلاع طلع المواد الغذائية قبل عرضها للبيع على نحو ما تستعمل في استشفاف ما في الجسم الانساني او في أعمدة الصلب او صور المصورين

عندما يذهب مريض الى طبيب طالباً اليه ان يفحص قائمةُ الهضمية بالاشعة السينية يعطيه الطبيب سائلاً فيه احد مركبات البزموت ليشربهُ ثم يوقفهُ أمام لوحةٍ مفلورة (تُلصق برقع الاشعة عليها) ويوجه اليه من جانبهِ الآخر الاشعة السينية فتخترق الجسم مستشفة ويبدو الجسم على اللوحة وقد اخترقت الاشعة بعض اجزائه فبدا شفافاً ولم تخترق الآخر فبدا قاتماً . هذه هي القاعدة المتبعة في الشؤون الطبية والصناعية على السواء . فقال الاستاذ هارفي ولماذا لا تجري عليها في فحص البطاطس والبرتقال وغيرها

وبعد ما أجرى تجارب متعددة وضع رسالة علمية بسط فيها طريقتهُ وتائجها وتلاها في اجتماعات علمية متعددة حضرها زملاؤهُ من العلماء ، وهو يعلم فائدتها المحققة . وفضلاً عن أصحاب الشركات المختلفة التي توزع مواد الغذاء بصنع الاجهزة اللازمة لذلك . والاجهزة تختلف شكلاً وتتشابه قاعدةً . فهي تحتوي على مصباح يولد الاشعة السينية في قلب الجهاز وعلى جانبيه سَيْران نقالان توضع عليهما المادة التي يرغب في امتحانها . ثم يقف على الجانبين المراقبات وأمام عيونهم اللوحان المفلوران . وتمرّ ثمار التفاح او رؤوس البطاطس أمام المصباح السيني فتخترق أشعتهُ كل تفاحة ، والفتيات يراقبنَ اللوحة المفلورة فاذا رأت احداهنّ عليها صورة تفاحة غير سليمة كبست على زرّ أمامها فتتحرك ذراع تقذف تلك التفاحة الى صندوق تحت السير فتنبذ من المجموعة التي توضع في الصندوق المُعَدّ للبيع

وكما يفحص التفاح وغيرهُ يفحص كذلك لحم البط فيعرف موقع رشاش البندقية الذي اصابه بدلاً من ان يترك ذلك لاسنان الآكلين واضراسهم . وليس ما تقدم غير مثل واحد او مثلين على فائدة الاشعة السينية في امتحان المواد الغذائية قبل عرضها في السوق . ولا تكفي صفحة او صفحتان لتعديد نواحي استعمالها في هذا السبيل

والعمل بهذه الاجهزة سريع جداً . فقد يتناول الجهاز الواحد — في شركة فود ماشينري كوربوريشن بكاليفورنيا — من مائة صندوق الى مائة وخمسين صندوقاً من البرتقال في الساعة الواحدة . او من ١٥٠ صندوقاً الى ٢٠٠ صندوق من الليمون الهندي . ومن عن البيان ان مراقبة الثمار وهي تمر امام جهاز الاشعة السينية عمل يحتاج الى يقظة دائمة وخبرة واسعة

اما العيوب التي تصاب بها الفواكه والثمار والخضر فليس اكثرها مكروبيًّا . فالجروب او الفجوات في رؤوس البطاطس ترتد على الغالب الى سرعة غير عادية في نموها في احوال شاذة من الحرارة والرطوبة . ولكن القشرة تبقى سليمة ملساء فلا يستطيع أحدٌ كائناً من كان ان يتبين بالنظر المجرد وجود هذه الفجوات . او قد تصاب بساتين البرتقال بالصقيع فيفتك بجانب كبير من ثماره ولكن بعضه لا يموت وانما يؤثر الصقيع في الاكياس الصغيرة المحتوية على

العصارة في داخله فتنشق فيتسرب العصير منها وتسو الثمرة ولكنها تخرج جافة لا عصير فيها ويصاب التفاح والليمون الهندي وغيرها بآفات خاصة تترك الثمر سليماً مادياً في مظهره الخارجي ولكن الاشعة السينية تكشف العيب في داخله

٣ — تأثير الضغط العالي

في خواص المادة

أثبتت المباحث الطبيعية الحديثة ان لا قبل للعلم بفهم المادة فهماً صحيحاً الاّ اذا عرف تأثير الضغط العالي في ذراتها وجزيئاتها . ذلك ان ٩٩٩٨ في المائة من مادة الارض و٩٩٫٩٧٥ في المائة من مادة الشمس خاضعة لضغط يزيد كثيراً على الف ضغط جوّي على البوصة المربعة ويبلغ نحو ١٥ الف جوّ

وبحوث الضغط ليست بالشيء الجديد في علم الطبيعة . فالاكاديمية الفلورنسية في عهد غاليليو حاولت ان تعرف هل الماء قابل للانضغاط . فاستعمل مجربوها لتلك التجربة إناءً من الرصاص لا يحتمل ان يكون الضغط فيه قد زاد على الف جوّ . وخرجوا من تلك التجربة بان الماء غير قابل للانضغاط . ثم جرّب كاندون Candon بين سنة ١٧٦٢ و١٧٦٤ بضع تجارب ليقيم الدليل على ان الماء قابل للانضغاط فنجح في ما سعى اليه . ومع ان الماء يوصف بانهُ لا يضغط فمن المعروف ان بعض العلماء جرّب تجارب مكّنتهُ من ضغط الماء حتى نقص حجمهُ ٥٠ في المائة

وقد عني علماء العصر الحديث بدراسة موضوع الضغط وتأثيره في خواص المادّة ولكنهم لم يتمكنوا من التمادي فيه قبل ان حلّوا مشكلة صنع الاجهزة التي تتحمّل الضغوط العالية التي يبغونها . وفي مقدمة هؤلاء الباحثين الاستاذ بردجمن استاذ الطبيعة في جامعة هارفرد . فقد كتب في مجلة الينشنك اميركان يقول ان اعلى ضغط تمكن العلماء من إخضاعه لقيود التجربة العلمية في المختبر هو ٥٠ الف ضغط جوّي . ووجه الشأن في ذلك ان مادة الارض على عمق مائة ميل تحت سطحها معرّضة لمثل هذا الضغط . ولما كان ٩٢٫٥ في المائة في مادة الارض داخل هذه القشرة التي سمكها مائة ميل ، حيث الضغط اعظم جدًّا من ٥٠ الف ضغط جوّي ، فجهلنا باحوال تلك المادة وخواصّها جهل عميق حقًّا

فكيف يؤثر الضغط العالي الذي يستطيع العلماء توليده ، في خواص المادة ودراسة تلك الخواص والمادة خاضعة لهُ ؟

هناك درجات من الحرارة تذوب عندبلوغها ضروب المادة المختلفة او تتبخر . والضغط يؤثر في هذه الدرجة Melting Point فيغيرها

في أواخر القرن التاسع عشر ذهب جيمز طمسن شقيق لورد كلفن الى انهُ اذا كان هناك مادة ما من المواد التي تتمدَّد عند الانصهار او الذوبان فدرجة الانصهار او الذوبان يجب ان ترتفع بازدياد الضغط. أما اذا كانت من المواد القليلة التي تنقلص عند الذوبان او الانصهار — كالماء او البزموت او الغاليوم — فدرجة الذوبان او الانصهار يجب ان تنخفض بازدياد الضغط. وجرَّب لورد كلفن تجربة استوقفت الانظار لتأييد رأي شقيقه. اما اعترضت كلفن حينئذٍ صعوبة كبيرة وهي ان ضغط الضغط المتاح لهُ لم يمكنهُ من تغيير درجة انصهار او ذوبان المواد التي جرَّب بها تجربتهُ الاَّ تغييراً يسيراً لا يزيد عن جزء من الدرجة. أما الآن وقد غدا في وسع العلماء ان يعرضوا المواد لضغط أعلى جدًّا من الضغط الذي كان في متناول لورد كلفن فني مكنتهم ان يغيروا درجة الانصهار أو الذوبان مئات من الدرجات المئوية. حتى ليستطيعه ان يجعلوا الزئبق ان يتجمد على درجة من الحرارة هي درجة الماء الغالي عند ما يعرضونهُ — أي الزئبق — لضغط ٢٨ الف جو

أما حالة الماء عند تعريضه لضغط عال فتستوقف النظر خاصة. ما يكون تأثير الضغط فيه اذا مضينا في زيادته زيادة لا حدَّ لها؟ أتنخفض درجة الذوبان انخفاضاً لا حدَّ لهُ الى ان يصيبه تغيير آخر. وهذا الموضوع كان محل نظر وعناية من العلماء بعد اذاعة رأي طمسن وتجربة شقيقه لورد كلفن. الاَّ ان زكن علماء الطبيعة لم يكن كافياً حينئذٍ ليمكنهم من النفوذ الى الحقيقة. وكان عالم يدعى تامن Tammann أول من استعمل ضغطاً قدره ثلاثة آلاف جو في دراسة موضوعات من هذا القبيل. فوجد شيئاً يثير الدهشة. ذلك انهُ وجد ان درجة ذوبان الجمد توالي الهبوط تحت الضغط المتزايد حتى يبلغ الضغط ٢٢٠٠ جوّ فتصير ٢٢ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد وهي درجة أبرد قليلاً من برد مزيج الجمد والملح المستعمل عند عمل المثلجات (دندورمة).

ولكن اذا عرّض الجمد لضغط أكبر من ٢٢٠٠ جوّ وحرارة دون ٢٢ تحت الصفر تهاوت بلورتهُ وتقلص حجمهُ ٢٠٪ في الثلاثة وانتظمت جزيئاته في بلورات تختلف عن بلورته الاولى. وهذا التحول في نظام بلورته قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه بواسطة الاشعة السينية التي أصبحت في السنوات الاخيرة وسيلة فعَّالة للدراسة بناء المادة البلوري. ولا يخفى ان الجمد أثر كثير من الماء ولذلك فهو يطفو عليه. ولكن اذا عرض الجمد لضغط عال كما قدمنا فان ما يصيبه من نقص الحجم وتحول في تركيبه البلوري يجعله اكثف من الماء السائل. فاذا صح قول جيمز طمسن فهذا الجمد الجديد — الذي يزداد حجمه عند الذوبان وهو على نقيض الجمد العادي الذي ينقص حجمهُ عند الذوبان — يجب ان ترتفع درجة ذوبانهُ اذا عرض لضغط عال بدلاً من ان تنقص درجة ذوبانهُ كالجمد العادي. والتجربة تؤيد هذا القول. الاَّ ان الجمد الجديد يتحوَّل الى

جد من ضرب آخر اذا زاد الضغط الواقع عليه على ٣٥٠٠ جوّ . وقد وجد العلماء أنهم يستطيعون ان يضعوا سبعة اصناف من الجمد بموالاة زيادة الضغط على كل جديد منها . وآخرها ترتفع درجة ذوبانه الى ١٩٠ درجة مئوية عندما يكون معرّضاً لضغط اربعين الف جوّ . وهي حرارة كافية على ما نعلم لصهر الفحام

فاذا صحّ هذا على الماء فيجب ان يصحّ كذلك على البزموت والفاليوم وهما عنصران ينقص حجمهما عند الانصهار كالماء العادي عند الذوبان . فهل يتحولان الى صنفين جديدين من البزموت والفاليوم بزيادة الضغط عليهما حتى يصبحا موادّ ترتفع درجة انصهارها بدلاً من ان تنخفض اي حل يطرأ عليهما التحوُّل الذي يطرأ على الماء ؟ والجواب بالايجاب ولكن هذا التحوُّل فيهما لا يتمّ الاّ بعد تعريض البزموت لضغط قدره ٢٨ الف جوّ والفاليوم لضغط قدره ١٣ الف جوّ

فيلوح من هذه التجارب ان ما نراه من تمدّد الماء عند تجمده ليس الاّ ظاهرة تصحّ ما زال الضغط عاديًا فقط . والغالب عند الاستاذ بردجمن ان جميع المواد تتقلّص عند تجمدها اذا كان الضغط على درجة وافية من الارتفاع

قلنا ان رفع درجة الضغط والمضي في رفعها تدريجاً افضت الى صنع سبعة اصناف من الجمد وما يصحّ على الماء يصحّ على موادّ كثيرة . فالبزموت له اربعة اصناف والفاليوم ثلاثة والكافور تسعة ولا يبعد ان تكون احد عشر صنفاً

هذا التحوُّل لا بدَّ من حدوثه في المواد التي في قلب الارض حيث درجات الحرارة والضغط عالية جدًّا ولا بدَّ ان يكون لها خواص غير الخواص التي نستدها اليها على سطح الارض وهي في حالتها المألوفة . وهذا يعني اننا لا نستطيع ان نكون بأحوال المادة في قلب الارض الاّ بعد دراسة وافية للمادة وهي معرّضة لدرجات عالية من الضغط والحرارة على سطح الارض وكيف تتحوّل

هذه التحوُّلات في المادة وهي معرضة للضغط العالي تزول عند رفع الضغط عنها وترتد المادة الى أصلها . ولكن العلماء وجدوا مادة واحدة يحدث الضغط العالي فيها تحولاً دائماً وتلك المادة هي الفصفور الابيض . فالفصفور الابيض كما يعلم القارىء مادة غير مستقرة تلتهب من ذاتها عند تعريضها للهواء ولكنها تتحول تحولاً دائماً بعد تعريضها لدرجة عالية من الضغط فتصبح سوداء بدلاً من ان تكون بيضاء ثم انها لا تلتهب وتوصل الكهربائية بدلاً من ان تقاومها

تغيير من هذا القبيل يذكي الخيال . ذلك بأنهُ اذا استطعنا ان نغير الفصفور تغيراً دائماً وتحولهُ الى مادة جديدة لها خواص مناقضة لخواصها الاصلية ، أفنيس في الوسع تحويل غيره من المواد بتعريضها للضغط العالي فنصنع بذلك موادّ جديدة لها خواصٌ مرغوب فيها ؟

ثم كيف يؤثر الضغط في حجم المواد ؟ الغاز على ما نعلم يدنو بسهولة للضغط فتستطيع ان

تضغط ما يملأ حجرة كبيرة من الهواء في أنبوب عجلة السيارة . أما الماء فقد قلنا في مستهل الكلام انهُ قابل للانضغاط وان كانت كتب الطبيعة تقول انهُ ليس كذلك وذلك لان التجارب القديمة الى منتصف القرن الثامن عشر تجزت عن ضغطه بما لديها من الوسائل . ثم هناك الجوامد وهي أقل قابلية للانضغاط من الماء ولكنها تنضغط. فالحديد أقل قابلية للانضغاط من الماء مائة ضعف . ولكن اذا استعمل ضغط قدره ألوف من الأجواء أمكن ضغط السوائل والجوامد ضغطاً يسهل قياسهُ. فالسوائل تقلُّ حجماً تحت الضغوط العالية من ٣٠ الى ٤٠ في المائة . وكل سائل لا بدَّ ان يتجمد بزيادة الضغط الذي يوقَّع عليهِ وعندئذٍ يصبح وهو متجمد شأنهُ شأن المواد الجامدة أصلاً من حيث تأثير الضغط العالي فيها . فالجمد العادي اذا عرض لضغط قدره ٥٠ الف جو نقص حجمهُ ٤٠ في المائة عن حجم الماء الذي صنع منهُ أولاً . والفلزات أقل قابلية للضغط من السوائل ولكن التفاوت بينها كبير . فنصر الكيزيوم مثلاً وهو أشد الفلزات قابلية للضغط أسهل انضغاطاً من الماء وينقص الى ٥٠ في المائة من حجمهِ الاصلي اذا عرِّض لضغط ٥٠ الف جو

ثم ان المقاومة لسريان التيار الكهربائي تقل بارتفاع الضغط الذي تعرَّض لهُ المواد حتى لقد تتحول المادة غير الموصلة للتيار الى مادة موصلة فالتلوريوم وكبريتور الفضة ليسا موصلين جيدين في الاحوال العادية ولكنهما يصبحان تحت الضغط الشديد وايصالهما للتيار الكهربائي ألوف الاضعاف أقوى مما كان . ومن المواد ما قد تشتد مقاومته للتيار بارتفاع الضغط

ومن اغرب ما يروى عن تأثير الضغط العالي خاص باختراق الماء انواع الصلب القاسي والزجاج فقد روى العالم بولتر في مجلة « الطبيعة المطبَّقة » انه اذا ارتفع الضغط ارتفاعاً كافياً في الوسع ان يخترق الماء سطحاً صقيلاً من الصلب ، او طبقة سمكها بضعة مليمترات من لوح زجاجي في بضع دقائق . واختراق الكحول والاثير تحت الضغط اقل من اختراق الماء . اما الغليسرين والزيوت فيندر ان يكون لها قدرة على هذا الضرب من الاختراق . ومن غرب هذا انه اذا رفع الضغط رفعاً فجائياً خرج الماء الذي كان قد تخلل سطح الصلب تحت السطح . واذا اخذ قضيب من الزجاج وأحيط بالماء وعرض الماء لضغط كافٍ هنيهة ثم رفع الضغط فجأة فالزجاج لا يتأثر . ولكن اذا ظل الضغط خمس دقائق ثم رفع فجأة تقضب الزجاج ينقسم حينئذٍ الى اقراص زجاجية واذا زاد التعرض للضغط الى عشرين دقيقة ورفع فجأة تهاوى القضيب شظايا زجاجية صغيرة

٤ — صنع فيتامين الخصب والعقم

بالتركيب الكيماوي وامتحان فعله

كان الباحث الاميركي هربرت اڤانس Evans يبحث في سنة ١٩٢٢ في تماثل الجرذان من حيث علاقتهُ باثوار (هرمونات) الغدد . الاَّ انهُ لم يكن كيماوياً وانما كان فسيولوجياً يهتم

بالعوامل التي تؤثر في التناسل . وكان غذاء الجرذان احد هذه العوامل . فتغذّى جرذانهُ بغذاء يكثر فيه فيتامين A و B فلاحظ هو ومساعدتهُ ان الجرذان تتزاوج وان اناثها تحمل في مواعيدها السوية ولكنها لا تلد بل تسقط حملها . وفي كل حادثة من الحوادث التي شاهداها كان الجنين يموت قبل ميعاد الولادة . وعجز الفيتامينان اللذان تقدّم ذكرهما عن منع هذه الحالة الشاذة

فشرعا يبحثان عن مواد غذائية تحتوي على عنصر غذائي مجهول من شأنهِ ان يساعد على الحمل والولادة السويين . فوجدا ان ورق الخس فعّال وكذلك جنين حبة الحنطة بل وجدا انهما اذا استقطرا زيتاً من اجنة الحنطة واضافا منهُ مقادير يسيرة جدًّا الى غذاء هذه الجرذان تمكنت الاناث من حمل الجنين مدة الحمل السوية ثم من ولادته حيًّا سالماً . فلما استوثق اڤانس من ان نقص هذا العامل الغذائي المجهول يفضي الى عقم ذكور الجرذان والى موت الاجنة في ارحام الاناث اذاع انهُ كشف فيتامينًا جديداً وسمهُ بالحرف E ثم وسمهُ آخر بالحرف K بعد أن حقق النتائج التي توصل اليها اڤانس

وقد طبق كشف اڤانس على البقر اولاً ثم على النساء فأسفر التطبيق عن نجاح يفوق ما كان متوقعاً له . ذلك ان اڤانس لم يزعم شأن الباحث العلمي الحذر ان ما يصح على الجرذان يصح على البشر . ولكن الدكتور فوخت مولر الطبيب بمستشفى أورانس ببلاد الدانمارك عالج طائفة من البقر كان مشهوراً عنها اسقاطها اجنتها فأضاف الى غذائها مواد تحتوي على فيتامين E فنجحت تجربته نجاحاً كبيراً . وفي ٢٥ يوليو سنة ١٩٣١ اذاع عن طريق مجلة « اللانست » الطبية نتائج هذا الاسلوب من العلاج في النساء المجهضات . ففي الحادثة الاولى كانت المرأة في الرابعة والعشرين من عمرها وكانت قد حملت اربع مرات واسقطت الجنين في كل منها فتناولها الزيت المستخرج من اجنة الحنطة عن طريق الفم . فكان حملها التالي سويًّا وولدت في ميعاد السوي طفلاً سالماً . وفي الحادثة الثانية كانت المرأة في الثامنة والعشرين من عمرها وكانت بعد وليدها الاول قد حملت اربع مرات واسقطت الجنين في كل منها فأعطيت مقدار ملعقتي شاي من زيت اجنة الحنطة فكانت النتيجة كنتيجة الحادثة الاولى . ومع ذلك أذاع أڤانس بياناً في سنة ١٩٣٥ حذّر فيه من عواقب استعمال هذا الفيتامين اطلاقاً لشفاء العقم لأن العقم قد ينشأ من اسباب متعددة

هذا موجز ما يعرف عن تاريخ هذا الفيتامين . ولكن مجلة العلم الاسبوعية الاميركية ذاعت في عددها الصادر في ٨ يوليو الماضي ان هذا الفيتامين قد صنع بالتركيب الكيماوي في المعمل وعرفت عناصرهُ وانتظام ذرّاتها في جزيئاته ، وهو مسحوق ابيض يدعى « الفا توكوفيرول » Alpha Tocopherol وضع في غذاء اناث الجرذان البيض بعد ان ثبت عقمها فحملت وولدت سويًّا . وقد اشترك سبعة من العلماء الاميركيين في هذا العمل فتخصّ فريق منهم بناحية تركيبه

الكيماوي ، وفريق آخر بالناحية الحيوية من جهة اجراء التجارب على الجرذان ومراقبتها واستخلاص النتائج منها. وهناك مركب آخر يدعى « دوروهيدروكينون » durchydrochinone يقال انهُ اذا استعملت مقادير كبيرة منهُ كان له فعل شبيه بفعل فيتامين E

والظاهر ان السابق الى تركيب مادة « انفا توكوفيرول » وهي وتيامين E سوالا ، هو العالم السويسري الدكتور كارير Karrer ومساعدوه فريتش ورنجيه وسأنومون ، ثم تلاهم العلماء الاميركيون فركبوهُ وامتحنوا فعلهُ في الجرذان

٥ — شجرة الصابون[1]

قرأنا في البنتفك اميركان وصفاً مسهباً لشجرة الصابون. فقد جاء فيها ان المستر كدرتفصل اميركا في الجزائر وصف هذه الشجرة في تقريره فقال ان اصلها من بلاد الصين وهي جميلة المنظر ويبلغ ارتفاعها خمسين قدماً وتمتد، تحمل ثمراً حبياً يصير عمرها ست سنوات . وخشبها محشوك الدقائق يصقل جيداً ويصلح لعمل الاثاث . وتبلغ غلة الشجرة البالغة ٢٠٠ رطل (ليبرة) من الاثمار تباع بجنيهين الى اربعة جنيهات وفي كل ثمرة بزرة حولها قشر والمادة الصابونية في القشر وهي من ٣٠ الى ٤٠ في المائة منه . ويقطع القشر ويغرك بالماء فيرغي كالصابون تماماً وينظف مثل الصابون الجيد بل لا يوجد صابون صناعي اجود من هذا الصابون الطبيعي او يقاربه في جودته ولا سيما لغسل اليدين والوجه . ويمكن سحق القشور وعمل اقراص من مسحوقها فتستعمل كألواح الصابون تماماً ويمكن نقعها بالماء واستعمال نقاعتها لغسل الشعر . وكيفما استعملت فهي أجود من الصابون وأرخص

وفي البزرة نوع فيها زيت أجود من زيت الزيتون من كل وجه سواء استعمل في الطعام او في الصناعة . ومحصول الزيت فيها كثير جداً ، اكثر مما في حبوب الزيتون . واذا كثر البزر حتى صار يمكن استخدام الآلات لعصر الزيت منهُ صار ثمنه رخيصاً أرخص من زيت بذر القطن وطعمهُ بيناً أطيب من طعم اي زيت آخر . ويبقى من البذر كسب يأكلهُ الفراخ والمواشي وهو غذاء جيد جداً لها . وورق الشجرة علف للمواشي لامتين لهُ . ويمكن استعمال الثمر دواء في مرض يقال له الدوسنطاريا . ويستعمل أيضاً نقيعاً ويقال ان بزره اذا سحق وجعل بالماء وقف نزيفات الانف ويوضع مسحوق لب الثمر دواء للصابين بالمرض الاخضر او فقر الدم . انتهى

وما ويتبق بالجمعية الزراعية الخديوية (الملكية الآن) ان تجلب بذور هذه الشجرة من بلاد الجزائر وتزرعها في القطر المصري لانها اذا كانت لها جميع هذه الخواص ووافقها هواء القطر المصري وتربتهُ كانت من أكبر النعم من حيث صابونها وزيتها وخشبها

(١) من ثلاثين سنة في المقتطف ج ٣٣ صفحة ٤٤٨

تيسير قواعد

النحو والصرف والبلاغة

خلاصة تقرير اللجنة

لا شك أن اللغة العربية من أصعب اللغات نطقاً وتعلماً ، ونحوها وصرفها مليئان بالخلافات الكثيرة التي تجعل دراسة اللغة أمراً إدًّا . وقد شكلت في وزارة المعارف لجنة من الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب والاساتذة الاجلاء احمد أمين وعلي الجارم بك ومحمد ابو بكر ابراهيم وابراهيم مصطفى وعبد المجيد الشافعي لاقتراح مشروع لتبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة

ولا ريب ان هذه خطوة من الوزارة تحمد عليها لانا نرى بعيوننا الصعوبة التي يلقاها طلبة المدارس في تعلم اللغة العربية . ونرى أيضاً طغيان العامية على العربية فيما يجري بين الناس من محادثات . حتى لتكاد العامية تكون لساناً قائماً بذاته

وقد اجتمعت اللجنة المذكورة وأصدرت عدة مقترحات ، مهدت لها بمقدمة في ضرورة تعلم اللغة العربية الصحيحة . وفي انتشار العامية حتى في حجر الدراسة . . . وفي كون العامية هي لغة التخاطب في البيت وخارج البيت

ولم تقال اللجنة في حسن الظن بأن تكون العربية الآن لغة البيت والبيئة . وانما رأت ان يكون من الواجب جعل العربية الصحيحة أداة التعبير والكلام في المدارس . وحبذت ان يكون شرح مواد الدراسة بلسان عربي صحيح فالتاريخ والجغرافيا والطبيعة وغيرها تشرح للطلبة بالعربية لا بالعامية كما هو متبع الآن في المدارس

وترى اللجنة ألا يترك للغات الاخرى فرصة تزاحم بها اللغة العربية . فأعفت صبية التعليم الابتدائي من دراسة لغة غير العربية حتى اذا اجتمع للتلميذ الذوق العربي أمكن بعد ذلك — في مرحلة التعليم الثانوي — ان يدرس اللغة الاجنبية المراد دراستها

وقد لاحظت اللجنة انصراف الطلبة عن القراءة المنتجة ورغبتهم عنها . فهم لا يقرءون الا الكتاب المدرسي المقرر للنجاح ، في الامتحان . . . ولاحظت ايضاً فقر أدبنا الحديث

من كتب مفيدة لطوري الصبا والشباب . واقترحت على الوزارة تشجيع المؤلفين الذين سيكونون طلائع هذا النوع من التأليف او الترجمة

وجمت اللجنة اسباب صعوبة آلة العربية في ثلاث مسائل : —

(١) اسراف القدماء من النحاة في فلسفة الافتراض والتعليل

(٢) اسراف في القواعد

(٣) اسراف في التعمق العلمي بأعد بين النحو والادب

وحاولت بيد ذلك تخليص النحو من هذه العيوب . فباعدت — في اقتراحاتها — بينهُ وبين الفلسفة . ولم تجعل الافتراض والتعليل سبيلاً الى دراسة القواعد . وتجنبت التعمق وقاربت بين الاصول والقواعد

ولم تقترح اللجنة حذف دراسة البلاغة كما يريد بعض غلاة المفكرين . وانما اقترحت حذف ما لا صلة له بحياتنا اليوم . وقد كان الاعتدال والاناة وحب هذه اللغة رائد اللجنة ودليلها . فلم تسرف في الانقلاب لعلمها بخطورته . وانما ناشدت الوزارة أن تتأنى في الاخذ بالاصلاح المقترح وتهيىء له أسبابه

وأهم مقترحات اللجنة في النحو والصرف وجوب الاستغناء عن الاعراب التقديري والمحلي ووجوب إلغاء العلامات الاصلية والفرعية للاعراب . فيقسم الاسم الى ما يظهر عليه الحركات مع مدها وهو الاسماء الخمسة . والى ما يظهر فيه حركتان ضم وفتح وهو الممنوع من الصرف وهكذا

وترى اللجنة أن يكون لكل حركة لقب واحد في الاعراب والبناء . بدلاً من ألقاب الاعراب والبناء

وقسمت الجملة الى قسمين أساسيين . اختارت لها اصطلاح المناطقة : الموضوع والمحمول . وبنت الاعراب على هذا الاساس . فالموضوع هو المحدث عنه في الجملة وهو مضموم دائماً الاّ اذا وقع بعد إن واخواتها . والمحمول هو الحديث ويكون اسماً فينصب او ظرفاً فيفتح او فعلاً او جملة او مع حرف من حروف الاضافة . وتجب المطابقة بين الموضوع والمحمول في التأنيث والعدد

وعلى هذا النحو يسرت اللجنة الاعراب . وجمعت القواعد الكثيرة في مسألة صغيرة

وترى اللجنة الغاء الضمير المستتر جوازاً او وجوباً . فمثل (زيد قام) لا ضمير فيه . وزيد الموضوع والفعل المحمول ، ومثل (الرجال قاموا) الرجال الموضوع والفعل قام هو المحمول . والواو والالف علامة للجمع

هذه هي اهم مقترحات اللجنة خصصناها في هذه الكلمة . وانا لنرجو مخلصين ان يتاح للغة العربية فرصة سعيدة تتخلص فيها من المشكلات النحوية والخلافات الجدلية ، وعوامل الضعف

الكثيرة الطارئة عليها حتى تطابق مقتضيات العصر من غير مباعدة بينها وبين الاصول . وحق لها كما نرجو لها . فانا يعز علينا ان نراها غير ذلك كما قال أحد شعراء المهجر المعاصرين

لغة يهون على بنيها ان يروا يوم القيامة قبل يوم مماتها

*

بعد الفراغ من تلخيص تقرير اللجنة اطلعنا بطريق المصادفة السعيدة بينما كنا نراجع مجلدات المقتطف على مقال في المجلد التاسع والعشرين مقتطف ابريل سنة ١٩٠٤ لحضرة العالم الفاضل الاستاذ جرجس الخوري القدسي أحد أساتذة اللغة العربية بجامعة بيروت الاميركية . وعنوان المقال « العربية وتسهيل قواعدها »

ولحضرة الكاتب الفاضل رأيهُ في تسهيل قواعد العربية نجمله في المسائل الآتية :

(١) يرى حضرتهُ اتحاد ضميري جمع المؤنث والمذكر . فيقال الرجال قاموا والنساء قاموا . من غير حاجة الى استعمال نون النسوة

(٢) ويرى أيضاً حذف باب الممنوع من الصرف . فتجري الكلمات كلها على حال واحدة من التنوين

(٣) ويرى ايضاً حذف الخلافات النحوية في اعراب بعض الكلمات . ولا يرى ضرراً في اعراب (اي) في جميع حالاتها . ولا حاجة الى القول بنائها متى اضيفت وحذف صدر صلتها

(٤) ويرى رفع الاسم والخبر في جميع الحالات ، مهما يختلف عليهما من الافعال الناقصة وان وأخواتها فيقال « محمد قائم » « كان محمد قائم » « ان محمد قائم »

والغرض من مقاله كما يقول هو في كلامه (تسهيل قواعد اللغة حتى لا يجد اولادنا ما يجدونهُ الآن من العناء في دروسها واضاعة الوقت الثمين على غير جدوى)

وهذا المقال الذي كتب ونشر في المقتطف من اربعة وثلاثين عاماً يدل على رغبة قديمة في اصلاح اللغة العربية وتيسير قواعدها وجعلها سائغة للطلاب . هذه الرغبة التي نادى بها المصلحون أخيراً والتي عنيت بها وزارة المعارف في هذه الايام عناية عملية

واذا كان في مقترحات الاستاذ جرجس القدسي بعض الخطر على القواعد المقررة في علم النحو ، لان فيها هدماً للاصول . فأن المقال نفسه يدلنا على روح قديمة تميل الى تبسيط اللغة العربية واصلاحها

فهذه الرغبة الجديدة من وزارة المعارف هي في الواقع رغبة جاشت في صدور المصلحين منذ اكثر من ربع قرن . ونرجو لها التوفيق في تنفيذ هذه الامنية . فتيسير العربية هو أجل خدمة تسدى لهذا التراث القديم

* * *

ملتقى الشعر

والفلسفة

حول شاعرية المعري وفلسفته

لعلي الرقم

من أصدق كلمات مجل قوله « الرجل العظيم يجشم الدنيا مشقة فهمه » فان الدنيا قد تنصف العظيم وتجل شأنه وتذيع ذكره وتنشر مزاياه وفضائله وتقذفه بالورود والازهار وترفع لهُ انصاب وتقيم التماثيل وتفسره بآيات التبجيل والتقدير ، وقد تسيء اليهِ وتقتهُ وتجازيه شر الجزاء وتمل به الافاعيل تتسلطه حقه وتنكر عليهِ فضله وتحصبهُ بالاحجار او تجرعه السم الذعاف وتصلبه على الاخشاب وجذوع النخل وتمثل بهِ اتبح تمثيل ، ولكنها على الحالين لا تألو جهداً بعد موته في استقصاء اخباره واستئناف النظر في حياته وتدبر أقواله وأفعاله ، وتستنز بما يقع في يدها من آثاره وتحرص عليهِ الحرص كلهُ ويظل كل جيل يبدأ النظر من جديد في حياته ويرسل رواده لبطوفوا في حاله ويضعوا المصور الجغرافي الذي يبين مواقع الافكار ومواطن الاحساسات، ويصغي هؤلاء الرواد عند عودتهم تأثراتهم ويكثرون من الحديث عما رأوه من المشاهد فيحفز ذلك غيرهم الى معاناة السفر والضرب في المجاهل

وباعث هذه العناية بحياة العظماء التي لا يفتورها الفتور والتي لا تفتأ تتجدد مع تراخي الاحقاب وتوالي الاجيال هو ان نفوس العظماء مركبة عالية متصلة الاسباب بسر الوجود الخفي الذي تتوق انسانية الى جلالته ويستحثها اليهِ ميل لا يغالب ، فلا يعدم بها الطلب مهما تصدتها الحوائل وعرضت لها الشواغل ، وكل جيل يفهم العظيم على طريقته ويقدر قيمته بمعياره ، ولكل عصر من العصور طابعه الخاص وميزته المنفرد بها ، والعصور في ذلك كالافراد لها ملامحها وطبائعها وطرائق تفكيرها وأساليب معرفتها ، ولكل عصر فكرته البارزة ونزعته المهيمنة على نفوس أهله ، وانما يتأثر العصر من العظيم بمقدار اقترابه من هذه النزعة السائدة ، ولقد كانت جمهرة أدباء القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير تزدري عبقرية شكسبير وترخص قدرها ،

وكان الشاعر يرب يقول وهو يظن نفسه قد اهتدى الى سر أسرار شكسبير ووقف على الدافع المستغلق الخفي لكتابة رواياته بعد طول البحث والتعمق في التفكر « لا بد للانسان ان يصمم » وذلك لغلبة النزعة العقلية على مفكري ذلك العصر عصر الاستنارة وزمن المستنيرين، وكان الثعالبي صاحب اليتيمة يرى ان ملك شعر المتنبي قوله

زورهم وظلام الليل يشفع لي ... وثنتي وبياض الصبح يغري بي

لانهُ طابق بين الزيارة والثناء وظلام الليل وبياض الصبح ، والشفاعة له والاغراء به وكل هذا جمعاً في بيت واحد ؟ وأية معجزة باهرة وقدرة خارقة للعادة ! ولست أحاول ان أستطيل على الثعالبي وأتناوله بين يدي مشارف النقد الحديث واشتد في تعنيفه لهذا الرأي القائل فهو رجل يمثل عصره أحسن تمثيل وله عذره المقبول ، والثعالبي على فضله وكثرة تواليفه لم يرزق من العبقرية وحداد النظر وملاحظة الفطرة ما يرفعه قليلاً فوق مستوى عصره الفكري ويصونه عن الغوص الى الاعماق في أهدافه وتعبيراته ، وان للمتنبي آياتاً سائرة كثيرة أحق بهذه المكانة وأجدر بحسن التقدير من هذا الزخرف المموه والطلاء الكاذب الذي راق الثعالبي . والذي يهمنا في العصر الحاضر من المتنبي جمال أصدق من محسنات البديع ويشرق علينا من ناحيته ضوء لم تبصره عيون الكثيرين من النقاد السالفين ومن بينهم الثعالبي

ومن هؤلاء العظماء الذين تفاوت في تقديرهم الاجيال وتشعب الآراء وتتجدد الرغبة في دراستهم بتجدد الازمان أبو العلاء المعري ، فانا في العصر الحاضر نفهمه عن أسلوب يغاير أسلوب معاصريه في فهمه ونسلك اليه طريقاً يخالف طريقهم ونرى فيه غير رأيهم ، فاكانوا يتقعرونهُ سنةً ويكرهونهُ من أجله تراه تحر مرضعاً للعطف والرحمة والتأمل والتفكير ، وماكانوا ينظرون اليهِ منه بين التصغير والتجهيل تنظر نحن اليه منهُ بين الاكبار والتبجيل ، وأهم الصور المتأخرة على وجه الاجمال أحسن تقديراً لعظماء لانهم لا يصدون العظيم ولا يرجمونهُ بالاحجار ، وانما يصلون على قبره ونحن نتخذ لعظمائه وسيلة لمعرفة عصورهم ومرآة يتمثل فيها اصطفاق النزعات وتيار الآراء في زمانهم حسب ، بل نستبين بهم عن فهم اسرار نفوسنا واستجلاء غوامضها وسبر خفايا الكون التي تختلف باختلاف النواحي ، وكأنما نقترب من فهم الكون الكبير غير المحدود بتأمل هذه الافلاك الصغيرة السابحة في جو التاريخ والاكوان الصغيرة المليئة بالاسرار والغرائب والتي ينطوي فيها العالم الاكبر

ومن أغرب غرائب العظماء الجديرة بالنظر والاعتبار والتي قد تظهر لاول وهلة عادية مألوفة جمعهم بين أشياء مختلفة الاعراق متناقضة كل التناقض ، ومن قبيل ذلك التئام النزعة الفلسفية بالسليقة الشعرية في ابي العلاء ، والتئام النزعة العقلية بالموهبة الفنية في مثل حيتي

وايسن، وذلك لان الفلسفة غير الشعر ، والشعر نقيض الفلسفة ، وكلاهما قائم على استعدادات في النفس متغايرة ، وقل مثل ذلك في المفكرة الفنية والاستعداد العلمي ، فان الفن الذي دأبه ان ينظر الى الاشياء مجتمعة في كليتها غير العلم الذي يعمد الى التحليل وصدع ألفة الاشياء وجراحها في طبيعة الانسان تختلف

وليس أبو العلاء فيلسوفاً من باب التوسع والمجاز أو لانهُ أخذ بطرف من الفلسفة ، بل هو فيلسوف بالمعنى الشامل الحديث للكلمة الذي يفهمهُ منها امثال الاساتذة وندلباند وهفدنج وفوريه وغيرهم من كبار مؤرخي الفلسفة في العصور الحديثة ، وهو يدخل الى حظيرة الفلاسفة مثل البطاقة التي دخل بها أمثال نيتشه وكارلايل وكولردج وغيرهم من عظماء الكتاب والمؤرخين والشعراء الذين غلبت عليهم أفكار خاصة ظاهرة المعالم في مناحي تفكيرهم وان لم يتبعوا على أساسها مذهباً فلسفيًّا منتظماً محبوك الاطراف متجاوب الاقسام مثل مذهب شوبنهاور وهجل وغيرهما من أصحاب الأبنية الفلسفية الضخمة . ولأبي العلاء أفكار خاصة مبتكرة عن الآداب والاخلاق وآراء في المرأة والتاريخ والاجتماع والحياة وكلها ظاهرة الحدود مطردة الاحكام لا يني يرددها ترديد الناسك تسبيحاته ، ووراء هذه المجموعة من الخواطر المنثورة المنظومة فكرة عامة يفزع اليها ويحتكم اليها ، وهذه الفكرة العامة خفاقة في كل ربوعه الفكرية ، ويصح ان نسميه مذهباً فلسفيًّا وموقفاً خاصًّا تجاه الحياة ، ونستطيع ان ننظر الى هذه الطوائف من الخواطر والافكار التي تموج بها صفحات دواوين أبي العلاء منفصلة عن الصورة الفنية والقوالب الشعرية ، وقد تجاوز المعري منطقة الشاعر الى سلطنة الفيلسوف ، فهو من الحين الى الحين يصارع مشكلات الفكر الابدية ويجاهد معضلات الحياة المستعصية بجأش رابط من غير ونية ولا فتور ، ويحاول ان يفض اغلاقها ويزيح النقاب عن سرها ، وتكاد تشعر بلهفة نفسه وتصلصل جوفه من شدة الظمء الى جرعة من المورد الذي يرد عنه المفكرين ظمأى متقلصي الشفاه لا ينقع لهم غليلاً ولا يشفي لهم نسماً ، ولم تبرد من لوعته المشبوبة في هذا الجهاد الشاق أضاليل الاماني وكواذب الاحلام ، ولم تصرفهُ عن مطلب السر صوارف الحياة ومشاغل العيش ، وهو يختال في رياض هذه المشكلات ببراعة فنية مذهلة جديرة بأساتذة الفن وأعلام الأدب ، ويكاد يذهلك في شعره التفكير الفلسفي عن الوحي الشعري لولا ما يتألق خلال أشعاره من بارقة الخيال المطرز الفذ وما يدفئها من حرارة المشاعر الحادة المستيقظة وما يتطاير فيها من تلك الكلمات المجنحة التي لا تشب الا من متون كبار الشعراء ، ولم يتحدث شاعر من شعراء الحضارة الاسلامية عن سر الوجود وغرائب الحياة والموت والخلود بلغة تشف عن الاهتمام العظيم مثل أبي العلاء . ولم يجعلها أحد منهم قطب حياته وكعبة خواطره كما

جعلها أبو العلاء ، فصريقه في الشعر العربي طريق مبتكر لم يسلكه أحد قبله وقليل من طرقه وسار في موحش دروبه بعده ، ولقد صار الحق على يده جمالاً شعرياً قبل ان يصير الجمال حقاً فنياً فهو شاعر مهزه الافكار ويميل بنفسه كل ميل كما تحركه العواطف والشهوات والخيالات ، وله مكانة محترمة بين الشعراء ومنزله عالية عند الفلاسفة ، وهو من سكان المنطقة الحارة الشعرية وله أيضاً قصور رحبة وضياع فسيحة في المنطقة المنجمدة الفلسفية

وبين الشعر والفلسفة حرب قائمة من قديم الزمان ، وما نود ان نضع هذه الحرب أوزارها ولا أن تنقشع غبرتها ، بل يحلو لنا ان ننفخ في نيرانها المستعرة لتتسع دائرتها وتظل معقودة السنار الى ما شاء الله ، لو استطعنا الى ذلك سبيلاً ، وقد بدأت هذه الحرب قبل ان يطرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته الخيالية خشية ان يفسدوا عليه انسانه الخيالي ، وانما نود دوام هذه الحروب لانه ليس مما يسر ان يفنى الشعر في الفلسفة فيستحيل صوراً ذهنية قليلة الجدوى ولا ان تندمج الفلسفة في الشعر فيجف وقارها وتحول خيالاته الرائعة طائل تحتها ، ويحسن بكليهما ان يعمل في دائرته ويسير في طريقه وان كان هناك مستوى أسمى يلتقيان في أعاليه ويتصافحان ويطلع كل منهما الآخر على نفيس مدخراته وغالي كنوزه ، ولذا نرانا عند ما نقف حيال شاعر كبير نتساءل عن فلسفته وطريقة نقده للحياة ، كما جرت العادة أن يزعم الفيلسوف كتاباته بشواهد مستمدة من الشعر يدعم بها حجته ويبرر موقفه ، فالشاعر يقتبس من أنوار الفيلسوف والفيلسوف يختلس من أشعة الشاعر ، وهما لا ينسيان هذا النسب العالي والاتحاد الروحي في أشد أوقات الخلاف والعداء

وليست وظيفة الشاعر ان يتناول الحق مباشرة ، وانما وظيفته ان يتناوله من طابعه الحسي وينفحه بالحرارة ويمزجه بحرية الانسان وعواطفه وأهوائه ومزاجه ، وليست المكانة الاولى في الشعر لقائله الشاعر في ذاته وانما لكيفية قوله وأسلوب أدائه ، وهناك جماعة من نقاد الادب يطلون في ذلك فلا يهتمون من الشعر الا بالصورة التي عبر بها الشاعر وتقدير نصيبه من الجمال والابتكار فني ، ولست أشك في ان الصورة والتعبير لها في الشعر المكان الاول ، فقد تؤثر فينا خمريا من خمرات أبي نواس او نغمة من نجوى لامرتين أكثر مما تحدثه نظم أعمق الحكم وأقدس الكتب ، ولكننا بعد ان نفرغ من أمر الصورة لا نقف عند هذا الحد بل ننتقل الى ما وراء ذلك فلا نلبث ان نجد لقلب الشاعر النابض الخافق الذي يعبر عن أعمق الخوالج ويلمس خفايا القلوب ويصوف بنا في مشارق النفس ومغاورها ويرشدنا الى آفاق فكرية فسيحة ويركز أعلامه فوق مظالمها وثنياتها

وليس الشاعر هو الرصاص الموزان الذي يرصف الالفاظ رصفاً وينحت التراكيب نحتاً

التفاعيل ويتخير القوافي الرنانة ، فهذا وزان نظام لا أكثر ولا أقل مهما تسامى أو أسف ، وانما الشاعر الحق هو من كان بطبيعته أكثر استجابة لمؤثرات الكون المحيطة به وبخاصة تلك المؤثرات التي يرتضي تصويرها الفن وهو يضم الى ذلك موهبة الموسيقية والتنغيم والسيطرة على اللغة وتسخيرها في اداء اغراضه والترجمة عما يقوم بنفسه من التأثيرات وما يدور فيها من شتى الخواطر وهو بذلك يستطيع ان يقرن عواطفه ونوازعه وخواطره عبارة موسيقية منسجمة ويقولها في شعر متسق جميل ، فهو مثل مزهر خفاق توقع عليه الطبيعة ألحانها وتعزف أناشيدها، وهو يفطن بحدة مشاعره الى جمال في الطبيعة يغيب عن عيوننا ويسمع منها انغاماً لا تصل الى آذاننا ويروي لنا عن عالم بعيد وان كان جد قريب منا ويحدثنا عن ارض مسحورة هي التي نعيش فيها ونسعى في مناكبها غير عالمين بما فيها من مفاتن الحسن وروائع الجلال لنبو الشعور وكلالة الحواس

***

على ان توافر هذه المزايا الشريفة والمواهب العالية لا يكفي لانشاء شاعر كبير يعبر عن روح العصر ويصف شتى جوانب النفس الانسانية وتلتقي في نفسه البواعث المختلفة والتيارات المتناوحة، وانما هي تكون شاعراً وسطاً يشعرنا شعره ولكنه لا يملأ نفوسنا وتتخذه صديقاً مسلياً لا استاذاً نسترشد بحكمته ولغور آرائه ، والشاعر الكبير يلزم لهُ مجهود من الطبيعة اكثر من ذلك وعليها ان تجزل لهُ المواهب السنية ولا مفر من ان يزاد الى تلك الحاسة اللطيفة والطبيعة المفرودة بالانغام عقل كبير يضيء الظلمات ويكشف المخبآت تشد من قوائمه في اكثر الاحايين ثقافة عالية وعلم وافر ، وأمثال هؤلاء الشعراء قلائل في كل الامم يجيل بهم الزمن وأبو العلاء من هؤلاء النوادر القلائل

ولعل النزعة الفلسفية جرت في أبي العلاء على السليقة الشعرية ، وفي المعركة التي نشبت بين عقله وعواطفه تغلب العقل في كثير من المواقف واستعلى على العاطفة ، وقد دفع ابو العلاء ثمناً غالياً لذلك ، ولولا انهماكه هذه الخطة واسرافه على نفسه فيها اسرافاً أساء الى شاعريته لكان شعره اجرى من مسالك النفس وأشد حركة في الطباع ، ولقد اجاب ابو العلاء داعي الفلسفة ولم يلب داعي الشعر لما قطع الاتصال المباشر بينهُ وبين الحياة والمجتمع وظل في عقر داره يجلو افكاره ويلقح عواطفه ولا يتعرض لجنو التجارب ومرها ولا يعاني مد الحياة وجزرها ، والوقوف على الخواطر وعدم المبالاة في التهيج والتقلب في ادوار الامل والخيبة والارتفاع والهبوط مسالك لا يلائم طبيعة الفلاسفة المتنسكين والعباد الزاهدين ولكنهُ مفسدة اي مفسدة للشاعر ان لشعره الجلال وصفيها المحبب . وقد نفض هذا المسلك من روعة خيال المعري وشوه

من جمال شعره ، وثأرت شاعريته الاصيلة لنفسها من نزعة التجريد والانطلاق وراء الحق الفلسفي فصار أطول الناس مصابرة وأشدهم جلداً على القراءة لا يستطيع أن ينتهي من قراءة صفحات معدودة من اللزوميات دون أن يحمل على نفسه ويمنعها

***

وحسب ابو العلاء انهُ قد أماط الكذب عن شاعريته لانهُ نزهها عن الخيال وحبسها على تقرير الحق العاري من التمويه والطلاء ، وجاراه في ذلك الدكتور وجيه حسين فتاش في مذكرى ابي العلاء عندما عقد الموازنة بين المتنبي وابي العلاء « المتنبي حكيم يتحلى الحكمة ويذكاف الفلسفة وابو العلاء حكيم حقًّا وفيلسوف لا يعرف التكلف ولا الانتحال » وحسب المال والجاه من الملوك والامراء اندفع بالمتنبي الى الكذب والمين وجعل حكمته صنعة وفلسفته شركاً لاصطياد المال ، والاستهانة بامر الدنيا جعلت ابا العلاء شديد الحرص على الصدق عظيم الحذر من انتحال الزور فكانت حكمته صادقة وفلسفته فطرية ، ومن هنا استجاب المتنبي الى الخيال وامتنع ابو العلاء عليه» وواضح من رأي الدكتور ان الخيال شديد العلاقة بالكذب وان ابا العلاء حرص على الصدق فنبذ الخيال ، وليس الامر كذلك ، وأرى ان مصدر هذا الوهم هو الخلط بين الحق الفلسفي والحق الفني ، وليس الخيال هو الكذب وانما هو منظار الحقائق وصور خفايا النفس ، وهو عتاد الشاعر وركنه الركين ، واذا كان الشاعر طائراً فان الخيال جناحه ، وقد يظن ان الخيال كذب وذلك لان الفن نفسه قائم على اكذوبة عريقة النسب في الصدق اذ يخلق عالماً غير العالم ويمده بالموجودات والاحياء ، والخيال هو عامل الانشاء في بناء هذا العالم وخالق احيائه ومبدع موجوداته ، والفن لا يجاري الواقع ولا يحتذيه لا لانهُ يجافيه ويتصدد ان يغلب نظامه ويمكس سننه وانما لانهُ يحاول ان يكمل نقصه ويسد فجواته ويصفيه ويهذبهُ ، قال شوبنهور « ان وظيفة الخيال هي أن يتم ما تبغي الطبيعة طلابه فيعجزها » وانما المهم في الخيال ان يقوم على صدق الاحساس ، وقد يصف لنا الكاتب من الكتاب جزائر واق الواق او جبل قاف وبلاد بيليت وهو مع ذلك أصدق حديثاً ممن يصف لك مشهداً عادياً معروفاً ، وقد وصف هومر حرب طروادة وصفاً قد يختلف في ظاهره وتفاصيله عن وصف المؤرخين لها ولكن هومر يعطيك لباب الحادثة ويطلعك على روحها ويترك التفسير ويلقي الحشو . والخيال على نوعين : الخيال المنشىء مثل خيال شكسبير ودانتي وجيتي لانهُ يجسم الاحساسات ويخلق الشخصيات . والخيال النافذ مثل خيال كارلايل وريتان ، وهذا النوع من الخيال هو الذي يعين صاحبه على استحضار

طيوف الماضي وتصوير الشخصيات التي طواها الموت ولولا الخيال لحرمت الانسانية من أروع طرق الادب وأنفس مبتكرات الفن ، وأرجح ان الدكتور عدل رأيه في هذا الموضوع بعض التعديل فقد شدَّد النكير على الاستاذ العقاد لانهُ رمى المعري بضعف الخيال في رسالة الغفران وعدها كثيرة من الكبائر وذلك في المقال الذي كتبهُ في نقد كتاب « المطالعات » ، والمتنبي أقوم بحقوق الشاعرية من أبي العلاء وأوفى بعهودها وحكمته فيض الطبع وثمرة التجربة ، وهو لا يعتنف الحكمة ولا يسوقها لك كالسياق الحطم ولا يؤديها بطريقة تعليمية جافة او على أسلوب المتحذلقين وزائرة المعرفة الذين شحنت غرائرهم بالبديهيات ورخيص الحكم ومبتذل الامثال ، وانما يأتي بالحكمة في سياق وصف حادثة او تصوير موقف باعتبارها جزءاً عضوياً من الوصف وقطعة من الصورة ، وهذا الايراد الفني للحكم حسب مقتضى الحال وفي المناسبات السانحة هو الذي أثبت حكمة المتنبي على كرِّ اهل الدهور وطبعها في النفوس وأجراها على عذبات الالسنة

***

ولقد ظهر جيتي في المانيا في عصر نهضة حافلة ، وكان الجو الفكري يمور بالافكار الفلسفية فسبَّ جيتي من الفلسفة ولكن بمقدار صوناً لشاعريته ، وذهاباً بنفسه عن الالتماس في التجريدات ومجافاة عالم الحقائق الملبسة والواقع الملموس فلم تذبل شاعريته ولم يُمَحِّض خياله بل ازداد قوة على قوة ، وقد تأثر جيتي بالفيلسوفين اسبنوزا وأفلاطون وهو مدين لهما بالكثير « ولكنهُ كما يقول الاستاذ ادورد كيرد في مقالهِ البديع عن « جيتي والفلسفة » ظلَّ طول حياته على أهبته لا يسمح للفلسفة ان تستأثر بنفسه ولا يقبل منها الا ما يماشي نوازعهُ ويلائم طبيعته ، وكان يستمر ناجيها دون ان يسترسل في تيهها او يأخذ في مسالكها الملتوية اذ كان يعلم أن قوتهُ الركينة قائمة على وحي الخيال الشعري » وقد أرضى جيتي غريزة حب الاستطلاع القوية في البشريين دون ان يسيء الى شاعريته فتح أبوابه لتأثيرات مختلفة وشارك في أكثر الحركات الفكرية ولكنهُ لم يمكنها من اجتياح طبيعته واستئصال غرائزه ، وظلَّ ثبتاً في مهاب رياحها ، وكان يعلم ان الافراط في طلب الحق الفلسفي يطفىء حماسة طلب الحق الفني ، ومن الاستهانة بحقوق الفن أن يسخر الشاعر ملكته لاجل فكرة أو ان يقفها للتضحية عن عقيدة ، لان الشاعر فنان قبل كل شيء ، ولا يكون الفن فناً خالصاً الا اذا كان مالكاً حريته مطلق السيادة في عالمهِ لا شريك لهُ في ملكهِ ولا مدافع لهُ عن مكانته ، والدين والفلسفة والادب كلٌّ منهم سيدٌ في عالمهِ ، والشعر لا يكون شعراً الا اذا كان حرّاً طليقاً غير خاضع لسلطان الدين او للفلسفة او

الآداب ، والاشعار التي تتضمن الوعظ والنصائح ولكنها تنفر الناس للفضيلة وتزهدهم عن الرذيلة هي نوع من الوعظ وضرب من التبشير . وأصحابها الصالحون يحاولون انقاذنا من حبائل الشيطان ومهاوي السوء فلهم ثواب عند الله وأجر عظيم في مستقر رحمته لحسن القصد وسلامة النية ، ولكن الفن لا يجازيهم على مجهودهم لانهم لم يتخذوا بها وجه الفن ، وأمثال هذه الاشعار شواهد في السلوك وسنن في الاخلاق كما ان ألفية ابن مالك شواهد في النحو وان كانت منظومة شعراً ، ولكن وجوده الخاص وشخصيته المستقلة ، والفنان الذي يحاول ان يستدرجنا على غرة ليسمعنا دروسه الاخلاقية ومحاضراته عن الفضائل والرذائل نسيه وأعضاً . وليست الفنون والآداب منابر للوعظ ولا أندية للتبشير ، ومن العبث ان ينازع الشعراء رجال الوعظ وظيفتهم ويضيقوا عليهم سبلهم . ومن المشاهد ان الكتاب الذين تتغلب عليهم نزعة الانتصار لناحية خاصة من نواحي الاخلاق يمسخون الطبيعة البشرية ويشوهون تصويرها ، والفنان الصادق تأبى به طبيعته عن مثل ذلك فلا يتالي في نزعة من النزعات ولا ينتصر لجانب من الجوانب

***

وتختلف وظيفة الشاعر عن وظيفة الفيلسوف ، فوظيفة الفيلسوف هي ان يتناول بالتحليل التيارات الفكرية الغالبة على جيل من الاجيال والتي تشكل افكار هذا الجيل وتقوم على اساسها ثقافته ومعرفته ، ويقيس أبعادها ويسبر أغوارها ، أما مجال الشعر فهو اظهار الجمال ، ولقد قال كيتس الشاعر « ان الجمال حق والحق جمال » ولكن مع ذلك فان التفسير الفلسفي للحياة غير التفسير الشعري ، وقد بسط الفيلسوف الفذ الايطالي بندتو كروتشه الفرق بين الفلسفة والشعر في هذه الكلمات القوية « قبل ان يصل الانسان الى درجة تكوين الافكار عن العالم كوّن افكاراً خيالية ، وقبل ان يفكر تفكيراً واضحاً كان يفهم الاشياء فهماً غامضاً مختلطاً . وقبل ان يتكلم نظم ، ولم ينطق بالنثر الا بعد ان عبر بالشعر ، وقبل ان ينحت الاصطلاحات استعمل المجازات ، فالشعر ليس وسيلة لشرح الفلسفة وانما هو نقيض لها ، فالفلسفة تحرر الذهن من الحواس ، اما الشعر فانه يغرقه في عالم الحواس ، والفلسفة تصل الى الكلي بنسبة تسابيه الى العام ، أما الشعر فيعظم ويكمل بمقدار انحساره في الخاص ، والفلسفة تضعف الخيال وتكبله والشعر يقويه ويطلقه ، والفلسفة تحذرنا من استحالة العقل الى جسم والشعر يطرده ان يجسم المعقول ، وأحكام الشعر مشتقة من الحواس والعواطف ، وأحكام الفلسفة قائمة على التفكير الذي لو تسرب الى الشعر جعله فاتراً ، ولم يعرف في سير التاريخ احد كان شاعراً كبيراً وفيلسوفاً كبيراً معاً » ونستخلص من كلام كروتشه ان الانسان لا يعبد الهين ، وان التفرق في الشعر والتبحر في الفلسفة لا يجتمعان في صعيد واحد

وان الانسان صدح بالشعر في بواكير الحياة الاجتماعية وفجر التاريخ قبل ان يتكلم نثراً، ولج في عالم الاحلام وسدر في غلواء الخيالات والاوهام قبل ان يستكثر من الصور المجردة ويعيش على الفروض والنظريات، فالخيال جاء قبل المنطق والخرافة سبقت التاريخ والغناء تقدم الكلام والشعر أقدم من النثر. وما زال ذلك يتكرر في حياة الامم ويشاهد في دروجها من مهد الطفولة وملاعبها وغضارة الفطرة وبساطتها الى شباب الحضارة وكهولتها وتكلفها وتعقيدها، وكل نهضة تبدأ بالشعر ثم تنتقل الى الفلسفة في آبان نضجها وهكذا ينتقل المصباح من يد الشاعر فتتلقفهُ يد الفيلسوف

***

ولا أجد مثلاً أبلغ في شرح رأي كروتشه من الموازنة بين رجلين أحدهما يمثل الشاعرية في أتم معانيها والآخر يمثل الفلسفة في صورة من أكمل صورها، وهما شكسبير وشوبنهاور، فشكسبير يصور لك كل خالجة من خوالج النفس ويكسو نزعات الاهواء صورة اللحم والدم، ووظيفته ان يريك الحياة بأجزائها وألوانها، وهو يصور عواطف الحب والبغضاء والانتقام والحسد والغيرة والندم والخوف والجشع والطموح وعدم المبالاة، ويمثل لك حالة الملك الهمام والقائد الرهيب والعابد المتنسك والمارق الفاجر والبطل الأبي والمتسوّل الوضيع والجبان النكس والعفيفة العاهرة والداعرة الفاجرة الى سائر تلك الصور العديدة من الاحياء التي تفنن الطبيعة في اخراجها، أما شوبنهور فهو يشاهد في الحياة أمثال هذه الصور المبينة ولكن ينفذ من خلالها الى الفكرة العامة المستقرّة خلفها ويبني عليها آراءه في الاخلاق ويقيم مذهبهُ الفلسفي؛ ويتناول بالتحليل هذه المظاهر ومجردها من أثوابها ويردها في النهاية الى مصدر واحد هو الرغبة في الحياة التي تبدو في صور متعددة

فشكسبير وظيفته ان يمثل ويصور، أما شوبنهاور فطريقته ان يشرح ويفسر وقد تظفر في روايات شكسبير بالحكم العميقة والنظرات النافذة وضروب الفلسفة العالية ولكنها ليست هناك غايته وانما هي جزء من البناء الفني وقطعة من الصورة اقتضتها ضرورة التصوير. وقد تقرأ لشوبنهاور الروائع الادبية والخيالات الشعرية ولكنها ليست واردة في كتاباته لغرض فني وانما هي هناك مدرجة للتجريد وسلم يرتقي به للفكرة العامة، وموجز القول ان الشاعر هو احساس الانسانية والفيلسوف هو عقلها ولا انسانية بغير احساس أو عقل

« وعقل » الفتى نصف ونصف فؤاده فلم تبق الاّ صورة اللحم والدم

ابو العلاء المعري

حديثكَ عن بحرٍ اذا هاج أرعبا ... فحدثْ عند الخوض أن تهيبا
ولكنهُ البحرُ الذي لا تزعزعُ ... عواصفُ تذري ارامياتٍ لتلعبا
وخلجانهُ درٌّ تعنده الضحى ... وشطآنهُ تبرٌ تبعثره الصبا
ويقصده الصادي فيلفيه كالندى ... وأطهرَ من دمع الصباح وأعذبا
سلامٌ على شيخ المعرّة أنهُ ... أفاض على الاجيال سحراً مركّبا
سلافةُ شعرٍ في اباريق حكمةٍ ... يطوف بها عانٍ اذا افترَّ قطّبا
رمتهُ يدُ الاقدار باليتم والعمى ... فكان له العقلُ الهدى والهدى الأبا
وغادرهُ الجدري صبيًّا مشوَّهاً ... حكى جلدُهُ الدنُ الطريقَ المحصَّبا
فما فيهِ ما يرضي العيونَ وانما ... بهِ كلُّ ما يرضي الشعورَ المهذَّبا
ترى وجههُ كالقفر حرَّانَ مجدباً ... وما خلفهُ كالروض ريَّانَ مخصبا
فيا لكَ قفراً لا ترى غيرَ شوكهِ ... ويا لكَ شوكاً يمنحُ العرفَ طيّبا
ويا لكِ دنيا بين حينٍ وآخرٍ ... تمنحُ محروماً بما عزَّ مطلبا

***

تسدَّدتِ الاقدارُ إرهاقَ اجدرِ ... فأصمعهُ آياً من الهزءِ مُعربا
وحاكت لهُ ثوباً قشيباً من الأذى ... فحاكَ لها ثوباً من السخط أشنبا
وأدَّبت الدنيا بنيها فنالها ... فتىً هالهُ ان لا يكونَ المؤدَّبا
وما عرَّقت نفساً اعزَّ ولا نهىً ... أصحَّ ولا عوداً أشدَّ وأصلبا
رأت في صباها شيبَهُ فتعجبت ... وشبَّ لدنُ شابت فزادت تعجبا
خنودٌ لو أنَّ الشمس تحظى بمثلهِ ... لما جاء في التنجيم عن موتها نبا
فقد يطفىء الموتُ الكواكبَ تاركاً ... على رغمهِ فرق السماكين كوكبا

ويمحو جميعَ القول الاَّ حقيقةً تجوب فجاج الارض شرقاً ومغربا
ليعرُبَ هذا المجد يا وُلْدَ يعرب فأيّ كريمٍ لا يمجّد يعربا
وللشام هذا الارثُ يا آل جلّقٍ ألا فليرِثْه لبنانُ ولتشخ الربى
ولو شاءت الدنيا الى الحقّ عودةً لسارت الى ارض المعرّة موكبا
وحجّ ضريح الشيخ طلاّبُ علمهِ كما حجّ طلاّبُ البركِ يثربا

***

ألا ايها الاعمى البصير الذي رأى بفطنته قلبَ الورى المتقلبا
وأبصر بالعقل الخفيات كاشفاً وراء التقى والبرّ مكراً ومأربا
ولم يرَ في الاديان إلاّ حبائلاً يصيد بها الداعي اليها الاكسّبا
حنانيكَ إنّ الالفَ مرّت ولم تزل تداوي من الانسان صلاًّ وعقربا
توخّيتَ إصلاحَ ابن آدمَ غيرةً وقد كان إصلاح السراحين أقربا
وحاولتَ إطفاء الشرور ولم يكن على الشيخ إطفاء البراكين أصعبا
ومن رام تقويم الطباع التي التوَت قضى يائساً منها كما عاش متعبا
فإنّ الذي فارقتهُ متعصباً لقد زادهُ مرُّ الليالي تعصّبا
وما خفتت في اللاذقية ضجّةٌ وما زال ذيّاك الصحيحُ محجّبا
فذا الناس الاّ اثنانِ ضارٍ مدجّجٌ ومستضعفٌ لم يُعطَ ناباً ومخلبا
وإنّا لَنخشى ان نصاحبَ ضيغماً وإنا لنأبى ان نصاحبَ ثعلبا
وما عزّ من يسطو على حقّ جاره ولو مدّ بين الارض والشمس كوكبا
وما ذلّ حقٌّ في عراكٍ لباطلٍ وكم ربَّ حقٍّ قد أُذلّ وخُيّبا
وليس يفيد الحقُّ في الحرب ربّهُ اذا قُرِنَ في الكفّ المهنّدُ أو نبا
وفيمَ اقتتالُ الناس والموتُ قصدُهم سيبلغهُ من هفّ منهم ومن حبا
فلو أنفقوا بعضَ الذي يخفرونهُ على الشرّ من جهدٍ على الخير ما كبا
قد اختلفوا روحاً وعقلاً وفطرةً كما اختلفوا داراً ودِيناً ومذهبا
لهم مجلسٌ للسلم تمتدُّ فوقهُ سحائبُ نقعٍ تجعل النور غيهبا

اذا اجتمعوا فيه لترتيب خطة ... توقعت الاعزال شراً مرتبا
وإن ألصقوا شعباً ضعيفاً بقولهم ... رأى يلصقهم بالنفس ظلماً مشعبا
ولو وصلت أبحاثهم في اجتماعهم ... الى الشيخ رموا لجهلهم اضحك أغربا

***

فيا من رأى في الدين قيداً لعقله ... فأعمل فيه مبردَ النقد مقضبا
فلم يرَ في الاشياع من خلقائه ... وفي قتله الاّ حديداً مذهبا
فأطعن للغاوين لا متهيباً ... ولا طامعاً ما كان عنهم مغيبا
وأفيقوا أفيقوا يا غواةُ فانما ... ديانتكم مكرٌ وأحلامكم هبا
فما عملوا الاّ برجي قلوبهم ... فأعرض عنهم مشفقاً متحببا
وآثر ان يحيا بقيةَ عمرهِ ... سجيناً اذا جاءوا يؤاسونهُ أبى
على أنهم لا مهربٌ من بحثهم ... كما جاء ظمآنٌ نميراً ليشربا
عطاشاً الى ما يُسكر النفس حولهُ ... جياعاً الى ما يُشبع العقل سغبا
صبائهم شعرٌ وعلمٌ وانهُ ... خزانة اشعارٍ وعلمٍ لمن صبا
يقول لهم عودوا الى العقل كلما ... دعيتم الى تصديق ما العقل كذّبا
من اشتار ما كذّبتهُ النبوةُ اعتدى ... ومن نفّس الشاةَ البريئة أذنبا
ومن مرّح البرغوثَ باسم كفّهِ ... أعدّ لهُ في دولة الفضل منصبا
تسالم انسانٍ وعطفٍ ورأفةٍ ... وبيعة تكبيرٍ وزهدٍ قط ما حبا
ولكنها ما تم الاّ تزيّنت ... فتبها يا ابي شقيّا معذّبا
وما دام ثابٌ للثي يريبه جرعةٌ ... فأهلاً بسهلاً بالثوب ومرحبا!

***

سلامٌ امام الناس حتى ... من الشعر يحكي ترحها المتهيبا
أرق وراعى الناس ... يظل الانسان الحليمة ... حضرا

برازيل الياس فرحات

الانثروبولوجيا والبحث الجنائي

الهيكل العظمي

يدل على سلالة صاحبه
وجنسه وقامته وعمره

من البواعث على اغتباط كاتب هذه السطور ان أتيح لهُ في رحلات مختلفة الى بلدان أوربا واميركا زيارة دور للآثار القديمة فيها خلاصة ما عثر عليه العلماء والمنقبون من بقايا الحيوانات البائدة في العصور المتغلغلة في القدم . من هذه البقايا عظام او كسر عظام ، أخذها العلماء وبنوا على أساسها هياكل عظمية تامة . منها ما هو خاص بحيوانات مختلفة النوع ومتفاوتة الحجم ومنها ما هو لأناس أو لسلالات من الناس قاموا وبادوا في بقاع متباينة من سطح الارض . وقد تكون العظمة عظمة الفخذ او عظمة العضد او قطعة من [redacted] الجمجمة او فكًا ، ولكن العلماء المختصين يستطيعون على ما يظهر ان يتبيَّنوا من دراسة هذه العظام اوصافاً دقيقة وحقائق متنوعة عن صاحبها ، فيبنوا على هذه الاوصاف والحقائق صورة كاملة لصاحب العظمة سواء أكان حيواناً أم انساناً وقد يستطيعون اذا فازوا ببضع عظام ان يعيدوا بناء الهيكل العظمي كاملاً . وكثيراً ما سأل نفسهُ محيراً كيف يفعلون ذلك ؟

والعلم بآثار الاحياء البائدة جليل الشأن من نواحٍ متعددة . فهو ذو صلة بفهم التطوُّر العضوي في الاحياء ونشوئها . وهو ذو صلة كذلك بدراسة الاحوال الجوية والارضية التي كانت تسود المنطقة التي عاشت فيها تلك الاحياء وما طرأ عليها من تبدُّل . ولكنهُ بحث يتصل بالماضي السحيق ، اذا وجد فيه ذهن العالم متعة وذهن العالم فائدة كبيرة الشأن في استكمال العلوم المتصلة به ، فانهُ من الصعب ان نستكشف لهُ فائدة عملية تتصل بحياتنا اليوم

إلاَّ ان قراء المقتطف اصبحوا يعلمون ممارسةً لعونهُ في نصوله ، ان البحث العلمي لا يمكن حصره في حدود النظر مهما يكن الموضوع نظريًّا ، ولا ان تقسَّم المباحث العلمية تقسيماً حاسماً

بين النظريّ والعمليّ . وهذا يقيننا ويقين كلّ من تتبع تاريخ العلوم وتقدمها

ولذلك ما زال هذا الكاتب يترقب ان تسفر المباحث العلمية الحديثة عن تطبيق عملي لما يعرفهُ عداه الآثار البائدة عن عظام الهيكل الحيواني وما يثبتونهُ فيها من الصفات وما يستخلصونهُ من دراستها من الحقائق . وقد تمّ لهُ ما كان يتوقع عندما قرأ في إحدى المجلاّت العلمية الاميركية عن تطبيق هذا العلم على البحث الجنائي مما يسهل على رجال البوليس والتحرّي استكشاف بعض الجرائم والجنايات الغامضة

فقد حدث في احد الايام ان جماعة من الاطفال كانت تلعب في حفرة قريبة من حدود قرية كبيرة بأميركا فعثر الاولاد في أثناء لعبهم على مجموعة من العظام ظهر لاولي الامر بعد بحثها أنها عظام بشرية . فعهد الى عالم أنثروبولوجي — وهو وصف هذا الضرب من العلم — بدراستها ففعل وبعدما استوفى دراستهُ وضع أوصافاً دقيقة للانسان الذي كانت هذه العظام عظامهُ . قال ان صاحب هذه العظام امرأة خلاسية اي سليلة سلالتين مختلفتين وقد كانت في هذه الحالة زنجية الام بيضاء الاب، في الثالثة والثلاثين من عمرها طولها خمس اقدام وست بوصات ونصف بوصة ووزنها ١٢٠ رطلاً . فلما اتصلت هذه الحقائق بدائرة الامن العام تمكن رجالها من التعرّف على سيدة ضاعت ولم يعثر لها على اثر . وكانت أوصاف هذه السيدة محفوظة في دائرة الامن العام ولدى مقابلتها بالاوصاف التي استخرجها العالم الانثروبولوجي من دراسة العظام فقط ظهرت مطابقة عجيبة . عمرها ٣٣ ½ — مقابل ٣٣ في اوصاف العالم. طولها ٥ أقدام و٧ بوصات — مقابل ٥ اقدام و ٦ ½ بوصة في أوصاف العالم . وزنها ١٢٥ رطلاً مقابل ١٢٠ رطلاً في أوصاف العالم . لون بشرتها بين الزنجي والابيض في الاثنين

وليس هذا الوصف الدقيق بغائر أو من قبيل الحزر والاحتمال . وذلك لانّ الهيكل العظميّ في الانسان — على قول استاذ التشريح والانثروبولوجيا الطبيعية في جامعة وستون ريزرف الاميركية — يبين لتاريخ الطبيعي لصاحبه بلا خطاء ويبقى قادراً على تبيانهِ بعد انقضاء قرون وصاحبهُ دفين في أطباق الثرى

السلالة تستبين منه والجنس والسن والقامة . وقد يمكن ان يستخلص من بعض عظامه بعض الامراض الخطيرة التي أصيب بها في اثناء الحياة مما تتركه من اثر في العظام

وقد بلغ من تقدم هذه الطريقة انها أصبحت معواناً لا بدَّ منه للباحث الجنائي وللباحث الأثري وللمؤرخ بل انها تطبق أحياناً على الاحياء فتفحص عظامهم بواسطة الاشعة السينية لاستخلاص ما يمكن ان يكون ذا فائدة في معرفة شؤون لها صلة بالنموّ والصحة

والهيكل العظميّ يبيح اسراره للعلماء والباحثين عن طريق القياس المقابل . فالاوصاف الخاصة بالسلالة مثلاً تمكن معرفتها من النسبة التي بين عظام الجمجمة وعناصرها . فجمجمة الزنجي مستطيلة مسطحة . ومحجرا العينين بعيد احدهما عن الآخر . ومستوى عظام الوجه منحرف انحرافاً شديداً . ثم ان الحوض ضيق وعظام الذراعين طويلة بالقياس الى طول عظام الفخذين

هذه النسبة المختلفة متباينة عما تراه مما يقابلها في هيكل رجل من الجنس الابيض

وليس في وسع الانثربولوجي ان يميز فقط هيكل رجل من سلالة معينة عن هيكل رجل من سلالة أخرى بل يستطيع كذلك ان يميز هيكل رجل خلاسي أي خليط من سلالتين وبدرجة ذلك

ثم ان الجنس او الشق أي هل صاحب الهيكل ذكر او أنثى يمكن استخلاصهُ من دراسة الهيكل العظمي وفي ٩٨ في المائة من الحوادث يمكن الاعتماد في ذلك على دراسة عظام الحوض وهي العظام التي تحمل في المرأة الرحم اي بيت الولد . فاذا درس الحوض وأضيفت اليه دراسة الجمجمة أمكن الجزم في هل صاحب الهيكل ذكرٌ او أنثى . ومن الحقائق التي أثبتتها البحوث والتجارب التي يمكن الاعتماد عليها في هذا الصدد ان سعة الجمجمة تقلُّ في الانثى نحو ٢٠٠ سنتيمتر مكعب عنها في الذكر . وهناك عظمة معينة هي أقل بروزاً في جمجمة الانثى منها في جمجمة الذكر . أما عظمة الحوض في المرأة فأوسع بحكم الطبع منها في الرجل . وهيكلها بوجه عام أدق وأرشق . حالة ان هيكل الرجل أضخم وأقوى

فلنفرض الآن ان سلالة صاحب الهيكل قد تعيَّنت . وان جنسهُ قد عرف . فلنتقدم الآن في الاسلوب الذي يعتمد عليه الباحث في تعيين قامته . انَّ ذلك يعتمد على معادلات رياضية استخرجها الباحثون من دراستهم المسهبة للصلة بين القامة وطول العظام في الذراعين والفخذين . وعظمة الفخذ خاصةً من أهم ما يعتمد عليه في هذه الناحية . فقد أثبت الاحصائيون ان طول الرجل يبلغ نحو ضعفي طول هذه العظمة زائد ٨١٣ ملمتراً و ٦ في المائة من الملمتر . قلنا « نحو ضعفين » والواقع ان النسبة الدقيقة هي واحد و٨٨ في المائة . أما النسبة في المرأة فهي ١٩٤ من طول

عظمة الفخذ زائد ٤ ٤ر٢٢٨ من المتر . ثم هناك نسب أخرى معروفة للعلاقة بين طول القامة وطول عظمة الذراع العليا المعروفة باسم عظمة العضد والنتائج المعروفة تثبت ان الاعتماد على هذه المقاييس واستخلاص طول القامة استناداً اليها لا يحتمل خطأ أكثر من واحد في المائة

ومن أظرف ما يروى من الحوادث التي كان الحكم فيها للبحث في العظام ان هنديًّا أميركيًّا كان لهُ ولد يملك قطعة من الارض . وغادر الولد البيت ولم يرجع . ثم ظهر ان في هذه الارض بترولاً . فطالب الوالد بحقهِ . فتعذَّر الحكم لهُ لانهُ لم يثبت ان ابنهُ ليس على قيد الحياة . ثم علم من سجلات الدوايس في ولاية مجاورة ان شابًّا يشبه في أوصافهِ العامة ابن هذا الهندي قتل وهو منطلق جواداً ودفن . فأمرت المحكمة بأن تنبش الجثة ويعهد بفحص عظامها الى أحد الباحثين المختصين . وبعد دراسة دامت ثلاثة أيام ثبت ان الجثة جثة ابن ذلك الرجل فنال حقهُ في الارث عن طريق البحث الانثروبولوجي

أما عمر صاحب الهيكل العظمي فيمكن استخلاصهُ بدقة عظيمة من دراسة نسيجهِ العظمي اذ في العظام مراكز تعرف باسم مراكز التعظُّم أي التحوُّل الى عظام . وقد درست هذه المراكز درساً دقيقاً وعرفت حالتها في كل سنة من وقت الولادة الى السنة الحادية والعشرين من العمر . فبدراسة هذه المراكز في عظام هيكل ما ، يمكن تعيين العمر اذا كان تحت الحادية والعشرين تعييناً دقيقاً لا يحتمل من الخطاء أكثر من شهرين او ثلاثة أشهر . أما اذا كان فوق الحادية والعشرين فعلى الباحث الاستعانة بتحولات عظمية أخرى ولا سيما في ملتقى عظام الجمجمة نفسها . فأطراف هذه العظام مسنَّنة وتكون غير متداخلة او ملتحمة في بدء العمر ثم تزيد تداخلاً والتحاماً بتقدُّم العمر ، فدراسة حالتها في جمجمة ما ومدى تداخلها والتحامها من العوامل التي تقرن بدراسة مراكز التعظُّم لتعيين العمر . ثم ان حالة المادة العظمية نفسها في العظام تتحول بالتقدم في السن ودرجات تحوُّلها معروفة . فدراسة هذه المادة عامل ثابت من العوامل التي تساعد على تعيين السن

هذه الخواص لا تتغير بعد الموت وتبقى على ما هي مئات بل ألوفاً من السنين . وقد عيَّن عمر الملك توت عنخ امون من دراسة عظامهِ فاذا هو ١٨ سنة وعيَّن عمر حميهِ الذي كان مدفوناً على قرب فاذا هو ثلاثون سنة . ثم ان دراسة عظامهما بينت ان صلة القرابة بين الرجلين كانت

قريبة جداً علاوة على المصاهرة . وكانت هذه الحقائق مما ساعد الباحث الاثري والمؤرخ في عملها

أما الوزن فلا يمكن تحديده الاَّ بوجه عام ، لان السمنة لا علاقة لها بطول الهيكل وعرضه فقد تدل مقاييس هيكل من الهياكل على أن صاحبهُ من وزن معتدل . ولكن من المحتمل ان صاحبهُ في الواقع كان نحيفاً قليل الرياضة فكان شديد السمنة ووزنهُ فوق المعدل كثيراً

بقي أن نروي حادثة او حادثتين طبقت فيهما هذه القواعد علاوة على ما تقدم

عثر في أحد الايام على بقايا سيارة محترقة وعثر في هذه البقايا على هيكل عظمي لرجل . وعند البحث ظهر ان اللوحة التي تحمل رقم السيارة مفقودة . فاتجه الفكر الى حدوث جناية . وكان من المعلوم ان رجلاً في تلك المنطقة قد ضاع أثرهُ . وانهُ كان قبل ذلك قد تلقى رسائل تنطوي على تهديد . الاَّ ان الهيكل الذي وجد كان ينقصهُ أحد الفخذين . أي انهُ كان هيكل رجل بتر فخذه . ثم علم ان في تلك المنطقة كان يوجد رجل مبتور احدى الساقين ولهُ ساق من خشب وانهُ كان يهدد بالانتحار . فهل الحادثة حادثة قتل او حادثة انتحار ؟ فلما فحصت عظام الهيكل ظهر أن الاوصاف التي بنيت على الدراسة تنطبق على كلا الرجلين . واذاً فالحل المرتقب متصل بتلك الفخذ الضائعة . فكيف السبيل الى معرفة ذلك

فقال العالم في نفسه ، اذا كان هذا الهيكل هيكل الرجل المبتور الساق ، واذا كانت ساقهُ قد بترت قبل سنوات كافية لان في احد الرجلين فيجب ان تكون عظمة الحوض التي كانت متصلة بتلك الساق قد ضمرت وتغير نسيجها عن العظمة التي تقابلها في الجهة الاخرى . ففحص عظمة الحوض فحصاً مدققاً فظهر انها كذلك وثبت ان هيكل هيكل الرجل المبتور الساق . فنقلت نظرية الانتحار على نظرية القتل

وعثر من بضع سنوات على هيكلين طفلين في تلة تابعة لليهود الحمر في ولاية مسوري الاميركية ففحصا فدل الفحص على انهما طفلان أبيضان واستدل بالاشياء التي كانت محيطة بهما على انهما دفنا دفناً تاماً اشعار قبل مائة سنة تقريباً فلما ادقنا هناك في بلاد بعض اليهود الحمر وهم خصوم البيض في ذلك العهد . فدرس العالم نسيج عظامهما فتبين انهما كان ضحية سوء التغذية . فبنى على ذلك نظرية لا بأس بها وهي ان أسرة من مقاديم البيض كانت آخذة في النزوح الى غرب اميركا من مائة سنة فوصلت منطقة يقل فيها الطعام والماء وتعسر فيها أحوال العيش فمات الطفلان فدفنا حيث لا يحتمل ان يتجه اليه نظر اليهود فينبشوه

الحركات العربية

المنظمة وأثرها الادبي

انيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

ذكرنا انهُ في الثلث الاخير من القرن الماضي ظهر في سوريا والعراق صيحات أدبية تُهيب بأبناء العربية في السلطنة العثمانية ان يهبُّوا من رقادهم ويسعوا لاعلاء شأنهم . وقد كان لتلك الصيحات أثر يذكر في تنبيه الشعور ونفض غبار الخمول الذي تراكم عليه قروناً عديدة . على ان الامم العربية لم تكن قد وصلت في حياتها الاجتماعية والسياسية الى درجة التكاتف المنظم . فلم تتجاوز تلك الصيحات حدّ اثارة الشعور ، بل لم يكن لها اثر بيّن الاّ في حلقات خاصة من أهل الثقافة . وظلّ الامر كذلك حتى أعلن دستور ١٩٠٨ فسر البلاد العربية بموجة من الاخلاص والحماسة للوطنية العثمانية . لكن تلك الموجة لم تلبث كما بسطنا في غير هذا المقام ان تراجعت وضعف أثرها في النفوس

وقد دلّت العرب التجاربُ على ان القانون النظري شيء وتنفيذه شيء آخر ولعلهم ذكروا بمزيد خط كلخانة الذي اصدره السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩ ثم الفرمانات والعهود الصادرة بعد ذلك كفرمان ١٨٥٦ ، وفرمان ١٨٧٤ ، والمادة التاسعة من معاهدة باريس ، ودستور مدحت سنة ١٨٧٦ . وفي كلها كانت تركيا تعترف قانونيًّا بالتساوي بين جميع الاجناس والاديان في السلطنة . على ان ذلك التساوي لم يتمّ فعليًّا

فلما ذهبت النشوة الدستورية الجديدة تنح العرب عيونهم فاذا هم والاتراك وجهاً لوجه ، واذا بينهم اختلاف عريق يثير الشكوك بنيات الاتحاديين — وهم حماة الدستور ومنفذو احكامه . فتملّكهم التشاؤم ورأوا ان العهد الجديد لا يختلف عما سبقهُ وانهُ لا بدّ لهم من العمل . وكانوا في مطلع القرن العشرين وقد خطوا خطوات واسعة في سبيل الرقيّ ، وتهيأ لهم من اسباب النهضة

ما لم يتهيأ من قبل ، فأخذ السياسيون منهم ينظمون الجمعيات والشعبيات توصلاً الى تبيين حقوقهم وصدّ التيار التركي من الطغيان عليهم

وغير خافٍ ان موقف الاتحاديين من الدستور لم يكن سهلاً . فهم الذين أعلنوه رغم الدين كان عليهم أن يحموه ويثبّتوه . فلم يكن غريباً ان يحسبوا معظم السلطة في أيديهم وأن يفكروا جلّ تعويلهم على العنصر التركي

وبذلك فتحوا باباً للتذمر غير الاتراك . وسرعان ما أحدث هذا التذمر تفكيراً في صفوف الدستوريين من ملكيين وعسكريين ، فبدرت بين العناصر المختلفة كل رأيناه يوافق هواه الظن ، ولم يكن بين الشيعة المتحمسة من يتلافى الامر بالتي هي أحسن . فكان ما كان من الحالة المتشادّة العنصرية التي فرّقت قلوب العرب عن الترك وحوّلت أنظارهم الى العصبية القومية

وطبعاً لم يكن عقلاء الطرفين راضين عن هذه الحالة التي أقلّ ما يقال فيها انها توهن قوى الدستوريين وتحرج مركزهم . فقام مفكّروهم يدعون الى التساهل وإزالة سوء التفاهم . ومنهم الدكتور رضا توفيق (١) . فقد صرّح سنة ١٩١٠ لمحرّر جريدة (بروجريه دي سلانيك) بقوله — (٢) « أنا على اتفاق تام مع الجمعية على ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية ، ولكنني أخالفها في استخدام القوة . واذا كان وجودي في المجلس قد قضى عليّ بأن أحتل على طلعت بك المثل الاكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيقي منذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي فذلك لاعتقادي بأن الواجب عليّ ان أفعل ما فعلت . ولو سكتّ كثيري لكان ذلك خيانة لا يغتفرها الوطن لي . ان الدستور لا يكون الاّ كلة لا معنى لها اذا لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلّها معاملة واحدة بمقتضى أحكام الدستور »

في كلام هذا التركي الحرّ ما يشير الى سياسة الاتحاديين التي حملت العرب بوجه على التبرّم وسوء الظن

وكما كان بين مفكري الاتراك متساهلون يدعون الى الوئام كذلك كان بين مفكري العرب فقد ذكرت جريدة الاهرام ان جمهوراً من اللبنانيين في مصر اجتمعوا سنة ١٩١٠ وداع سليمان البستاني نائب بيروت . فجرى في ذلك الاجتماع من الكلام ما يشفّ عمّا كان بين العنصرين التركي والعربي من توتّر في العلاقات . وها نحن ننقل بعضه بتصرف عن مجلة التراس اليروتية — (٣) قال رفيق بك العظم « ان العرب مهضومة حقوقهم والمهم منتهكة مضطهدة »

(١) هو عالم تركي كبير وكان من سيم الاتحاديين (٢) نورة الشرق المقتطف ١٩١٦ ص ٥١
(٣) مج ٢ ص ٣٣٣

وهو يعزو هذا لا الى الامة التركية فهي صديقة العرب ولكن الى بعض ذوي المناصب في الاستانة . ثم يقول منحسراً . « فالواجب ان يفهموا أننا لا نصبر على هذا الضيم لانهُ يهمنا ان تحيا الدولة . إن الترك بلا العرب تزول دولتهم ، والعرب بلا الترك يؤكلون ويهضمون ، فحياة الدولة تهمنا وتهمهم على حدٍّ سواء »

وممن تكلموا في ذلك الاجتماع الدكتور يعقوب صرُّوف فقال — « ان صديقي كان كمتقد أخينا رفيق بك حتى قابلت اليوم العلاَّمة البستاني ففهمت منهُ الحقائق ، وأنا واثق انهُ لم ينقل اليَّ غير الحق فاذا كان العرب قد حرموا الوظائف فلأنهم لم يسيروا في سلك التوظيف. وان كان قد يدر من بعض كتَّاب الاتراك ما آلم العرب فذلك ليس رأي الغالبين في أزمَّة الامور « بل ان رأيهم عكس ذلك تماماً » . . الى ان يقول . . « فالواجب ان نداوم بالنصيحة ونحو سوء التفاهم ولساعدهم على ادماج جميع العناصر والطوائف حتى تصحّ الجامعة العثمانية »

وأخذ السيد رشيد رضا يثبت ان هناك سوء تفاهم بين العرب والترك لا يجوز انكاره ، على انهُ كان يحاول ان يحصره في فئة معينة . ومما قالهُ « لا نكران ان بعض ذوي الاغراض في الاستانة هم سبب هذا الشر »

أما البستاني فكان ينزع منزع السياسي العثماني الصميم . وقد شرع يبيِّن ان هذه السيادة مبنية على الاوهام ، وان الدولة مفتوحة للعرب كما هي للترك . وفي كلامه — « أقول لكم عن ثقة وعن يقين ان قولهم ان بين رجال الحكومة من الاتراك قوماً يكرهون العرب او يضطهدونهم وهمٌ باطل اختلقهُ بعض أصحاب الاغراض والمفاسد . فالاتراك عموماً ورجال الحكومة منهم خصوصاً يحبون العرب ويجلونهم ويعتمدون عليهم في تأييد الدولة . ولا يضطهدون اللغة العربية بل هم على عكس ذلك يؤيدونها »

فيؤخذ مما ورد في هذا الاجتماع الذي كان يضم نخبة من مفكري العرب ان العرب كانوا يتهمون الاتراك بهضم حقوقهم والاستبداد بالامر دونهم واضطهاد لغتهم . وقد تناول جرجي زيدان ذلك في مجلة الهلال فنشر مقالاً موضوعه العرب والترك حاول فيه الاعتذار عن الاتحاديين وحمل العرب على الرَّوية وحسن الظن . ومما جاء فيه[1] — « لا ننكر استخدام جمعية الترقي نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الاكثرية من حزبها ، وانها تلكأت في اسناد الوظائف الكبرى الى العرب . ولكننا لا نحمل ذلك على رغبتها في الاستئثار بالسيادة دون العرب او غيرهم ، ولكن نحمل ذلك على ما نظن رغبة في سلامة الدولة ، وصيانة الدستور الذي فازتهُ بعد شق

(١) الهلال مج ١٧ ص ٤١٥

الانفس من ان تعبث به الايدي اذا تولاه غير اهله» ولشدة رغبة زيدان في المساواة وعطفه على القائمين بأمر الدستور اخذ يلوم بعض مواطنيه على وقوفهم موقف العداء من اخوانهم الاتراك فيقول — « لما اعلن الدستور وجاهر الاتراك انهم يتنازلون عن جنسيتهم وامتيازاتهم رغبة في اتفاق ما كان من العرب الا السعي في تأييد الجامعة العربية . فألفوا جمعية الاخاء العثماني بالاستانة وأنشأوا الصحف للدفاع عن العرب والتنديد بالاتراك والتفاخر بمجد العرب وعلوم العرب وعلوم العرب»

وفي كلام زيدان شيء من الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فان الذي يراجع تاريخ هذه الحركة يرى كما بينا مراراً ان العرب لم يكونوا عند اعلان الدستور اقل غيرة من الاتراك على الجامعة وان تبعة الشقاق الذي نجم بعدئذ واقعة على الطرفين ولا سيما على الاتراك . فزيدان نفسه يصرح باستئثارهم بالمناصب ولكنه يأخذه بحسن الظن وروح التفاؤل ولا ينتظر من كل واحد ان تكون له تلك الروح فيغضي عما كان يراه من استبداد جنبي

وقد عقد رشيد رضا في مجلة المنار مقالاً ضافياً [1] تناول فيه ما كان من سوء تفاهم بين العنصرين فحلل اسبابه وشرح كيانه وجزئياته ثم قال منحفظاً « لا اقول ان كل ما روي من ذلك صحيح المتن والسند . ولا اقول ان ما صح منها كان بسوء النية ولمعد هضم حقوق العرب . ولكني لا استطيع ان انكر قول من يقول انها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم »

وسواء كان الاتراك الملومين او كان العرب فالذي يهمنا هنا ان ذلك النفور العنصري يومئذ حقيقة لا مراء فيها وانه قد شغل الافكار والاقلام زمناً غير يسير ، وقد أصاب رشيد رضا اذ قال في مقال تسابق الذكر « هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي (١٩٠٩) . وكانت قد نجمت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمهور فلما كثرت وكبرت تكلم الناس في سوريا ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية حتى في اميركا ، وثارت فيها قرائح الشعراء ، وتجاوبت فيها الاصوات حتى عمت البلاد والجهات . فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً

ومن دلائل هذا الاهتزاز انهُ في الجمعية التي عقدتها اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٠ قام عضو شرقي منها هو عمر منصور بك بحوث طرابلس الغرب والقى خطاباً بالغاً منتهى الجرأة . وفيه يحمل على الاتراك ويعزو اليهم سبب الخلاف الناشب بينهم وبين العرب فيقول متألماً [2] — « لماذا لا تتمدنون على طريق الالمان والروم والبلغار اشقائكم . اتعرفون

(١) العرب والترك مجلة المنار مج ١٢ ص ٩١٣—٩٣٢ (٢) جريدة البرق (بيروت) سنة ٣ عدد ١٢٢

لماذا ؟ لانّ عند الارمن قنابل ، وللروم اليونان، وللبلغار بلغاريا . اما نحن فلا يشدّ ازرنا احد ولكن تقولوا انّ لنا الله ورسوله . اذا قال لكم مبعوث عربيّ ان ابناء العرب مختارون منكم فلا تقولوا بهذا القول ولا تصدقوه . اقول لكم هذا على مسمع منكم جهاراً »

ولم يكن اندفع هذا النائب الجريء في عاصمة الاتراك ومركز قوتهم الاّ لما كان يراه او يسمعهُ من اقوال غلاتهم حطًّا من كرامة العربية وابنائها . ويكفي ان نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب « قوم جديد » للكاتب تركي اسمهُ عبيدالله . فقد ذهب في الغلوّ كلّ مذهب حتى طلب من الاتراك ان ينزعوا اسماء كبار العرب من الصحابة والتابعين عن قباب المساجد ويضعوا محلها اسماء عظام الترك [1]

ومن اقوال غلاتهم قول احدهم [2] — « ما هي العثمانية ؟ ولماذا لا نقول التركية . إن الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطة بعضها ببعض وراء ستار وهمي . ونحت اسم بالي خلق . يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعمد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغهُ بالصبغة التركية المحضة »

وقد طلب احمد جودت محرر جريدة إقدام ان تنفح اللغة التركية من الكلمات العربيّة . وعلى وتره ووتر اضرابه من الغلاة كان يضرب جماعة من أولي الامر ومثيري شعور الجمهور . وقد تغلبت اصواتهم على أصوات المتدلين ، وهذا ما دفع العرب الى مقابلتهم بالمثل والكيل لهم بنفس المكيال

والظاهر ان العرب أحسوا بهذا الشر منذ أوائل العهد الدستوري فعمدوا الى توحيد دفاعهم بتأليف الجمعيات السياسية وهاك أهمّها [3]:—

المنتدى العربي سنة ١٩٠٩ — أسس في الاستانة على ان يكون مثابة للشبان العرب في تلك العاصمة

جمعية الفتاة (الاستانة) — وهي تعرب بمنزلة الاتحاد والترقي للترك

الجمعية القحطانية ١٩٠٩ (مصر) — جمعية سرّية غايتها بث المبادىء الصحيحة بين ابناء الامة العربية وتوحيد صفوفها

الجامعة العربية ١٩١٠ (مصر) غايتها السعي لاتحاد حقيقي بين أمراء الجزيرة العربية ثمّ التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإنشاء صلة بين الجمعيات العربية في سورية والعراق وغيرها

حزب اللامركزية ١٩١٢ (مصر) غايته تبيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية

(١) القضية العربية (الاعظمي) ١ — ١٠١ (٢) القضية العربية ١ — ٦٥ (٣) تلخيصاً عن كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ ص ٧ — ٤٩

جمعية الاصلاحية ١٩١٢ (بيروت) وهي أشبه بفرع من حزب اللامركزية وينحصر عملها في تنفيذ الاصلاح اللامركزي في ولاية بيروت

جمعية العهد ١٩١٣ (الاستانة) وهي تضم نخبة من ضباط العرب في الجيش وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، على ان تظل متحدة مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا (قبل الحرب)

على ان أول جمعية عربية نشأت في ذلك العهد هي جمعية الاخاء العربي . تأسست في الاستانة سنة ١٩٠٨ . ومن غاياتها جمع كلمة الملل العثمانية المختلفة والسعي لاعلاء شأن الامة العربية وصيانة حقوق ابناء العرب وتأييد الحرية والعدل والمساواة بين عناصر الامة العثمانية وإزالة التضاغن وسوء التفاهم من بينهم » الخ الخ

وكان التجانس مفقوداً بين اعضائها فلم تعش طويلاً

ولا ننسى في هذا المقام المؤتمر العربي العام الذي عُقد في باريس (١٩١٣) وضم وفوداً من اكثر الاقطار والمهاجر العربية . وكانت غايته مصارحة الدولة العثمانية بتطبيق نظام اللامركزية في بلاد العرب مع المحافظة على الرابطة العثمانية

***

فالجو العربي الادبي كان في ذلك العهد مشبعاً بالامالي والحركات القومية وملائماً كل الملائمة لانتشار الدعايات ضد حكومة الاستانة . وقد كانت تلك الدعايات تنبعث عن مصدرين مختلفي الغرض هما — (١) الجمعيات العربية (٢) الايادي الاستعمارية . فالاولى لم تكن غايتها سوى ما يستدل من نظمها . وتصريحات رجالها الا خدمة القضية العربية باعتبارها مسألة من مسائل السلطنة العثمانية الداخلية . وذلك ما يعنيه رشيد رضا بقوله عن النهضة العربية وتوجهها نحو الاصلاح الديني والاجتماعي والمدني [1] — « وهي جديرة بذلك بدليل اتفاقها في سورية والعراق والجزيرة على بناء هذا الاصلاح على اساس اللامركزية الادارية اذ بذلك تحفظ حقوق الدولة العثمانية ويتمكن الارتباط بها وبه يعطى كل قطر حقه بحسب استعداده ومذاهب اهله » بل ذلك ما كان يعنيه اولو الامر في كل جمعية سياسية

اما الثانية (الايادي الاستعمارية) فلها غرض آخر — كانت ترمي الى تفكيك عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطار العربية لاغراض استعمارية . ولا شك انها ساعدت في تنشيط الجمعيات وحمايتها اذ رأت فيها او في بعضها ما قد يوصلها الى هدفها المنشود

(١) المنار ١٦ ص ٧٢٠

ولا استطيع ان تثبت هنا المدى الذي بلغتهُ علاقات اوربا بالجمعيات العربية ، بل لا ندري هل حصل قبل الحرب الكبرى تفاهم بين الاستعمار ودعاة القومية . فان هؤلاء كانوا متمسكين بصلاتهم الثمانية يتجنبون الوقوع في أحابيل الاستعمار . على اننا ندري ان اوربا كانت تمدّ يداً حريرية الملمس الى طلاب الاصلاح ، وان النفسية العربية كانت في العهد الدستوري (ما بين ١٩٠٩ — ١٩١٤) ظاهرة الاضطراب بدليل ما نراه من نشأتها الشعرية المعبرة عن خوالجها والمعالنة بتحنيق أمانيها . ومن أمثلة ذلك قصيدة للشيخ سليمان التاجي الفاروقي (فلسطين) تزيد على السبعين بيتاً يخاطب فيها السلطان ويلتمس منهُ النظر في حقوق العرب . وهاك بعضاً منها — :

العُربُ لا شقيتْ في عهدك العرَبُ ... سيوف ملكك والاقلام والكتبُ
همُ الجيـــال فما حلّتهم حملوا ... لكن اذا سيمّهم ضيم النفوس أبوا

ومنها مشيراً الى خيبة آمال العرب

كنا نعلّل بالدستور أنفسنا ... بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقبُ
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ... ولا استجيب لنا في مطلبٍ طلبُ

وله قصيدة أخرى قيلت استفزازاً لنواب العرب . وقد نشرت في جريدة النفير « بلسان الامة العربية تخاطب أبناءها » وبتوقيع بدوي فلسطين . ومطلعها

بيُمن نواصيكم عقدتُ الاماني ... ورجّيت ان أعلو لكم من علا بانيا

ومنها : بني انهضوا واحيوا حياةً عزيزةً ... حياةً لمجد العُرب ثانيا

وبعد ان يحدّثنا عن أمجاد العرب يلتفت ثانيةً الى النواب فيقول : —

ألا نهضةً شرقيةً عربيةً ... تزلزل أقواماً وتوهي روابيا
وتقضي على كل امتيازٍ واثرةٍ ... ويصبح كل الناس فيها سواسيا
ألا رجلاً ذا همةٍ فيلمّكم ... ويرأب صدعاً فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتدّ او يبلغ المنى ... ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا

وللفاروقي كثير من مثل هذه التفثات القومية . على انها مبعثرة في الجرائد اليومية السورية والمصرية . ولم نقف لهُ على مجموعة خاصة (١)

***

وأشد من أقواله وأعنف نفثات عبد الحميد الرافعي (طرابلس) وقد كان قبل الدستور

(١) ما نشرناه للفاروقي أعلاه هو من بعض ما تكرم علينا به صديقنا الاستاذ ابراهيم طوقان الاديب الفلسطيني المعروف

من مريدي ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد . فلما حدث الانقلاب وحدثت على اثره تلك المشادة المصرية ثار ثائره على الاتحاديين ، فنظم عدة قصائد نارية مظهراً فيها فسادهم ومهيباً بالعرب الى النهوض والتقدم ومنها قصيدة مطلعها [1]

ما تصلح الدنيا ولا نأسها ما لم يقم الاقوامَ أجناسُها

ومنها داركَ امير العُرب جرثومةً للعرب قد ادركها ياسُها
تجاوز الترك على حقهـا والترك قوم ضاع إحساسُها

ومنها هبوا بني العُرب إلامَ الكرى وقد دها الاممَ دهّاسُها
طلائعُ لاصلاح من عصبةٍ تُوتَرُ بالإفساد اقواسُها
فكم تنيمون على ذلةٍ وروضة الصبر ذوى آسُها
ألستمُ سلَّ انقروم الأُلى تنتعل الهـامات اضراسُها
فجرّدوا العزم الذي طالما شقَّ صدوراً طال ومواسُها

ويجري في ذلك ثم يقول مشيراً الى الدولة العثمانية وعواطف المسلمين قبلاً نحوها :—

كنّا نرى طاعتها عصرَ ما تلي الاحكامَ اقداسُها

اما اليوم فقد تغيرت الحال عنده وها هي تقف من العرب موقف العداء ومن الدين ولغة القرآن موقف الرياء —

تحسب ان العرب اعداؤها وهم مدى الايام حرّاسُها
عونٌ على السلم وان حاربتْ فهم مواضيها وأتراسُها
تزعم حبَّ الدين لكنْ كما يروّج السلعة دلاسُها
لو تألف القرآن ما جزبت لسانه حتى التوى قاسُها

وهكذا ينحي باللائمة على اولي السلطة من الاتحاديين فيتهمهم بالكفر والتخلف والسفالة والتظلم ، ويطلب من العرب الاتحاد والتضامن دفعاً لعادية هؤلاء القوم المارقين الذين لشدة ظلمهم دفعوا البلاد الى هوة الخراب

من عظم ما جزبت بالحاثا تحمي على ... إفلاسها
ما همّها في دُور حكامها الاّ بأن تملأ اكياسها
فلتحمد الله على همـة تهتاج بالتوحيد اقباسها
وتمسح الاتعس من امة تلهبت بالذل أنفاسها

ونسج على هذه القصيدة كثيراً من اقرانه

(١) راجعها في ذكرى بويله ص ٨٨١

وقد أشرنا سابقاً الى ما أثار الحفائظ من اقوال جريدتي طنين واقدام وما حاوله بعض كتّاب الاتراك الاغرار من الوقيعة بالعرب والحط من لغتهم . وكيف حرّك ذلك الشعر العربي فزخرت لجيه وتلاطمت امواجه حتى كنت تراه في العراق كما تراه في سوريا والمهاجر ثائراً بالنخوة القومية مزبداً بالغيرة الجنسية . ومن هذا الشعر القومي الثائر قصيدة ليوسف حيدر الحلبي يذكر فيها أمجاد العرب ثم يقول مشيراً الى جريدة اقدام التركية (١)

فقل للجهول راح يثلم عرضهم ... ولم يدر ان الويل من جهلهم طرّا
خلافتكم كانت بقايا فخارهم ... وتلتم هدى الايمان من فضلهم طرّا
فلا حرب ذي تار صلتها سيوفكم ... ولا صمّ عن فارس عرضكم قهرا
فدع عنك يا هذا مباراة معشر ... اذا ذكروا فالكون يذكر بهم بشرا

ومن هنا يأخذ بوصف العرب وشرف نفوسهم ونخوتهم الجاهلية ويختم ذلك بقوله : —

مناقب في صدر التواريخ أثبتت ... متى نشرت فاحت بذكرهم نشرا
لقد أقسموا أن لا يشروا على أذى ... وقد خاب يوماً من على الذل قد قرّا

ويصل هذا الوصف بذكر الاتراك وسوء سياستهم فيقول : —

يريدون منا ان نموت نفوسنا ... ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا ان تطيش حلومنا ... وان تخلص الاصوات في مجلس الشورى

ثم يلتفت الى قومه مستفزّاً حماستهم : —

اليكم بني الاعراب أرفع قصتي ... لأبلغ فيها من لدن قومنا عذرا
لعلي أرى من عزمكم ما يسرني ... ومن جدكم ما تعظمون به قدرا
عليكم سلام الله ما دام عرضكم ... مصوناً لديكم لا يُباع ولا يشرى

***

ويجاريه في هذه العصبية والدفاع عن الامة العربية عبد الحميد الرافعي فيقول في قصيدة نظمت ردّاً على تنديد الاتحاديين باللغة العربية (٢) ومطلعها : —

شنّفْ بذكر مفاخر العربان ... سمعي وأنعش خاطري وجناني
فهي آباء التي يستشي بها ... عزماً لتنفخ الروح في الجثمان
ولربّ آثار لهم تذكارها ... يهب الضمائر قوة الايمان
تتفاخر الاجيال في اخبارهم ... والشمس لا تحتاج للبرهان
أهل الشجاعة والبراعة والنهى ... والصدق والايثار والاحسان
جعلوا الممالك تحت ظلّ سيوفهم ... متظللين ذوائب المرّان

(١) راجع القصيدة في النفحة العربية للاعظمي ١٠٥-١٠٦ (٢) ذكرى يوبيل الرافعي ص ١٨٠

وعلى هذا النمط يستمرّ في مدح العرب وذكر مفاخرهم ، ثم يتناول انتهم ويبيّن فضلهم وريع شأنها كقوله : —

لغة بفضل جمالها وجلالها شهدت شواهدُ محكمِ الفرقانِ
لغة اذا أدركت سحر بيانها أدركت معنى السحر في الاجفانِ

وبعد ان يصفها في عدة أبيات يلتفت الى مناوئيها فيقول : —

قل للألى جهلوا مكانتها وقد كادوا لها في السرّ والإعلانِ
عاديتمو ما تجهلون ولم يَعب قدر الورود كراهة الجمانِ
والله يأبى ان تهان فبشروا من رام ذلّتها بكل هوانِ

اما بناؤها الذين انصرفوا عنها الى اللغات الاجنبية فيهتف بهم بقوله : —

كل اللغات لديك بالغة الهدى خدّامٌ وأنت مليكة الايوانِ
ظلموك أهلُك بالجفاء فأصبحوا والكلُّ يمشي مشية السرطانِ
لم يحفظوا لك ذمّة وتعلّقوا بهوى السّوى ورموك بالهجرانِ
لكنهم غُرّوا بغيرك حقبةً من دهرهم والدهر ذو ألوانِ
حتى اذا انكشف الغطاء وأيقظت مُقلَ الرجال حوادثُ الازمانِ
نهضوا وكلٌّ يستعيذ بربّه مما انتشى وبسحرُه بنت الحانِ

ومثل ما تقدّم قصيدة لامين ناصر الدين (لبنان) نظمها سنة ١٩٢٠ وفيها يقول[1] : —

أسيتِ قدر العرب يا إقدامُ وطم على هام النجوم مقامُ
أجهلتِ ما نالوه من شرف به يسمو الزمان وتفخر الايامُ
لولاهمُ لم تجرِ فوق مهارقٍ يوماً بذكر مفاخرٍ أقلامُ

وبعد ان يعدّد مناقبهم ومفاخرهم التاريخية يقول : —

ان أسرف الحسّاد تنديداً بنا فلطالما ذمّ الكرامَ لئامُ
نحن الألى بمنبر النبوّة بيننا ذاك البناء فأزهر الاسلامُ
نحن الألى بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الالهامُ

ثم يلتفت الى الجريدة التركية مؤنباً ومعاتباً : —

أرسلتِ يا إقدام سهم وقيعةٍ لكن أعيدَ اليك وهو سهامُ
أكذا يقوم بخدمة الاوطان ذو قلمٍ ويطلبُ الرقيَّ همامُ

(١) ديوان صدى الخاطر ١٩١٣) ٩٣

أيظنّ أنّا نرتقي الاّ إذا ضمّ العناصر ألفةٌ ووئامُ

***

ويظهر هذا التفاخر الجنسي في قصيدة « ألواح الحقائق » لمحمد حبيب العبيدي الموصلي سنة ١٩١٣ رقيها يقول :[1]

يا بني الضاد إن للضاد حقًّا ناطحت دونه حقه الآباء
ان رضينا غير الكرامة وردًا غصّ منّا بشاريه الماء
ليت شعري ما يفهم القوم منّا أم على أبصارهم غشاء
يشهد الله انّ أول بيتٍ للعلى فينا شاده البنّاء
خيرة الله نحن في الخلق طرًّا ولدت من أناملها حوّاء
نحن شيء وغيرنا بعض شيء نحن نورٌ وغيرنا الظلماء
انما ينكر الحقيقة غرٌّ أو لئيمٌ او حاسدٌ ستاء
نحن في الحي مهبط الوحي قدمًا والينا المصير والانتهاء

ولو أردنا ان نذكر كل ما قيل في هذا الباب لضاقت به الصفحات الكثيرة . فقد كانت الاقطار العربية جميعاً تلوح به ، بل قد ردّد صداه الناطقون بالضاد في كل صقع من اصقاع المعمور . فمن الهند يبعث عبد الحق الاعظمي البغدادي سنة ١٩١٣ رسالة الى المنار يقول فيها[2] « أن لديه علاجاً لاصلاح حال المسلمين واصلاح البشر اجمعين . وهو وصفة مؤلفة من جزئين اوّلها تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل دون سواها ». واما الجزء الثاني فهو تعزيز العنصر العربي « الذي اعزّ الله به الاسلام ورفع مقامه فوق كل مقام » . . قال — « فاذا غلب الاجانب العرب على امرهم وانتزعوا زمامهم في احشاء بلادهم فلا عاصم للامة بعد ذلك من امر الله ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله » . الى ان يقول . . « ثم ان العنصر العربي جار عليه الظالمون ونهك قواه الحادون ومزّق وحدته المارقون . لكنه مع كل ذلك لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بأس الاسلام واعادة مجد الانام »

وهو يدعو المسلمين الى تهيئة اسباب الوثوب للعرب ليهضوا ويتحدوا ويقودوا المسلمين اجمعين كما قادهم أسلافهم الاولون . « فان البذل لمساعدة العرب على احياء مجدهم هو عين البذل لاعادة مجد الاسلام الذي ما تأسس بناؤه من قبل الاّ بايدي العرب ونفوس العرب وأرواح العرب وقلوب العرب »

(١) راجعها في الادب العربي في العراق (لبطي) ١ — ١٥٢ وقد سبق ذكرها في فصل سابق
(٢) المنار ١٦ ص ٧٥٣

ومن المهاجر الاميركية المسيحية تسمع ما لا يقلّ عن ذلك حماسة في الدفاع عن العرب وأمجادهم. يقول رشيد أيوب (الولايات المتحدة) من قصيدة يعرض فيها القصيدة النامقية التركية[1]

نحن بنو الاعراب كنا وما زلنا ... بما خصّنا المولى نفوق الاجانبا

وبعد ان يذكر فضل النبي والصحابة وفتوح الاولى يقول مفاخراً

ألسنا الألى سادوا بلاد ودوّخوا ... البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا

وقصر عن ادراكهم كلّ لاحق ... غداة امتطوا ظهر الفلى والمناكبا

فكم دولة سدنا وشدنا بهمّة ... أحدّ من البيض الرقاق مضاربه

وتتعاظم حميته القومية حتى تبلغ به الى قوله —

كذاك بنينا للعلوم معاهداً ... وشدنا لاهل الارض فيها مكاتبا

فما روت الايام من عهد آدم ... الى اليوم عن شعب يفوق الاعاربا

فيا وطني لا زلت اول بقعة ... من الارض أبدت للبرايا عجائبا

طويت من الآثار ما لو نشرته ... لضاقت به الدنيا حجىً ورواحبا

واذ انتقلنا الى أميركا الجنوبية نرى النخوة العصبية في مهاجرها أبرز وأشد اتقاداً. ولا نبعد عن الحقيقة ان التحمس الجنسي هو صدفة أكثر أدبائها. ولولا ضيق المقام لأثبتنا أمثلة عديدة من نظمهم، على أننا نجتزىء بنماذج لبعضهم — فمن ذلك قول «أبي الفضل الوليد»[2]

ولما رأيت الناس يبنون مجدهم ... بكيت على آثارنا العربية

عما زهرهم في روضهم متجدّداً ... وقد يبست أزهارنا بعد اخضرار

لئن كان في الحرية الحلوة الردى ... فياحبذا موتي لتحيا أُمتي

بني أمّ هل من نهضة عربية ... لصيحاتها يهتز ركن العربة

وقوله من قصيدة مذكّراً العرب بماضي أمجادهم[3]

سلامٌ على العرب الخالدين ... سلام العلى وسلام الكرمْ

واني لأقرأ تاريخهم ... وقد كتبوه بحبر ودمْ

فبين السطور ضياء الهدى ... وبين الحنين دموع الندمْ

بني أمّ هل من نهوض لنا ... وهل من هيام بتلك الشيمْ

وهل من رجوع الى عزنا ... فبين عظام النظام عظمْ

لقد فقد العرب أخلاقهم ... فسادت زمانا جموع العجمْ

---

(١) ديوانه الاجريبات (٦ و ١٩ و ٣٧ و ٤١). (٢) ديوانه الفريد في موصفه (الطبعة الرابعة) ١٥٤

(٣) ديوانه الالتماس (الطبعة الثانية) ١٠٢. وهذا الشاعر دواوين أخرى وكلها تشهد بالغيرة والعصبية

قفل يا أخي العربيُّ اذا مشيتَ مني قدماً لقدمْ
أحب بلادي واصبو الى رمال القفار وثلج الفممْ

وللشاعر القروي قصائد رائعة في هذا الباب ولا سيما في « أعاصيره » وسنعود اليها بعد . وكذلك سنذكر من آثار زملائه الجنوبيين ما يرسم لنا رسماً جلياً روح الأدب القومي في تلك الاصقاع

***

ومن الانصاف ان نقول ان الشعر العربي القومي لم يكن كلهُ في ذلك العهد دفاعاً عن مغارم العرب وردًّا لسهام أعدائهم في الدولة . بل منهُ ما نشأ عن طبيعة الحال فكانت غايتهُ اصلاحية لا سياسية — الاعتبار بالماضي والحاضر ، وتوجيه النظر الى أسباب الرقيِّ الصحيح كقصيدة ألقيت سنة ١٩٠٩ في احدى حفلات بيروت ومطلعها [1] —

كفوا البكاء على الطلول الهمد ليس القضاء على البلاد بمعتدي

وهي ترمي الى إيقاظ العرب للجري في سبيل التقدم الاجتماعي والقومي فتحضهم أولاً على توحيد الكلمة تحت راية اللغة : —

أبني العراق ، مصر إنَّا امةٌ قعدت بها الايام أمساً بقعدِ
إن فرَّق الاديان بين جموعنا فلساننا العربيُّ خير موحدِ
قربتْ يد الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فتٍّ في اليدِ

ومن هنا تجري القصيدة في وصف هذا التقارب الادبي ثم تتطرق الى النظر في الدين وانهُ اختيار شخصي لا علاقة له بالجامعة القومية المنشودة

دعني وشأني والذي انا عابد وكما يشا ايمان تلبك فاعبدِ
إني أخوك وان يكن ايماننا في البعد ما بين الثرى والفرقد

وهما في خطاب الطائفة الكبرى في البلاد

قد كنتم اهل البلاد وانما كنا كذلك في الزمان الأبعد
كنتم وكنا والبلاد بلادكم وبلادنا فعلام لم تتوحَّد
وإلامَ يقتلنا التعصب عن عمىً ويقيه فينا الجهل نيه السيد

(١) راجعها في مجلة الكلية (بيروت) مج ١ ص ١٥٩

واذا كان لا بدَّ لرقي الشرق العربي من اتحاد لغوي لا ديني فإنما يتوصل الى ذلك بترقية الشعور القومي وتربية النشء على محبة بلادهم وتكريم رابطتهم الوطنية

ربّوا البنين على احترام بلادهم فهم المرجّى لحوادث الدهر
قولوا لهم إنّ البلاد جديرة شهدتْ لها الاعداء أم لم تشهد
حتامَ نصغر في عيون نفوسنا والامَ نسعى كالسوائم للشرّد
ونحقّر الشرق العزيز لانهُ شرق و . . . . . .

اذا فعلنا فيه والاَّ فاطل دستورنا وبطلة مساعينا نحو العلى

ان تفعلوا فلقد تم صلاحنا أو لا فما دستورنا بالمسعد
المجد للعمّال في هذا الورى والارض ملك القارس المستأسد

وشاهد قصيدة الرصافي نظمها في الاستانة سنة ١٩١٠ وموضوعها « الى الامة العربية » سداها ولحمتها اسف على مجد العرب الغابر وحض لهم على نفض الخمول والجري في ميدان الحضارة والتقدم . والشاعر فيها وان يكن كما قال « الى اليأس احياناً أكاد أميل » ، لا يمالك ان يختمها متحمساً[1] : —

ألستم من القوم الالى كان خطبهم له كلُّ جهلٍ في الانام قتيل
له همة ليس الظباة نعلها وان كان منها في الظباة فلول
ألا نهضة عليا عربية فتنعش ارواح لنا وعقول
ويسجع رعديد ويعتز صاغر ويغبط للعمي الحثيث كسول

***

ولو دققنا النظر في روح الشعر العربي في العهد الدستوري لوجدنا انه مع شدة تحمسه للعصبية العربية ، ومفاخرته بأمجاد العرب الاقدمين كان لا يزال عطوفاً على الجامعة العثمانية ، نفوراً من حلف المستعمرين الاوربيين واطماعهم . يدلك على ذلك انه كان في اول الامر يعتبر الجامعة الاسلامية التي كان ينشدها الاصلاحيون اعتقاداً منهم انها ترمي الى تعزيز العرب ضمن السلطنة العثمانية . فلما اشيع بواسطة الدعايات التركية ان الحركة الاصلاحية ولا سيما المؤتمر العربي في باريس علاقة بالاستعمار ، وانها لذلك صدع للجامعة العثمانية[2] ، رأينا الشعر يقف موقف الارتياب . بل رأينا بعض المتحمسين يتراجعون على الاعقاب — كمعروف الرصافي فانه

(١) ديوانه (١٩٣١) ٢/١٣٠ (٢) ارجع وصف هذه الدعايات في المنار ١٦ ص ٦٣٤ ؛ ٦٣٥

نظم بضع قصائد في ذلك . ومنها قصيدة موضوعها « ما هكذا » يحمل فيها على الاصلاحيين فيقول : —(١)

أصبحت أوسعهم نوماً وتثريباً لما استفوا غارب الافراط مركوبا
راموا الصلاح وقد جاءوا بلاشعة خرقاء تثكل ثكل الشعب مشعوبا
لو كان في غير باريز تأبلهم ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا

فاجتماعهم في باريس كان عنده مدعاة الى الاستهزاء او توطئة له . وهو لذلك يتطير منهُ فيقول : —

هل يأمن القوم ان يحتلَّ ساحتهم جيشٌ يدك من الشآم الاهاضيبا
يا أيها القوم لا يغرركم نفر ضجوا بباريز افساداً وتشغيبا
فسوف يقرع كلٌّ منه نادماً ويسبل الدمع في الخدين مسكوبا

ولم يسكت الاصلاحيون عن حملات الرصافي فردوا عليه ردًّا عنيفاً وأجابهم بالمثل . بل بلغ به الحال ان نظم فيهم قصيدته « ليلة نابلسية » فملأها بما يجب ان ينزه الشعر عنه من هجو وتشنيع(٢)

***

وقد اتهم الرصافي يومئذ بمشايعة الاتراك تزلفاً . او انه اخذ بالدعايات التركية فكان في حكمه متسرعاً . والذي يلوح لنا ان هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في حذره من الحركة الاصلاحية وغيرته على الجامعة العثمانية . فقد ظهر في انحاء مختلفة من البلاد العربية ما يشير الى حذر المخلصين وخشيتهم من امتداد ايدي الاستعمار وتصديع جامعة الوطنية العثمانية

ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشدت في بيروت ١٩١٣ وموضوعها « حديث خطير » وهاك بعض ابياتها(٣)

حلك السياسة حولنا متكاثف تقذى العيون به فليس يبصر
في المشرق الادنى لظى متطايرٌ وسعير نار بالنوى تتسعر
علقت بأطراف الشآم شرارة منه فجاشت أنفس وصدور

وبعد وصف الحالة السياسية عموماً وحال البلاد السورية خصوصاً يقول الشاعر للاصلاحيين

أحسبتم الاصلاح أمراً هيِّناً يكفيكم منهُ لحاً وقشور

(١) ديوانه ٣٨١ (٢) ديوانه ٣٨٥ (٣) المورد الصافي مج ٤ ص ٣١٦

فصراخكم عبثٌ اذن وضجيجكم ووعود اوربا لكم تغرير
ما مثل عاصمة الخلافة ملجأ كلاّ وخير الابحر البوسفور

وكأنهُ يعتذر عن هذه الحركة ويحاول تفسير أسبابها فيقول —

عرش الخلافة ما البلاد بثورة منها علا فوق الطروس صرير
ما زال يجمع اهلها تحت الهلال بظلّك التوحيدُ والتكبيرُ

وانما السبب الحقيقي في طلب الاصلاح ان الدستور لم يطبّق كما يجب وان الحكام لا يحكمون طبقاً للارادة السنية. فكانت النتيجة تشويش الاحكام وفقد الامن واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية: —

إن يشتكوا ألماً فليس لتقمةٍ في النفس حرّ كها هوىً وغرورُ
او يرفعوا صوتاً فسلْ حكامهم هل يحكمون كما تقضي الدستورُ

***

ومثل ذلك قصيدة لشبلي الملاّط انشدها سنة ١٩١٣ بمصر في حفلة تكريم خليل مطران. وفيها يذكر حرب البلقان وما طرأ على الدولة العثمانية من طوارئ. ثم يشير الى ما كان قد أشيع عن شماتة بعض العناصر العثمانية باضطراب الدولة وضعفها فيقول دفعاً لتلك الشوائع وتبياناً لموقفهم من العرش العثماني: —

أخطا الاولى نسبوا لبعض عناصرٍ منها شعور شماتةٍ وتحامي
فلنحن نعلم ان عرش محمدٍ خير لنا من سائر الحكام
بل نحن نفهم انهُ عزٌّ لنا من كل محتكم من الاقوام

والشاهد في هذه الابيات وما تقدمها ان الشعر كان لا يزال يرى في العرش العثماني موئلاً للشرقيين وان الاصلاح لا يعني الانفصال عنهُ والالتجاء الى أمم الغرب. على ان ذلك لم يقف دون انتشار الدعوة القومية العربية والمطالبة بحقوقها في السلطة. وقد أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وتلك هي العواطف السائدة في البلدان العربية. وقد علمنا في فصل سابق كيف زُجّت تركيا في أوارها وكيف عم الاقطار السورية والعراقية الارهاب العسكري فصمت فيها كل لسان حر وخبتت كل نزعة قومية

وفد من المؤتمر الطبي المصري الملتئم في بيروت يزور المصح

مصح ضهر الباشق

عمل انساني وقومي جليل

[تتبع لرئيس تحرير هذه المجلة ان يزور مصح ضهر الباشق في لبنان خلال الصيف الماضي فأعجب بالعمل من حيث هو منشأة صحية من الطراز الاول ومن حيث هو ملجأ للقضاء القومي في سبيل الاتربة فطلب الى المشرفين عليه ان يتحفوا المقتطف بوصف نشأته وتقدمه وطرق المعالجة فيه]

نبتت فكرة مصح ضهر الباشق في السنوات الاخيرة قبل الحرب العالمية وظهرت الى حيز الوجود بان أوقف المرحوم الدكتور بشاره نسلي قطعة ارض من املاكه الخاصة في ضهر الباشق وبنى عليها بعض الحسنين غرفاً ولكن قبل ان يتم البناء ويغدو معدًّا لقبول المرضى نشبت الحرب العالمية فوقف العمل شأنها في كثير من هذا النوع من الاعمال

وبعد الحرب العالمية تألفت في بيروت جمعية مقاومة السل وكانت في اول امرها مستقلة عن لجنة مصح ضهر الباشق كل الاستقلال الى ان كانت سنة ١٩٢٣ فاتفق الفريقان واتحدا نيةً وعملاً وتألفت جمعية جديدة تحت اسم جمعية الملجأ الصحي التدرني ومقاومة السل في سوريا ولبنان . والقصد ادارة مصح ضهر الباشق والسعي الى توسيع نطاقه لتعظم الخدمة التي يسديها الى الانسانية

والجمعية هذه وطنية ظاهراً وباطناً تعمل بثقة سلمة النواحي ثقة الجمعية بصحة المشروع وفائدته وتائجه الحسنة ، وثقتها بغيرة ابناء البلاد واندفاعهم لمساعدتها ، وفي الاخير ثقة ابناء البلاد بالقائمين بالعمل والمشرفين على ادارته

﴿ موقع المصح ﴾ ضهر الباشق رابية من روابي جبل لبنان تطل عن سطح البحر مزيد عن ستمائة متر تقرب من بلدة برمانا وتطل على منظر خلاب تتفاوت فيه المهجات الخاتة بين بحر الروم الواسع الارجاء وما يظهر من اقسام لبنان من آكام رماحية اللون وغيرها مكسوة بالاخضر الدائم وغيرها متشحة بالالوان المتعددة وكل منها بلون خاص بها تبدو لمن في المصح جذابة خلابة عند غروب الشمس . وبالاجمال انها مناظر فاتنة تختلف باختلاف الفصول والايام ولكنها

في كل حال تبعث في النفس بهجة وأملاً وتنثر على العقل أزهار الصور والخيال فيتسى ما كان هذه البقعة ما هو فيه ويطلق العنان للتأمل في جمال الطبيعة وقدرة الله فيها . وموقع المصح من جهة الهواء غاية في الملاءمة فلا هو بارد قارص في الشتاء ولا هو حارٌّ مرهقٌ في الصيف . بل الاعتدال فيه على أتمه في الفصلين . والمصح قرية صغيرة قائمة بذاتها أبنيتها تزيد على العشرة في كل منها جميع أسباب الراحة وهي مختلفة الهندسة والحجم ولكنها كلها موقَّمة بحيث تصل أشعة الشمس الى كل ناحية من نواحيها والى كل زاوية في غرفها . وعين الشمس قد لا تغمض عن واحدة منها كل النهار

ومن ينظر الى المصح يخاله لاول وهلة قرية من قرى الاصطياف الحديثة الجميلة

ويحيط بالمصح حراج من الاشجار الكثائفة في آكام لبنان وهي تزيد الموقع جمالاً . لا تمنع أشعة الشمس عن الغرف

﴿ ادارة المصح ﴾ يقوم بادارة المصح لجنة من سيدات بيروت ورجالها يمثلون الطوائف المتعددة في البلاد وطبقات خاصة من عائلات بيروت العلمية والادبية والتجارية على رأسها السري حبيب بك طراد ويغوب عنهُ الوجيه عبد الله بك بيهم فهذا التشكيل في الادارة حبّب العمل الى أهل البلاد وضمن للمصح عطف طبقات البلاد بأجمعها وجعل لكل منها حصة فيه

﴿ مال المصح ﴾ لكل نوع من النفقة مورد خاص من المال فالقسم الكبير من الاعانة للشيء بوقف خاص من المحسنين يجد الزائر على عتبة كل بناء منها اسم من أنفق على تشييده

أما نفقة التطبيب ومعالجة المرضى وما يقتضيه الامر من إعاشة وتمريض وادارة وخدمة فتقوم به الجمعية مما تمنحهُ من أموال المحسنين واشتراكات الاعضاء ورسوم المرضى

وقد خصصت جمعية اغاثة سوريا في بوسطن من أعمال الولايات المتحدة القسم الوافر من جهودها اذا كنا لا نقول كلهُ لمساعدة هذا العمل

وقام منذ مدةٍ بعض اخواننا المهاجرين في أميركا الجنوبية ونظموا جمعية تعمل كجمعية اغاثة سوريا في بوسطن والجمعية هذه توقفت عن العمل من عهد قريب بعد أن جاهدت سنوات عديدة

﴿ مرضى المصح ﴾ يأتون من بلدان الشرق الأدنى جميعها وهم من طوائف عديدة وبدرجات اقتصادية مختلفة فمنهم من يدفع الرسم الكامل للدرجة الاولى ومنهم من يحل ضيفاً على المصح وبين الدرجتين سلسلة من الدرجات المعروفة في جميع المستشفيات . وقد خصصت الحكومة اللبنانية باباً في ميزانيتها لتطبيب خمسة عشر مريضاً في المصح

﴿ التطبيب والتمريض في المصح ﴾ والامران يتمان على أحدث الطرق وأشدّها اتقاناً . يتولى أمر الطبابة لجنة من الاطباء على رأسها الدكتور اسعد نحو الاختصاصي المعروف . وفي المصح طبيب

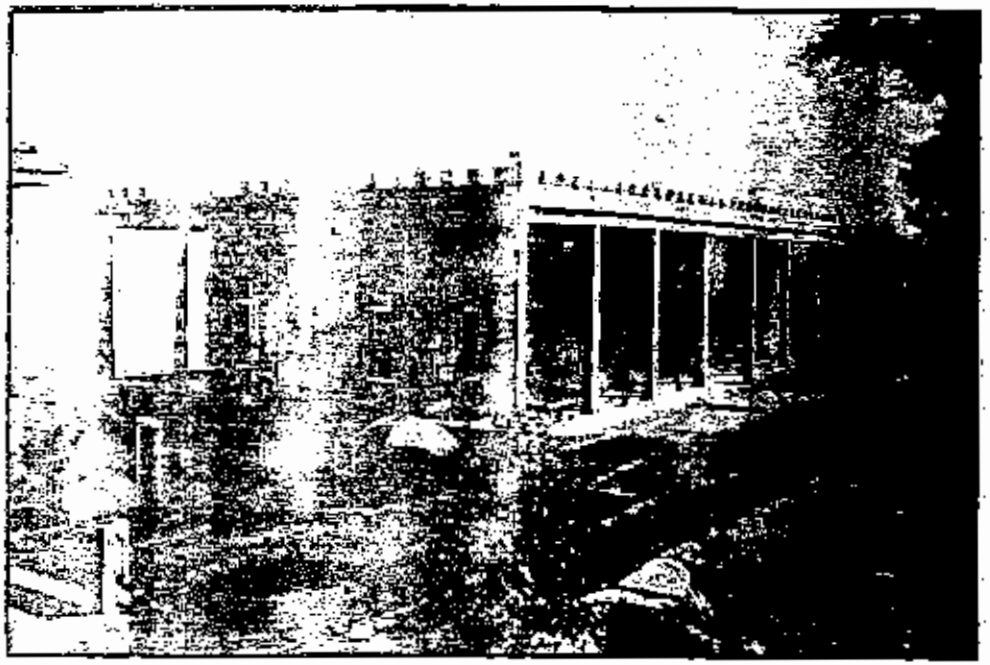

بناية وقف السيدة ازاميل بشرى في مسح صهر اباشق

أحدى غرف المسح

مقيم هو الدكتور احمد سلامة . ثم في المصح عيادة خاصة لطب الاسنان يتولاها احد أطباء بيروت المشهورين

وقد اعترفت الجامعة الاميركية بمقام المصح العلمي ولذلك جعلتهُ من عداد المستشفيات التي تفرض على طلبتها التمرن فيها قبل نيلهم الشهادة الرسمية . ويتولى التمريض ممرضتان قانونيتان يعاونهما عدد من الممرضات اللواتي كسبن الخبرة والمرانة مقدرة في العمل كافية لمزاولته واتقانه

(مكتبة المصح) وفي المصح مكتبة جمعت كتبها من رجال الادب المحسنين وهي موضوع تسلية المرضى وقد نظم المرضى أمرها بحيث يتسنى لكل مريض الانتفاع بها وفي الوقت نفسه المحافظة على الكتب . غير ان المكتبة صغيرة بعدد كتبها فالمجال واسع لارباب الادب الذين يشعرون بالمسؤولية نحو اخوانهم في البشرية لاهداء مؤلفاتهم اليها . والكتب العربية أكثر الكتب طلباً وشيوعاً في المصح ولا سيما ما كان منها يبحث في تاريخ بلدان الشرق الادنى . وعدد كبير من المرضى على درجة كافية من العلم فيلذ لهم مطالعة الكتب الاجتماعية والجرائد السياسية الى ما هنالك من نتائج الحركة الادبية في البلدان العربية

كان معدّل عدد المرضى في سنة ١٩٢٤ ما يقارب العشرات الثلاث الاولى أما اليوم فيزيد عددهم عن العشرات الثلاث الاولى بعد المائة ومعدّل الشفاء يقرب من العشرين في المائة والتحسن الاجمالي ما يعادل ٥٣ في المائة والوفيات لا تزيد عن ١٠ في المائة وهذا بحسب احصاء يتناول الاربع عشرة سنة الاخيرة

وقد دخل المصح هذه السنة ولد في الخمس الاولى من حياته مقوس الظهر معوج الفخذين لسلٍ قوي في عظامه فاستعان الطبيب بالمعالجة المصحية وبأشعة الشمس وها هو ذا اليوم وقد استقام ظهره وكادت تخذاهُ ان تستقيما

طريقة المعالجة [1]

يسهل جدًّا شفاء حوادث التدرن الرئوي اذا اتبع المريض الامور البسيطة الآتية :— ففي الدرجة الاولى على المريض ألاَّ يتعب رئتيه بامتناعه عن الكلام بصوت عالٍ والضحك والمشي بسرعة وتسلق الجبال وصعود السلالم وكل ما من شأنه ان يزيد عمل الرئتين . والاكثار من الطعام لا يقل عن هذه ضرراً وغير كان الاعتقاد السائد عكس ما ذكرناه اعلاه . والحاجة الى استعمال الادوية واستخدام العقاقير قليلة جدًّا ولا يلجأ اليها الاَّ في حالات خاصة

اما الطرق المتبعة في المصحات ومنها مصح ضهر الباشق فهي المعروفة بالمعالجة المصحية

(١) كلمة موجزة بقلم طبيب المصح الدكتور نخو

Sanatorial Treatment وهي مبنية على ما جاء اعلاه من الوسائط المتبعة لاراحة المريض راحة تامة وما أبسط هذه المعالجة وأسهلها

ولتكون هذه المعالجة فعالة يشترط بأن تكون حالة المريض في بدء المرض بحيث يكون انتشار الكهوف والتجاويف في الرئة الواحدة أو الرئتين قليلاً ولكن من الامور المقررة ان المرضى لا يلجأون الى المصحات الاّ بعد ان يتجاوز المرض الدرجة الاولى حيث المعالجة الصحية المار ذكرها لا تكفي لشفاء العليل ويجب ان يضاف اليها بعض المعالجات الجراحية وهي المعروفة عند الاخصائيين في العالم أجمع . أما الالتجاء الى الجراحة فلا يمكن التوسل به الاّ بعد مراقبة المريض ومتابعة سير المرض شهراً او أقل وهذا للحكم في هل تمكن اراحة الرئة بالجراحة راحة تامة . والأمر الاول الذي يجريه هو المعروف بالابرة الهوائية Artificial Pneumotorax والعملية هذه كناية عن ادخال مقادير معينة من الهواء الى التجويف البلوري في أوقات معينة بقصد التخفيف على الرئة في عملها او توقيفه مؤقتاً . وهذه الطريقة متبعة في جميع المصحات وفي أحيان كثيرة يجري العملية على الرئتين لاراحتهما انما في وقت واحد واما لاراحة كلٍّ منهما في وقت غير وقت راحة الاخرى . وكثيراً ما تساعد هذه الطريقة على شفاء المريض وقد صارت من العمليات السهلة البسيطة بفضل تقدم الفن في اجراء العملية وفي صنع الآلات المختصة بها

وقد يحول دون اتمام هذه العملية عوائق أهمها التصاقات بلورية تمنع ادخال الهواء ودخوله ولهذا يضطر الطبيب الى الاعتماد على وسائط اخرى خارجية كوضع اكياس رمل على صدر العليل لتضغط هذه على اضلاعه فيصغر حجم الصدر وتقلل حركة الرئة

وهنالك وسائط جراحية كاستئصال عصب الحجاب الحاجز أو قطعه فقط او توقيفه مؤقتاً عن العمل بحقنه بالكحول . وقد يضطر الطبيب الى استئصال عصب الحجاب الحاجز في الرئتين معاً وهذا الامر قليل الانتشار ولا يلجأ اليه الاّ عند فقاد الحيل جميعها واخفاقها

***

أما في الحالات التي يكون فيها المرض قد تقدم في درجته وتكون الكهوف والتجاويف قد صارت كبيرة جداً لا تكفي معها الوسائط التي تقدم ذكرها فتلجأ الى عمليات اكبر واكثر خطراً وهي قطع الاضلاع . وقد مهر الاخصائيون بهذه العمليات فصاروا يجرونها بلباقة ورشاقة على المريض بحسب حاجته . وهذه العملية الآن منتشرة في عالم المصحات وهي معروفة عندنا وقد أجريناها في حالات صعبة وكانت نتائجها حسنة جداً . وكثيراً ما تساعد هذه العملية على شفاء المريض الامر الذي قد يكون مستحيلاً بدونها

الامام المهدي الدكتور السر شاه محمد سليمان

متحدي أينشتين

في الهند

الدكتور السر شاه محمد سليمان

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ١ —

ليس اهل الشرق ممن لم يفض عليهم القدر سجال عرفه من عبقرية وذكاء وحصافة وبصيرة كما أفاض على الغرب ، بل نجد كثيرين منهم أوفر حظاً وأعلى مكانة فيها من امثالهم في الغرب. غير انهُ ينقصهم التربية الصالحة والظروف الموفقة . فكم عبقري فيهم سلكت عليه التربية الغير الصالحة مذاهبها، وكم نابغة صالحة من الذكاء المتوقد يئدهم قتلها الظروف قبل ان تنضر وتثمر وكم يرعوم وضيء من الجذق الحاد أذبلتهُ عواصف الحال قبل ان يتفتح ويفوح

على أن الشرق مع ذهاب التربية الصالحة وفقدان الظروف الموفقة ، ومع ما جلَّ ساحته من مكروه الرق ، وتكاثف لديه من مضض العبودية ، فاصطلحت عليه أعاصير الحياة ونزلت به آلام البؤس ، فأضحت القوى الفكرية والاقتصادية فيه ضاربة الاطناب محتلة الجوانب ، مع كل هذه العوائق الصارفة والعراقيل الرادعة استطاع ان ينجب غير واحد من العبقري والذكي والحصيف والبصير ، سبَّاقي الغايات مدركي النهايات ، حازوا شأو السبق في حلبات العلم والادب ، وأحرزوا فوز القضان في شؤون الاجتماع والسياسة ، فبلغوا في قلوب الشعوب بهِ مكانة لا يستباح ذمارها ، ونالوا في محافل العلم عزة لا يهضم جانبها

لسنا بصدد ان نستقصي لك مناقب هؤلاء فخر الشرق وذخره جميعاً . ولا ان ندلك على مواضعهم من حدة الذكاء واحداً واحداً ، ولا ان ننبهك على موقعهم من سمة العلم فرداً فرداً ، ولا ان نُعلمك عشيرهم من قوة البصيرة أُحاد أُحاد . فانهُ امر بعيد المتناول منيع المطلب بموزه المجلدات الضخمة ، فكل جزء من الشرق قد أنجب غير واحد من هؤلاء الرجال العظام ، والشرق واسع الارجاء ، مترامي الاطراف أتى بالنعم والرمم منهم من الزمن الغابر الى العصر الحاضر

غير اننا سنتحدث اليك اليوم عن عبقرية برزت اخيراً في احد اجزاء الشرق وأبأسها الذي رماه

الزمان بسهامه وصدمه بكلكله، فابتهُ خطوب السودية ونخرمتهُ بوائق الرق ،فشيبُ غنم المستبد واخفاء حيف المستعمر، فدس على ابنائه عقاربه ، وأرسل بينهم نيازبه ، فأفسد ذات بينهم وزرع البؤس فيهم فزادت احزانه ، وكثرت اشجانه ، وتتابعت همومه وتراكمت غمومه ، ألا وهو الهند

لقد استطاعت الهند ، بصرف النظر عن ماضيها الزاهر ، ان تنجب في العصر الحاضر وفي مثل تلك الاحوال السيئة شخصيات بارزة عديدة في ميدان الاجتماع والسياسة ، وفي حلبة العلم والادب . فلا تحسبك تحتاج الى ان نحادثك عن غاندي ، وطاغور ، واقبال ، وبوز ، ورامان ، وتهور ،ومحمد علي ، واجمل خان، والانصاري، وشبلي ، وراي، وسروجيني نائيدو وبيكشاه نواز اذا كنت من متتبعي الحركات العلمية والادبية والاجتماعية والسياسية في الشرق، وممن ينشون أندية العلم والادب ، ومحافل الاجتماع والسياسة فيه ويلفون سمعهم وعمشهداء الى ما يطاب فيها نشره ويجمل ذكره. وعليه فقد تكون بلغت تلك الاسماء مسامعك غير مرة لانها مفخرة الهند وعجوم لامعة في سماء الشرق ولكننا نظن ان ليس ابو الكلام احمد ، وشاه محمد سليمان الى الآن سمع أذنيك

اما الاول فهو من كبار حملة العلم وأهم دعائم الوطنية في الهند وأرسخهم في العلوم القديمة الاسلامية والحديثة الاجتماعية وأرجحهم سداداً وأفضلهم ذكاء ، وأبرعهم كتابةً وأصقعهم خطابةً باللغة الاردية . لسانه أرق من ورقة وألين من سرقة [1] . اذا كتب وضع الماء مواضعَ السكب ، واذا خطب فلّ الحزّ وأصاب المفصل . ونحن سنحبر عن مآثره في العلم والادب ومعالمه في السعي لتحرير الوطن في فرصة أخرى اذا وفقنا الله تعالى لذلك

أما الثاني وهو الذي نحن بصدده فهو امام في علوم الفوانين لا يدرك شأوه وحجة في علوم الرياضة لا يشق غباره . وما يهجم من مظاهر عبقريته دفعة ، ويأتي من نشاطه ما يملأ العين غرابة هو انهُ مع كثرة واجباته ووفرة اشغاله ، إذ يتقلد مناصب حكومية واجتماعية وعلمية عديدة كما ستعلم فيما بعد ، استطاع ان يشتغل بأهم العلوم دقةً وأكثرها صعوبةً اشتغالاً علميًّا حقيقيًّا لا يقدح فيه اخلاصه ولا يطعن عليه صدقه . فأنتج به انتاجاً وأبدع فيه ابداعاً حيث أتى في عالم العلم بنظرية شهدت لهُ بالذهن المتوقد والبصيرة النافذة ، ودلت على منزلته من سعة الشرح وقوة الحجى ، إذ أخذت نظرية العلامة اينشتين في النسبة ونقضتها فاستوقفت انظار كبار العلماء الرياضيين والطبيعيين في العالم وملكت أفكارهم وتناولت خواطرهم ونالت اعجابهم . وقبل أن نتحدث اليك عن تلك النظرية يجدر بنا ان نزف اليك ترجمة حياة صاحبها بالايجاز لنحيط بمكانه من حدة الذكاء ، وموضعه من بسطة العلم ، ومبلغه من علو الثقافة خبراً

نحدر صديقنا المفضال الدكتور السر شاه محمد سليمان عن سلالة كريمة ، لها المجد المؤثل

(١) أي من الحرير

والشرف الموروث ، لان رئيسها الاعلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ولذلك فبينه في الهند شهير الاثر علماً ومعلوم المفاخر أدباً ، محير احد رؤسائه بلاد العرب ونواض دهلي — حاضرة الهند الاسلامية — في عهد السلطان علاء الدين الخلجي [1] فلما أغار تيمورلنك على الهند وذهب دهلي في سنة ١٣٩٨ م انتقلت الاسرة من دهلي الى بلدة جونفور . ومن جونفور برزت شخصية احد أجداده القريبين له في العلوم والمعارف وهو الفقيه العلامة مُلا محمود الجونفوري المتوفي سنة ١٠٦٢ هـ الذي كان حاد الذهن متضلعاً من العلوم العقلية والرياضية والفلسفية ومن جهابذة اهل النظر فيها في عصره حيث أشير اليه بالبنان وشدت اليه الرحال وله في الفلسفة والحكمة والعلم والادب كتب نفيسة عديدة أهمها وأشهرها « الشمس البازغة » . وهذا نبوغ صديقنا الفاضل شاه محمد سليمان في الحقيقة مثال للنبوغ الوراثي

ولد شاه محمد سليمان في سنة ١٨٨٦ ميلادية في جونفور وكان والده شاه محمد عثمان رحمة الله من المحامين الاذكياء الشهيرين فيها وعالماً بارعاً وشاعراً فوطن على تربية اولاده وتعليمهم تعليماً وقام به أتم قيام . كان شاه محمد سليمان من نعومة اظفاره مرهف الذهن حاد الذكاء فاجتاز مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي في أقل مدة ونال شهادة Matriculation في سنة ١٩٠٢ من جامعة الله آباد [2] فكان رابعاً في الجامعة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في الدرجة الاولى . ثم انتظم في الكلية للتعليم العالي ونجح في امتحان Intermediate في سنة ١٩٠٤ فكان ثانياً في الجامعة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في الدرجة الاولى . ثم نال شهادة B.A. في العلوم الرياضية في سنة ١٩٠٦ فكان اولاً في الجامعة قاطبة على حسب ترتيب الجدارة بين الناجحين في درجة الشرف . فاستحق به ميدالية « اقبال » الذهبية من الجامعة ومساعدة من الحكومة للاستزادة في العلوم وتيسير المراد منها وولاء البحث فيها بجامعة كمبردج

في سنة ١٩٠٧ سافر شاه محمد سليمان الى انجلترا ودخل جامعة كمبردج ونال منها في سنة ١٩٠٩ شهادة M.A. في العلوم الرياضية العليا بدرجة الشرف ، وفي سنة ١٩١٠ شهادة LL.B. في علوم القوانين بدرجة الشرف من نفس الجامعة . وفي ١٩١٠ ايضاً حاز شهادة المحاماة Barrister at Law من جامعة لندن . وفي سنة ١٩١١ شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة دبلن . والله قد أضفى عليه ذكاء حاداً يغوص أعمق الامور بسهولة ، وفكراً ثاقباً يخترق السجف الستور بسرعة حيث أصبحت له أصعب العلوم كالرياضيات أطوع من بنانه فما شابهها مثل

(١) تولى الامر في الهند من سنة ١٢٩٥ الى سنة ١٣١٦ ميلادية (٢) لايخفى أن اقدم الامتحانات لنيل الشهادات المختلفة في الهند من حق الجامعات ، ولا علاقة لها بالحكومة أو وزارة المعارف كما توهمه بعض

الالعاب الرياضية طبعاً لم تعص لهُ أمراً . وعليه فشاه محمد سليمان من أمهر لاعبي الشطرنج لذلك كانت جامعة كمبردج حين دراسته فيها قد أنابتهُ عنها لمباراة في لعب الشطرنج مع جامعة اكسفورد فناب عنها أحسن مناب

ورجع شاه محمد سليمان في سنة ١٩١١ الى الهند مزوداً بالعلوم والمعارف ومستعدًّا لخدمة الوطن فبدأ يمارس صناعة المحاماة أولاً في مقاطعة جوتفور ثم لدى المحكمة العليا في الله آباد في سنة ١٩١٢ . وفي مدَّة قليلة نال شهرة واسعة لبراعته في القانون ، وسمعة حسنة لاخلاصه في العمل ، فعين في سنة ١٩٢٠ قاضياً منتدباً وهو شاب يناهز ٣٤ . وهذا أمر لم يسبق لهُ نظير فان ذلك السن أقل من المعتاد لتقلد القاضي منصبه في الهند . ثم عين قاضياً مستديماً في سنة ١٩٣٢ . وبعده عين رئيساً منتدباً للمحكمة العليا في الله آباد في سنة ١٩٣٠ ثم رئيساً مستديماً في سنة ١٩٣٢ وفي ١٩٣٧ انتخب قاضياً ممتازاً لمحكمة الاتحاد الهندية Federal Court of India التي أنشئت أخيراً في دهلي عاصمة الهند طبقاً للاصلاحات الجديدة وهي الآن أعلى المحاكم في الهند بأسرها

ما عدا منصب القضاء العالي الدائم هذا وما لهُ من الشأن من جهة اشغاله المتواصلة وواجباته المتتابعة التي تفترس صاحبه غَفَّةً وتقتنصهُ نهزةً وتختطفهُ هُبةً استطاع شاه محمد سليمان ان ينهض في نفس الوقت بأعباء عدَّة مناصب حكومية علمية اجتماعية هامة أخرى لا يشوبهُ خلل ولا يعتريه أوَد ولا يخالطهُ وهن ولا أمت . فقام بمهمة العضوية من قبل الحكومة في لجنة التحقيق في شغب بشاور في سنة ١٩٣٠ ، وفي محكمة الضرائب بلندن في ٣ — ١٩٣٢ كما قام بمهمة الرياسة في اللجان الاقليمية العديدة أحسن قيام

أما مناصبه وأعماله العلمية فهو أحد مؤسسي المدرسة الاسلامية الثانوية في الله آباد وكان رئيساً لها . وشغل سنين سكرتير القسم الداخلي الاسلامي بجامعة الله آباد ، وهو اليوم وكيل الرئيس فيه . وهو عضو هام في المجالس التنفيذية بالجامعة الاسلامية عليگره وبجامعة الله آباد ويجمع العلماء الهندستاني في اقليم أوَدَه . اشتغل منصب المدير بالجامعة الاسلامية بعليگره منتدباً في سنة ٣٠ — ١٩٢٩ . ومنحهُ الاتحاد الجامعي في تلك الجامعة منصب العضو الدائم لطول مدة حياته في سنة ١٩٣٠ وفي سنة ١٩٣٤ منحتهُ نفس الجامعة شهادة الدكتوراه الفخرية في الحقوق اعترافاً بفضله وتكريماً لهُ . وفي أوائل السنة الجارية انتخبهُ المجلس التنفيذي في تلك الجامعة مديراً لها . وعلاوة على كونهِ اليوم مديراً للجامعة الاسلامية بعليگره هو أيضاً رئيس كلية كروسويت للبنات في الله آباد ، وراعي نقابة العلوم الرياضية في الله آباد ، ونائب الرئيس في جمعية العلوم الرياضية بكلكته ورئيس مدرسة مصباح العلوم العربية في الله آباد . ومع ذلك لا يجد فرصة الا وينتهزها ولا نهزة الا ويغتنمها لالقاء المحاضرات العلمية لعامة الناس في المراكز

العلمية مثل جامعة الله آباد وجامعة لكهنؤ ، وجامعة عليگره ، وجامعة بنارس

ومن مناصبه واعماله الاجتماعية العلمية انه يتقلد اليوم منصب الرئيس بصحة الملك ادوار السابع التذكارية في بومباي . وقد رأس مؤتمر مسلمي الهند الاجتماعي في مدراس في سنة ١٩٢٧ ورأس مؤتمر مسلمي الهند التعليمي في اجمير في سنة ١٩٢٨ وكذلك رأس حفلة توزيع الشهادات بجامعة دكا في سنة ١٩٢٩ ، وبالجامعة الاسلامية بعليگره في سنة ١٩٣٤ ، وبالجامعة العثمانية بحيدر آباد في سنة ١٩٣٧ . ورأس ايضاً حفلة اكاديمية العلوم في سنة ١٩٣٤ وحفلة نقابة العلوم الرياضية في سنة ١٩٣٦ وحفلة جمعية علوم الفلسفة بجامعة الله آباد في سنة ١٩٣٧ . وألقى في كل حفلة من تلك الحفلات خطبة علمية بليغة ناسبت مقتضى الحال ، ودلت على رحب المجال ، فأبانت فصاحة لهجته وجزالة منطقه ورصانته على طول باعه في العلوم ورسوخ قدمه في الفنون

على انه ليس مجرد تقلد المناصب العديدة مما يفاس به عظمة الرجل ، ولا بلوغ المراتب السنية مثال لرفعة قدر الانسان وعلو كعبه ، بل كفاءته التي تضطلع بأعباء المناصب ولا تنوء وهمته التي تقوم بالواجبات ولا تأود ، وحصافته التي تصل الحق في اعماق الامور ولا تكدح ودهاءه الذي يشق الطريق بين الخطوب ولا تزيغ ، ولن تجدي هذه المزايا نفعاً اذا لم تكن مصحوبة بالاخلاق السامية في الاعمال والمعاملات ، فان الاخلاق أساس كل فضيلة ورذيلة في العالم ومصدر كل فوز وخيبة في الحياة . فالاخلاق العالية هي التي تبني من تلك المزايا لعظمة الرجل منارة لا يهدم وترفع لها راية لا تنكس ، فتوضح به للناس سبيلا لا يخفى ، وتبين لهم منهجاً لا يضل

وعليه فشاه محمد سليمان ليس ممن بلغوا تلك المناصب العالية ، فصاروا خدودهم للناس صعراً ، ومشوا في الارض مرحاً ، وعلوا من دونهم بالقضاء ، فخاطبوهم القضاء بل هو طيب العشرة محمود الملابسة الغني والفقير ، والرفيع والوضيع ، والمشهور والمغمور ، والخطير والحقير ، لين العريكة دمث الطبع رحب الصدر كريم السجايا لا يخيب آمله ولا يُعدم آمله ولا يحرم سائله . كما هو ذكي لوذعي بصير ألمعي ، أسبقهم جدارة بتلك المناصب غير مدافع وأفضلهم كفاءة لها غير معارض ، صادق العزيمة ماضي الصريمة ، داهية في تصريف الامور الصعبة الانقياد والشديدة الالتواء ، ذو ذوق علمي سليم دقيق النظر يستجلي غوامض العلوم ويستبطن دخائل الفنون ، واسع الاطلاع ، غزير المادة ، حصيف العُقدة بحر في العلوم الرياضية لا يسبر غوره ، سند في علوم القوانين قلّ ان يوجد مثله . وقصارى الكلام انه ذو اوصاف وعبقرية يحق لصاحبها ان يكون مفخرة الارض التي نبت عنها كما هي ايضاً فخر بأن تفتخر به وتتباهى

هذا ما عنّ لنا الآن من سيرة الدكتور السر شاه محمد سليمان صاحب النظرية النسبية الجديدة التي تحدّى بها العلامة آينشتين بايجاز . وموعدنا التحديث عن تلك النظرية المستقبل

مجالي الفكر

الحديث

في الفلسفة والعلم والسياسة

١ — مرشد لفلسفة الاخلاق والسياسات[1]

الاستاذ جود عميد قسم الفلسفة وعلم النفس بكلية بير كبك بجامعة لندن كاتب قدير ومفكر ممتاز وفي الرعيل الثاني من ممثلي الفلسفة الانجليزية في العصر الحديث ولعله أقدرهم جميعاً على ترويض الجموح وتذليل الصعب من المشكلات الفلسفية ، وللرجل نزعة كريمة ترمي الى اذاعة الفلسفة وتقريبها الى الافهام وجعل الاهتمام بها عاماً شاملاً غير مقصور على فئة قليلة من أساتذة الجامعات وطلاب العلم ، وقد وفق الى حد كبير في ادراك غايته وتحقيق برنامجه واعانهُ على ذلك بلاغة أدائه وبراعة أسلوبه ومقدرته الفائقة على التبسيط والتيسير ، وهو لا يلتزم في كتاباته الجد الصارم والوقار المتزمت الذي يصطنعهُ بعض كتّاب الفلسفة وانما يسبغ على كتبه بطريف ملاحظاته مسحة ادبية تجعل قراءتها رحلة هانئة ومتعة مستحبة

وآخر كتاب أصدره هو « المرشد لفلسفة الاخلاق والسياسات » وأخص ما يسترعي النظر في هذا الكتاب الجديد هو نزعة الاستاذ جود في عرضه للمبادىء والنظريات التي تنافر مذهبه الفلسفي الخاص وتنقض أفكاره من اساسها ، ومعظم اصحاب النظريات عندما يتصدون لعرض الآراء والمبادىء والتعاليم المخالفة لمذهبهم يمسخونها — ولو عن غير قصد — ويظهرونها في صورة تبعث في كثير من الاحيان على النفور والخلاف . وقد تجلت مقدرة جود على الاعتدال وضبط النفس عند عرض الافكار التي لا يدين بها في هذا الكتاب كما ظهرت في كتابه السابق « مرشد الفلسفة ». ولجود اطلاع واسع دقيق على تاريخ الفلسفة وهو يتتبعها الى مراحلها

(1) Guide to the Philosophy of Moral & Politics. By C.E.M. Joad. (Gollancz)

الاخيرة وصورها المستحدثة ويحسن العرض ويجيد التنسيق ويعرف كيف يخرج لك من المادة المتكاثرة كلاً حيًّا متصل الحلقات جيد التسلسل

وكتابه الجديد مقسم الى اربعة اجزاء ، وقد قسم كل جزء على جملة فصول تتناول شتى نواحيه ، وقد تناول في الجزء الاول الفلسفة السياسية والاخلاقية عند اليونان واسماه السياسة والاخلاق لان اليونان في تفكيرهم الفلسفي ، كانوا ينظرون الى الاخلاق والسياسة من حيث هما شيء واحد ، فمشكلة البحث عن طبيعة الحياة الصالحة للفرد ومشكلة معرفة طبيعة المبادىء التي تسيطر على اجتماع الافراد او يجب ان تسيطر على الافراد في المجتمعات كانتا عند اليونان وجهين لمسألة واحدة ، وكانوا يرون انك لا تستطيع ان توفق في علاج احدى هاتين المشكلتين دون ان تبحث الاخرى وتهتدي الى موقف خاص حيالها ، وليس في وسع انسان ان يقرر ما هو أحسن نظام للمجتمع دون ان يفكر في حياة الافراد وسبل اسعادهم،وآراء أفلاطون في هذا الصدد تطابق آراء ارسطو

وتناول في الجزء الثاني الاخلاقيات منفصلة عن السياسيات وذلك لانهُ منذ عهد احياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي والتفكير الاخلاقي وصار ماكان يراه اليونان وحدة لا تنفصم عروتها فرعين مختلفين من فروع التفكير ، وقد حرص التفكير اليوناني على استدامة العلاقة بين الاخلاق والسياسة وحاول الابقاء عليها ولكن مجيء المسيحية وجعلها أساس الحياة في الحياة الاخرى،وذهابها الى ان مدينة الله هي منزل القدس وموئل الروح وتهوينها أمر المدينة السياسية مهد السبيل لهذا الانفصال ، ثم ظهرت البروتستنتية فأتمتهُ ، وتوفرت الفلسفة الاخلاقية على بحث معنى الخير والشر ومقياس السلوك الحسن والخلق الفاضل وأصل الواجب الادبي وعلل الحق والباطل من المبادىء الاساسية المستقلة بذاتها في الكون او هي مجرد أسماء يطلقها الانسان على الاشياء التي يقرها او التي لا يقرها بحسب أهوائه واتجاه مصالحه ، وهل الحق هو العمل الذي يرضي الحاسة الاخلاقية او هو الذي ينبعث من ارادة خيرة او مجرد العمل الذي يسفر عن نتيجة محمودة وأثر طيب ؟ واذا كان هو الذي يسفر عن النتيجة المحمودة والاثر المبرور فما هو ذلك الاثر وما معناه ؟ وواضح انهُ من الصعب ان نجاوب عن مسألة معنى الخير دون أن نبحث مسألة معيار العمل الصالح لانهُ اذا كان لنخير معنى فان العمل الصالح اذن هو الذي يزيد هذا الخير وينميه وذلك بطبيعة الحال لا يستلزم الخوض في السياسة ومعالجة مسائلها ، ومن الممكن البحث في طبيعة الواجبات والالتزامات الاخلاقية وأصلها ومصدر سلطانها دون الاشارة الى المبادىء القائم عليها الاجتماع الانساني الذي نسميه « المجتمع » وكثير من كتاب الاخلاق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أشبعوا البحث في الفلسفة الاخلاقية دون ان يدعموا آراءهم

بتوضيح تأثير آرائهم الاخلاقية من الناحية السياسية او الاجتماعية

والقارىء قمين ان يلمح من ذلك ان المسيحية انما مهدت السبيل لفصل الاخلاق عن السياسة لانها جعلت حياة الانسان الحقيقية ليست في هذه الدنيا وانما في العالم الآخر ، فالحياة الدنيا زائلة فانية والحياة الأخرى هي الخالدة الباقية ، وحياة الانسان الدنيوية هي بمثابة اعداد وتجربة وقيمتها رهن بالعناية التي يتم بها هذا الاعداد والتهيؤ ، والصالح في هذه الدنيا انما هو صالح لانهُ سدرجة الى نيل السعادة في العالم الآخر ، فليس الصالح للانسان هو الصالح للحكومة كما يعتقد فلاسفة اليونان وانما الصالح هو ما اعان على خلاص الروح واستنقاذها وهو يتحقق في أبهر صوره وأشرق مجاليه في ملكوت الله لا في مملكة قيصر وعالم الارض ، والحكومة لا تلعب دوراً هامًّا في تقريب ذلك العالم السماوي وربط اسبابنا باسبابه ، وكانت الحكومة من الناحية العملية تستلزم من الفرد بعض العناية والالتفات والمجهود الذي يحرص الفرد على بذله في سبيل الله والدنو من ملكوته ، وولاء الفرد لله كان في العصور الوسطى شديد الصلة بولائه للكنيسة ومن ثمَّ كانت هناك نظرية سياسية في العصور الوسطى تحاول التفريق بين مطالب الحكومة ومطالب الكنيسة ونشأت تبعاً لذلك فكرة السلطة الروحية والسلطة الزمنية وكان يمثل الاولى البابا ويمثل الثانية الملوك والحكام

واوقف المسترجود الجزء الثالث من كتابه للكلام عن السياسة وذلك لانهُ منذ انتهاء عصر احياء العلوم لم في آفاق التفكير كثير من الكتَّاب تناولوا بحث السياسة منفصلة عن الاخلاق وكان مدار بحثهم اصل المجتمع والحاجات الانسانية التي نشأ منها والاهتداء الى المبادىء المسيطرة عليه ، والبحث في ضوء تلك المبادىء عن احسن صورة للمجتمع الانساني وهل الاوفق للانسان الحكم الفردي (الاوتوقراطية) او حكم الاقلية (الارستقراطية) او حكم الجميع (الديمقراطية) ؟ واذا كان الحكم الارستقراطي هو أحسن الانظمة فما هي المؤهلات التي يجب أن تتوفر في الفئة القليلة المختارة ؟ واذ كان حكم الاكثرية هو أحسن صور الحكم فما هي الاساليب التي يحسن اتباعها في انتخاب ممثلي تلك الاكثرية ؟ وما مدى السلطة التي يمنحها الناخب لمنتخبيه ؟ والغالب ان يزيد السلطة الكبرى فان الحكومة النيابية لا تستطيع المضي في اعمالها ، ولكن اذا منح سلطة اكثر مما ينبغي فما هو الضمان الذي يمنع من اساءة استعمال هذه السلطة ؟ وما هي حقوق الفرد في علاقته بالحكومة ؟ وما هي حدود سلطة الحكومة ؟ وهل للحكومة سلطة اكثر من السلطة المستمدة من الافراد الذين تتكون منهم ؟ لقد بحث هذه المسائل هوبز ولوك وروسو ومجل وباركر وسبنسر وغيرهم ينظروا الى علاقتها بالاخلاق

وفي الجزء الرابع يرينا المسترجود كيف عاد الفرنسان الى الالتفات في المذاهب السياسية السائدة

وهو يرى أن عودة الاتصال بين الاخلاق والسياسة من ملامح القرن العشرين البارزة وسماته الكثيرة الدلالة ، والحقيقة عنده ان السياسة متصلة بالاخلاق اتصالاً وثيقاً . والقرن العشرين على حقّ في الرجوع الى توحيدها ولكنه في الوقت نفسه يصارحنا بأن رجعة القرن العشرين الى فكرة ربط الاخلاق بالسياسة لم تخل من قلب للوضع الاصلي ولم تسلم من تشويه للفكرة القديمة وحقيقة ان الحياة الصالحة للانسان لا يمكن تحقيقها بمعزل عن المجتمع ولكن النظرة الحديثة تعتبر حياة الفرد الصالحة مجرد جزء من صلاح المجتمع وقد أدى ذلك الى مبالغات والتواءات في التفكير الحديث الذي يعتبر الفرد من ناحية كونه وسيلة لخير المجتمع ، وقد المستر جود هذا الاتجاه بتوضيح نظريته التي سبق له ان شرحها في مختلف مؤلفاته وهي ان الفرد غاية في نفسه وان وظيفة الحكومة هي ان تفسح له المجال وتعد من أجله الفرصة

وخلاصة القول ان كتاب المستر جود فضلاً عن قيمته الثمينة لدارسي الفلسفة من أحسن المراجع وأوفقها لفهم النظريات السياسية الحديثة التي تعمل وراء حوادث هذا العصر المضطرب الجائش ولا مفر لمن اراد أن يفهم العصر على الوجه المرضي ويدرك لب حوادثه وخفايا انقلاباته من الاطلاع عليه وامعام النظر واطالة الفكر فيما بين سطوره

***

٢ — العلم والمجتمع (١)

في الاجتماع السنوي الذي عقده مجمع تقدم العلوم البريطاني في خريف سنة ١٩٣٦ ألقى رئيسة السر بوشيا ستانب خطبة جعل مدارها العلم والاجتماع . وبما قالهُ فيها ان العالم او المخترع كان الى الثلث الاول من القرن الماضي ، ينتظر بعد الفوز بكشف او مخترع تأييد أمير عظيم أو ثريّ كبير . ولكن رجال الحكومات واقطاب المال والاعمال غدوا وهم أشد ميلاً الآن الى تشجيع الباحثين على البحث واجازتهم بغير وسيلة واحدة على ما يكشفون او يستنبطون بغية استغلال مكتشفاتهم ومستنبطاتهم . فكانت النتيجة ان الفترة التي كانت تنقضي بين الكشف والاستنباط من ناحية ، ووصولها الى مرتبة التطبيق الصناعي الواسع النطاق ، اصبحت قصيرة الآن وقد ادت الى احداث انقلابات فجائية في احوال المجتمع لضيق الوقت المتسع للتمثيل الاجتماعي والملاءمة الاقتصادية . ثم انتقل الخطيب الى بيان الهوّة التي مابرحت قائمة بين العالم والاقتصادي والسياسي . فالعالم انما يعنى بنتائج كشفه واستنباطه مع ان تيارها من أفعل العوامل

(1) Science for the Citizen, by Lancelot Hogben. Published by Allen and Unwin Ltd, London. 12/6

في حديث التحيُّز الاجتماعي ، واذا عني بها ، فغايتهُ تنحصر في الغالب في تعديد الفوائد التي تعدتها مكتشفاته ومخترعاته على الناس ، ولا تتعداها الى تبيُّن الهزّات الاجتماعية والرجّات الاقتصادية التي تحدثها . فكأن المنطقة التي تحصل فيها الهزة والرجة ، وكيف يجب ان تتقيا ، كانت منطقة حرامٌ على الباحثين . فالعالم كان يحسبها خارجة عن اطاقه الخاص . والاقتصادي قلما اعترف بأن الواجب عليه يقضي بدراسة هذه الناحية من الموضوع . والحكومات كانت تقف بعزيزمن هو حادث الى ان تتفاقم العواقب . فتربية العالم كانت لا تشتمل على تبصيره بعواقب عمله من الناحية الاجتماعية . وتربية السياسي والاداري كان يعوزها تدريبهما على فهم تقدم العلم وما يقتضيه من ملاءمة الكيان السياسي والاجتماعي لهُ . فلما وقع الاصطدام انكر كلٌّ من يهمهُ الامر ان الامر من شأنه

هذا بيان الاصل الذي ترتدُّ اليه مشكلة الحضارة الحديثة مشكلة الفاقة والقلق حذاء الثروة التي يغدقها العلم ، وشبح التقتيل والتدمير ازاء ما يبدعهُ العلم للسيطرة على قوى الطبيعة المتمردة. وقد اقترحت عدة اقتراحات لعلاج الداء وردم الهوّة بين العلم والاجتماع كاقتراح السربوشياستا ب ان تكون العلاقة بين العلم والاجتماع ، وتأثير العلم في المجتمع ، مجالاً لبحث علمي منظم . وقد قام الاستاذ جولبان هكسلي حفيد هكسلي الكبير ببحث رائع في هذا الموضوع ضمنهُ كتاباً قيماً . الا أن الاستاذ لنسيلوت هوغبن مؤلف كتاب « العلم والمجتمع » رأى ان يتغلغل في ما هو أعمق من ذلك في دراسة هذا الموضوع ، فكتب ملخصاً للعلم غلَّب عليه في بحث تطوره التاريخي تأثير العلم الاجتماعي في مختلف العصور. فاذا قرأهُ القارىء افاد منه فائدتين الاولى حقائق العلم مبسطة تبسيطاً يرضي الخاصة ويملأ العامة ، والثانية نظرة اجتماعية شاملة لتأثير العلم في تطور الاجتماع البشري

ان انشان الاول في نظر الاستاذ هوغبن ، هو لذلك القلق الذي يساوره من ناحية جمهور كبير آخذ في الازدياد من الشبان والشابات الذين يعلمون انهم سيكونون الضحايا الاولى لقوى التدمير الناشئة عن سوء تطبيق العلم . فالعلم كان من افعل العوامل في نشوء هذا المجتمع المضطرب والعلم وحده هو الذي يملك وسيلة انقاذه . فللعلم الشاب والشابة ان اقطاب العلوم اكتسحهم التيار الاجتماعي التي كانت سائدة في العصور المختلفة . بسّط لها جهودك فوعد العلوم المختلفة . وفسر لها اسلوب البحث العلمي . ثم أجِلْ لها ان العلم ليس « القطعة المضمضة » بل « العلم المتضمض » وعندئذٍ يدرك هؤلاء الشبان والشابات السبيل الى انقاذ انفسهم وانقاذ العالم

يقول الاستاذ هوغبن ما ملخصهُ : أطلق العلم في القرن الماضي قوى جديدة للتنظيم الاجتماعي تقصر عن ادراكها وفهمها التربية السياسية التي تعودناها . فمن سبعين سنة كان في مكنتنا ان نبحث مشكلة الفاقة وهل هي مما يساغ من الوجهة الاخلاقية او مما يجتنب من الناحية المادية.

ولكن ذلك قد تغير. فالقافة اليوم ليست شيئاً يتعذر اجتنابه من الناحية المادية. والحرب ليست نزهة أخلاقية. انها تهدد بناء الحضارة بالانهيار، اذ نحن لم نستأصل شأفتها بنفس السرعة والشدة اللتين استأصلنا بهما الجدري والملاريا والحمى الصفراء

ومن الواضح أن الهدف الذي يتوخاه الاستاذ هوغبن، وهو تعليم الناس وطبع العلماء بشعور التبعة الاجتماعية، عمل عظيم الشأن وعر المسلك ولكنهُ من افراد العلماء الذين في وسعهم ان ينهضوا بهذا العمل. فقد نشأ ورسخ في دراسة علم الاحياء من الناحية الاجتماعية. وهو يعتقد أن معاهدنا العلمية لا تدرس العلم كما يجب ان يدرَّس. ثم انه علاوة على هذا وذاك بارع البراعة كلها في تبسيط العلوم واذا كان قد ادخل على فصوله بعض المعادلات الرياضية فلأنهُ يحترم ذهن القارىء. ولأنهُ يسوقهُ الى المعادلة برفق وعناية فلا يشعر القارىء عند بلوغها انهُ امام شيء إدّعي في رواية أخاذة. ولذلك لا يخالجنا شك في ان كتابهُ هذا سيترك الأثر المتوخى في جمهور القراء، بل وفي جمهور اساتيذ العلوم وهو اهمُّ. لانهُ متى ادرك اساتيذ العلوم — على نحو ما بين السر يوشياستامب — انهم اعضاء في جماعة تتنازعها عوامل الاستقلال والانقلاب، فلعلهم يتحولون الى تخريج الوف من الطلاب كلَّ سنة يطلقون في العالم حاملين رسالة العلم على انهُ « قوة اجتماعية ». ولا نستبعد بعد النجاح المرتقب لمثل هذا المؤلف ان يصبح نموذجاً لمؤلفات اخرى تنسج الى منواله

كان الغالب على الظن حتى الآن، من دراسة سير العلماء، ان الرغبة في اقتحام المجهول، واستطلاع الخفي، كان المحرِّك الاول لهم على البحث والكشف. ولكن الاستاذ هوغبن لا يرى كيف يمكن ان نفسر بهذا الرأي اختراع المضخة البخارية في الوقت الذي كانت انكلترا في أشد الحاجة الى جهاز من قبيلها لتزح المياه من مناجمها. ولا كيف قامت صناعة قطران الفحم الحجري ومركباته في المانيا، وهي البلاد التي تحتاج أشد الحاجة الى المواد الاولية مما جثم عليها ان تجني من القليل الذي لديها أعظم ما تستطيعهُ من الفائدة. والرأي عندهُ ان الضرورة الاجتماعية هي التي تملي على العالم الموضوع الذي يجب ان يتجه اليهِ وينفق فيهِ وقتهُ وجهده، وهذا لا يمنع ان يكون اندفاع العالم في هذا السبيل على غير وعي منهُ لانهُ ابن عصره متأثر بأحواله وتياراته

والاستاذ هوغبن ليس أول من ذهب هذا المذهب ولكنهُ حتماً اول عالم وضع كتاباً على هذا الاساس، كتاباً هو في الوقت نفسه تاريخ للعلم ومدخلٌ الى تفسير العلم تفسيراً اجتماعيًّا

والعلم عنده يتقدَّم عند ما تبدو في عصر ما حاجة اجتماعية لا بدَّ من الاستجابة لها، ولان ذلك العصر يكون قد جمع بين أسلوب وافر للبحث والاستكشاف والباعث عليهما

قال: — ان نصا العلم، سواء أتلخص وصفناه أم بالمطبَّق، ليست منفصلة عن حياة

الانسان . فما ندعوه علماً محضاً لا يعيش الاَّ في نظام اجتماعي يخلق للعالم مشكلات يجب حلها ويجهزه بوسائل وأجهزة لذلك الحل . فلولا الصناعة لما شعرنا بالحاجة الى المناظر (النظارات) ولولا المناظر لما كان لنا المجهر ولا المرقب . ولولاهما لما أدركنا حقيقة سرعة الضوء المطلقة وبعد النجوم باختلاف الزاوية والحيوانات الدقيقة والاختمار والاسباب الجرثومية للامراض . ولولا الصناعة ذات الرقّاص والتذبذبة لما كان علم الحيل (ديناميكس) ولا نظرية الصوت . ولولا علم الحيل الناشىء من الرقص والتذبذبة لما كان كتاب المبادىء (برنسيبيا الذي وضعهُ نيوتن) . ولولا التعدين تحت أطباق الارض لما شعرنا بالحاجة الى دراسة ضغط الهواء والتهوية والانفجار

ويمكن ان يقال بوجه عام ان كتب العلم العامة تحتوي على فصول لا رابط بينها — فصل في الطبيعة وآخر في الفلك وثالث في الكيمياء ورابع في الاحياء وهكذا ، كأن كلاً منها علم نشأ على حدة نشوءاً مستقلاً . ولكن ذهن الاستاذ هوغبن ذهن فيلسوف يهوى التركيب . وهو يميل الى الاخذ بالصور الذهنية العامة التي توجّه الموضوع . ولاسيما الصور والمبادىء الاجتماعية . فاقبالهُ على كتابة مؤلف في العلم من الناحية الاجتماعية ، يسبغ على فصول كتابه وحدة واتساقاً فتزى العلوم المختلفة فيه وهي سائرة في طريق الارتقاء جنباً الى جنب

والكتاب خمسة اقسام اولها القسم الذي عنوانهُ « غزو الوقت والقياس » وفيه يتناول الساعات والتقاويم والفلك والهندسة والملاحة والميكانيكا من الناحيتين التاريخية والفنية . ويليه « غزو المواد » وهو يتناول نشأة الكيمياء الحديثة وردّ اصولها الى حاجات المعدنين والنساجين . ثم القسم الثالث وعنوانهُ « غزو القوة » وهو يبحث في نشأة الطاقة الميكانيكية والكهربائية والكمنهُ بحث مرتبط باحوال الاجتماع الرأسمالي والثورة الصناعية التي أحدثها المحرّك البخاري . ثم القسم الخاص بغزو « الجرح والمرض » ونعدُّ خير الفصول جميعاً لان الاستاذ هوغبن اخصائي في نشأته واخصائيٌّ اجتماعي في نزعته وعمله . هذا فصول متتالية محبوكة تشمل علوم الاحياء والطب والتطوّر تعضوي من الوجهتين العلمية الفنية والاجتماعية . ثم اخيراً القسم الخاص بغزو « السلوك » وفيه يعالج الجهاز العصبي المركزي وعمر النفس ويشرح سلوك الانساني وبواعثهُ . ويختم الكتاب بفصل يجمل فيه المؤلف نسمة الاجتماعية وتشيُّع بحوثه

وليس بعيد ان يكون أثر هذا الكتاب وما ينسج على منواله كأثر « الانسكلوبيدي » التي قام ديدرو على وضعها في القرن الثامن عشر . فلقد ضمَّنهُ الاستاذ هوغبن زبدة المعارف العلمية التي جمعها الناس وحفظوها خلال قرون طويلة ثم هو فسّرها على ضوء الحاجات الاجتماعية القديمة والمعاصرة ثم قدمها لابناء العصر الحديث أداة للاصلاح الاجتماعي

٣ — الساسة الغر[1]

لورد ملن أمير البحر البريطاني وبطل معركة الطرف الاغر قول مأثور في تاريخ الاسطول البريطاني وهو «ان أسطولاً من السفن الحربية البريطانية خير المفاوضين في أوربا». ومن هذا القول المأثور — الذي وضعهُ مؤلف هذا الكتاب على صفحة على حدة أمام فصله الاول — استخرج المؤلف عنوان كتابه. وغرضه من فصوله ان يصف ماكان للاسطول البريطاني في البحر المتوسط من شأن في حوادث البلدان الواقعة على ضفاف هذا البحر من لدن عقدت الهدنة مع تركيا في أواخر الحرب الكبرى واحتل الحلفاء الاستانة الى نشوب الحرب الاهلية الاسبانية وما لازمها من اشتغال الرقابة على سواحل اسبانيا وحماية طرق المواصلات البحرية من جبل طارق الى قناة السويس

والمؤلف كان ضابطاً بحرياً في الاسطول من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٢ فلما خرج من الاسطول برتبة «لفتنت كوماندر» اتخذ الكتابة والتأليف صناعة له فكان المكاتب البحري لجريدة المورننج بوست مدى اربع سنوات قبل اندماجها في الديلي تلغراف. وهو الآن المكاتب البحري لجريدة «الصندي تيمس» ومقالاته في الموضوعات البحرية تنشر في أهم المجلات العالمية

تتجلى لك معرفته بشؤون الاسطول في التفصيلات الممتعة التي يطالعك بها في كل صفحة من صفحاته: أسماء السفن الحربية المنوعة التي اشتركت في مختلف الحوادث وتنقلها من قاعدة بحرية الى أخرى واسماء القواد والضباط واحوال السفن نفسها والروح المعنوية التي تسود رجالها واستعماله المصطلحات البحرية الفنية في المواقف الخاصة. ومع انهُ لا يشير ولا ناشر الكتاب يشير الى انهُ كان ضابطاً في أسطول البحر المتوسط وشهد بنفسه معظم الحوادث التي يصفها فانك لا تكاد تسير قليلاً في مطالعة الكتاب حتى يلوح لك انهُ كان ضابطاً فيه وذلك لدقة الوصف حتى تحس كأنك مما يصف يشهد

***

الفكرة الاساسية التي يقوم عليها الكتاب هي كما قلنا وصف اعمال الاسطول البريطاني في حوادث البلدان الواقعة على ضفاف البحر المتوسط من احتلال اسطنبول الى حريق ازمير الى حادثة كورفو الى ثورة فلسطين (١٩٣٦) الى حوادث انتزاع الحطير الذي لازم المشكلة الحبشية

---

(1) The Grey Diplomatists, by Lt-Comdr. Kenneth Edwards, Rich & Cowan London 10/-

الايطالية الى الحرب الاهلية في أسبانيا وصائن عدم التدخل والرقابة وحماية الموصلات البحرية بعد مؤتمر نيون

وعند المؤلف ان حادثة جزيرة كورفو كانت حدًّا فاصلاً بين الزمن الذي كان فيه الاسطول البريطاني في البحر المتوسط من الهيبة والمقام ما جعله سيد مياهه ، والزمن الذي بدأت فيه ايطاليا تظهر كقوة بحرية قوية تنازع بريطانيا سيادة البحر المتوسط وتطمح الى ان تخلفها فيه. ويذكر القراء ان سبب تلك الحادثة اغتيال لجنة الحدود الايطالية في جانينا بالبونان (٢٨ اغسطس سنة ١٩٢٣) وان المسيو موسوليني بعث ببلاغ نهائي شديد الى حكومة اثينا وبعظم الاسطول الايطالي الى مياه جزيرة كورفو فضرب الجزيرة بقنابله . وعندما سلمت السلطات اليونانية في كورفو أزلم فضيلة من البحارة الى البر فلما احتجت البونان الى عصبة الامم تكبَّر موسوليني للعصبة ولم يقم لها وزناً وأصرَّ على ان يمحو عار الاغتيال بعمل حاسم فكان له ما أراد عندما نقلت جثث القتلى على احدى المدرعات الايطالية إذ حُمِيلت السفن الحربية اليونانية في مرفأ قاليرون بكورفو على رفع العلم الايطالي تحيةً وتكفيراً . وتلا ذلك انسحاب القوات الايطالية من الجزيرة

ويلوح مما جاء في كتاب « السياسة البحرية » ان ضباط الاسطول البريطاني في البحر المتوسط أدركوا مغزى هذه الحادثة ولكن رجال السياسة البريطانية في لندن — البعيدين عن حوادث البحر المتوسط المهمكين بالمشكلات المعقدة التي أورثتهم إياها الحرب الكبرى — لم يدركوا ذلك المغزى او انهم أدركوه ولكنهم شغلوا عنه بما بدا لهم أخطر شأناً منه . وكذلك ولت الحكومات البريطانية المتتالية نقص الاسطول البريطاني بمعاهدات البحرية المختلفة وفرضت على رجال الاسطول ممارسة سياسة الاقتصاد والتوفير في كل باب من الابواب

هذه الخطة التي جرت عليها الحكومة البريطانية أضعفت الاسطول وحدَّت من كفاءة رجاله . وللكوماندر كنيث أدوردز فصلان هما السابع والثامن من كتابه يسط فيهما هذه الناحية من الانحطاط في قوة بريطانيا البحرية وهو انحطاط مستمرٌّ نحو الفتي عشرة سنة من بعد تصفية حادثة كورفو في سنة ١٩٢٣ الى تنازع الحبشي والبطالي في سنة ١٩٣٥ .

فجرياً على خطة الاقتصاد المفروضة على الاسطول أصبحت السفن تقضي في المرفأ وقتاً أطول مما تقضي في عرض البحر وأصبحت المناورات تجري والسفن تسير بسرعة ١٢ عقدة في الساعة بدلاً من ان تسير بسرعة ٢٠ او ٢٣ عقدة في الساعة وهي السرعة المتوقعة في أية معركة بحرية. وغني عن البيان ان الضابط الذي يقود سفينة حربية في معركة ما بسرعة ٢٠ او ٢٣ عقدة في الساعة لا يستطيع ان يتدرب على حسن ادارتها في مناورات تسير فيها بسرعة ١٢ عقدة فقط.

ومن هنا احتمال نشوء خطإ في تنفيذ الخطط البحرية واحتمال حدوث الاصطدام وهو ما وقع فعلاً في بعض المناورات . ثم ان رجال الاسطول حافظوا على مستوى النظافة العالي الذي جرت عليه تقاليدهم ولكنهم حافظوا عليه محافظة سلبية لا ايجابية أي انهم امتنعوا عن كل ما يلطخ لانهُ فرض على كل سفينة — في هذه الفترة — ان تصنع بنفسها الدهان المستعمل لتنظيف النحاس والخشب وغيرهما .

ومن هذا القبيل النقص في رجال الاسطول وفي الذخيرة والعتاد الحربي ومن أبلغ الامثلة على ذلك انهُ لما نشبت الازمة الحبشية واضطرت الامبراطورية البريطانية ان تخرج من الاستيداع سفناً لتجهيزها واستعمالها كانت لا تجد ما يكفيها من البحارة المدربين في بعض الاحيان . أما الذخيرة فقد روى مؤلف هذا الكتاب ان الاسطول المرابط في مالطة في أغسطس ١٩٣٥ كان لا يملك من الذخيرة الاَّ ما يكفيه لمعركة واحدة — لو اضطرَّ الى الحرب — وبعد ذلك تصبح وحداته سفناً جوفاء (صفحة ١٦٨) . ومما يدلك على حقيقة هذه الحالة ان المؤلف جعل عنواني هذين الفصلين « تقهقر » ثمَّ « ثورة وفتنة » !

الاَّ ان حوادث الحبشة والتحدي الذي وجّه الى الامبراطورية البريطانية الذي كان منطوياً في تلك الحوادث ، أيقظ في الشعب البريطاني غريزة الدفاع عن النفس فبذلت الحكومة البريطانية جهداً جباراً لمواجهة الحالة — اذا اقتضى الامر — بأكبر قوَّة بحرية تستطيع ان تحشدها في البحر المتوسط ولو جردت القواعد الاخرى من الوحدات اللازمة لها

هذه الفصول أمتع ما في كتاب كله ممتع لانها تتصل بحوادث كان لمصر فيها شأن كبير من حيث الاستعداد الحربي الذي تمَّ في هذه البلاد لمواجهة الطوارىء ومن حيث اتخاذ مرفأ الاسكندرية مقرَّاً لاكبر جانب من الاسطول البريطاني بعد خروجه من مالطة ومن حيث ما قيل عن امكان انسحاب جيش مصر والسودان من لوبيا الى الاريتره

ثم انها تحتوي على حادثة الطيارة الايطالية التي سقطت على الطريق بين مالطة وهي في طريقها الى الاريتره وما قيل عن « صندوق اسود » كان فيه ما يدين ايطاليا من أوراق ووثائق خطيرة الشأن فقد روى المؤلف ان هذا الصندوق نقل الى دار المفوض السامي البريطاني (السفارة البريطانية الآن) فرؤي ان الاوراق التي فيه يجب ان تصل الى لندن حالاً وبطريقة مأمونة . ثم رويت الصحف في اليوم التالي ان الكابتن بلاك احد شهود العيان بالانكليز قام من لندن الى القاهرة بغية التفوق في سرعة الطيران الى جنوب افريقية . فلما وصل مطار المانطة قبل ان عطلاً أصاب طيارتهُ حالا يمضي في رحلته . فعاد الى لندن بدون توقف في اليوم التالي — وكان يحمل مسهُ الصندوق الاسود ! ثم هناك تفصيلات الرواية التي رويت عن نية السفير

موسوليني ان يضرب الاسطول البريطاني ضربة قاضية وهو محتشد في مالطة يوم ٣٠ اغسطس سنة ١٩٣٥ وكيف عرفت الحكومة البريطانية بذلك فلم تظهر انها عارفة ولكنها أصدرت الأمر بخروج الاسطول الى عرض البحر في ٣١ أغسطس وما روي عن غضب الدوتشي موسوليني عند ما علم بذلك . هذه الحوادث والروايات وعشرات غيرها تجعل الكتاب أخاذاً كالرواية ، بل من المتعذر ان تحتوي أية رواية يخلقها الخيال عن معنى التشاق والدرامة أكثر مما تنطوي عليه هذه الدرامة الواقعية

بعد ذلك جاءت ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ فكان للاسطول فيها شأن فصله المؤلف ثم نشبت الحرب الاهلية الاسبانية فتعين على الاسطول البريطاني القيام بأعمال الرقابة على سواحل أسبانيا تنفيذاً لخطة عدم التدخل بالاشتراك مع أساطيل ايطاليا وفرنسا والمانيا وحماية السفن التجارية البريطانية من سفن الفريقين المتنازعين وطيارتهما ، ثم استفحل خطر الغواصات وعقد مؤتمر نيون لعمل الاسطول البريطاني في البحر المتوسط جانباً كبيراً من تبعة حماية المواصلات البحرية فيه

وقد فصل المؤلف في هذه الفصول حادثة الاعتداء على الطراد الالماني «دويتشلند» وهو الاعتداء الذي أفضى الى ضرب ثغر المرية بالقنابل ثم بسط ما قيل عن اعتداء قصد به اغراق الطراد الالماني «ليبستس» وهو الذي أفضى الى انسحاب المانيا وإيطاليا من مشروع الرقابة على سواحل أسبانيا . ويلي هذا تفصيل حوادث مختلفة مما قرأناه في الصحف ولم نعرف ما كان يجري بشأنه في الوزارات والسفارات

واذا كان من المتعذر على كاتب هذه السطور ان يجمل في مقال ما فصله الكاتب في ٣٢١ صفحة فانه مقتنع بأن ما تقدم يكفي للدلالة على محتويات الكتاب واتجاهه العام

وعند الكاتب ان برنامج الدفع القوي الذي حبت بريطانيا ان تنفيذه بعد حوادث الحبشة على أثر الانتخاب العام الذي تم في نوفمبر سنة ١٩٣٥ قد أخذ يعيد الى الاسطول البريطاني سطوته القاصية وكفاءته التاريخية وهو بذلك يختم كتابه بفصل وازن بين الارقام المختلفة في الموقف البحري في البحر المتوسط وخلص منه الى القول بأن موقف بريطانيا فيه قوي وبزداد قوة رويداً رويداً . فقد بنى الاسطول البريطاني في سنوات ١٩٣٦ و١٩٣٧ و١٩٣٨ [illegible] في أية سنة تلت انتهاء الحرب الكبرى وسيبنى في سنة ١٩٣٨ صنع أكبر عدد من المدمرات صنع في سنة واحدة بعد سنة ١٩١٨ وستشهد سنة ١٩٤٠ انجاز المدرعات الضخمة

وعنده كذلك ان فتح ايطاليا للحبشة يكسب بريطانيا لا تريد الا أن تبقى واصلاتها الامبراطورية في البحر المتوسط بجعلان مصالح بريطانيا متسقة لمصالح ايطاليا وان موسوليني أدرك ذلك والامل معقود على التفاهم التام بين الدولتين

٤ — بريطانيا والحاكمون بأمرهم [1]

يكاد الباحث في شؤون اوربا الدولية يكون كالسائر في تيه لكثرة ما يواجههُ من المعاهدات والمحالفات والعهود وما يصطدم به من تيارات السياسة الظاهرة والخفية وما يطالعهُ من حقائق تتعلق بالشعوب وتوزيعها والخطط الاقتصادية وتشابكها ووجوه الخلاف في القواعد السياسية والاجتماعية والفلسفية التي تقوم عليها نظم الحكم وتستند اليها مرامي الحكام

فالباحث في حاجة الى دليل في هذا التيه . وكان كتّاب الفرنجة أدركوا هذه الحاجة فهبَّ المؤلفون الى التأليف ودور النشر الى النشر فتفحنا الاستاذ كول بكتابين وسمهما باسم الدليل احدهما لحالة اوربا الاقتصادية والآخر لحالتها السياسية . وطلع الصحافي الاميركي جون غنتر على العالم بكتابه « داخل اوربا » وهو الكتاب الذي نال شهرة عالمية واعيد طبعه مراراً كان مؤلفه في كل مرة يضيف اليه ما يجدُّ في حلبة النضال الدولي . ومن قبيل هذه الكتب كتب أخرى تختلف أسلوباً واتجاهاً ولكنها تماثل في الغرض الاساسي

واعلم يصعب على الباحث ان يجد مرشداً له في تيه السياسة الاوربية بعد الحرب الكبرى خيراً من الاستاذ سيتون وطسون استاذ تاريخ أوربا المتوسطة في جامعة لندن . فقد تخرّج في جامعة اكسفورد ودرس في برلين وباريس وفينا اكب خاصة على التوفر على شؤون اوربا المتوسطة وشرقها الجنوبي وله في ذلك مؤلفات نفيسة في تاريخ النمسا وهنغاريا والبلقان علاوة على اشتراكه في اصدار مجلة « اوربا الجديدة » و« المجلة السلافونية » . ثم انهُ عاون ماساريك وبنيش في السعي الى تحقيق استقلال تشيكوسلوفاكيا وربطهُ بأقطاب يوغوسلافيا ورومانيا اواصر صداقة متينة

واذا كان الاستاذ كول قد جعل كتابيه عرضاً تاريخيًّا لشؤون اوربا الاقتصادية والسياسية أصلهُ في القرن التاسع عشر وفروعه في العشرين واخرجهُ متمماً بسمة عقيدته الاشتراكية ، واذا كان الصحافي غنتر قد أدار فصول كتابه من حول اقطاب اوربا القابضين على ازمتها المتصرفين بمقدراتها وخيباتهم النفسية ، فان الاستاذ سيتون وطسون جعل كتابه بحثاً تاريخيًّا معاصراً يتناول الفترة التي تلت معاهدات الصلح . بل ان معظم فصول الكتاب يدور على الظاهرات السياسية التي طالعت الجمهور في العشر السنوات الاخيرة من مثل قيام النظام النازي في المانيا والفاشستي — ولاسيما حوادث الحبشة — في ايطاليا وتطور النظام السوفيتي في روسيا

والكتاب تلفت عليه وجهة نظر خاصة وهي بيان حالة هذه الدول الدكتاتورية الكبيرة وصلتها بالسياسة البريطانية . فالمؤلف بطبعه ونشأته يمقت الدكتاتورية نظراً وتطبيقاً ولكنهُ يعترف

(1) Britain and The Dictators, by R. W. Seton-Watson, Cambridge University Press. 1938.

بما فيها مما يستروي الجماهير ولا سيما في دور غلبت على امرها وقيدت بقيود ثقيلة كثيرة ثم ظفرت ولكن حرمت مما وعدت به كايطاليا او بلغ فيها مستوى الحياة الاجتماعية دون دركات الانحطاط كروسيا . فما تعثر عليه من الصراحة في بعض صفحاته مما يجعله أقرب الى الكاتب الصحافي منهُ الى الاستاذ المؤرخ ناشيء عن اعتقاده بأن مصير جامعة الامم البريطانية ومعها مصير المنشآت الاجتماعية الحرة في العالم معلق الآن في ميزان القدر . ولكن ذلك لا يمنعهُ عن بحث تسوية الحرب الكبرى بحثاً وافياً لبيان ما ارتكبتهُ الحكومة البريطانية وسائر الدول المنتصرة من الاخطاء ولا عن التساؤل عما يمكن القيام به لاصلاح الحال واجتناب الكارثة

والاستاذ سيتون وطسون دقيق الاستقصاء لا تفوته شاردة ولا واردة من أقوال الزعماء ولا من كتابات الصحف المسؤولة في مختلف بلدان اوربا . الاَّ ان علمهُ الواسع واحاطته التامة لا تضجرك فصورة الدراما واضحة في ذهنهِ والقلم سيال تحتهُ فريحة متوقدة ونفسهُ طيبة الحوادث الخطيرة نفسها

الجزء الاول من الكتاب في مقدمة توطئة لفصوله الرئيسية فهو يبحث ولاَّ الخطط السياسية البريطانية قبل الحرب الكبرى وقواعدها ثم خطة بريطانيا في أثناء القتال العالمي . ويلي ذلك تحليل دقيق لتسوية الحرب الكبرى

وفي بحثه لتسوية الحرب الكبرى يدفع عنها بعض ما وجه اليها من التهم ثم يأخذ عليها ما أخذ خاصة هي رفض الحلفاء ان يناقشوا الالمان في قواعد التسوية مما وسم معاهدة فرسايل بسمة الاملاء . ثم انهُ يأخذ عليها ربط ميثاق العصبة بمعاهدات الصلح ، وتحميل المانيا وحدها تبعة الحرب ، والقول بان المانيا لا تصلح لادارة شؤون المستعمرات ، والشدة المتناهية في فصوص التسوية الاقتصادية

ومما يستوقف النظر ان المؤرخ لا يأخذ على تلك التسوية الحدود الجغرافية الجديدة التي وضعت بمقتضاها لانهُ يحسب انها حققت مبادىء « الاتنوغرافيا » على قدر ما يمكن تحقيقها

وعند الاستاذ سيتون وطسون ان بريطانيا لا تحمل تبعة هذه الاخطاء وحدها . ولكنها تحمل وحدها تبعة خطأ آخر هو في نظره خطأ كبير . ذلك انهُ لما أبت الولايات المتحدة الاميركية الانتظام في معاهدة الضمان الثلاثية لضمان سلامة فرنسا صرفت بريطانيا نظرها عنها كذلك فأنشأت في فرنسا شعوراً بالقلق على سلامتها مما حملها على السعي لفوز بحلفاء اخرين في أوربا وجعلها تبدو في مظهر الراغب في السيطرة على أوربا والاحداق بألمانيا . وهذا سلب بريطانيا جانباً كبيراً من النفوذ في مجامع فرنسا كانت تستطيع — لو قبلت معاهدة الضمان — ان تستعمله وتصرفه الى ما تراه خيراً

وليس في وسع الكاتب ان يلخص في فصل موجز أهم ما في الكتاب فكل صفحة من صفحاته تفصل شؤوناً تتصل بحياتنا اليومية من سياسية واقتصادية سواء في أوربا كنا أم في مصر. الاّ ان الكتاب يتناول في جملة الدول الدكتاتورية الكبيرة في اوربا وهي المانيا وايطاليا وروسيا. ولكلٍّ منها فصل مسهب. وأطولها الفصل الخاص بألمانيا لانهُ عرج فيه على تحليل المبادىء الايديولوجية التي يستند اليها النظام النازي وشيعته المتحكمة

تطالع هذه الفصول فتخرج منها بأن المؤلف دمقراطي النزعة يكره الاستبداد والتحكم سواء أمن اليمين كان أم من اليسار. وهذا الرأي يلون بعض ما يكتب ولا سيما نهاية الفصول عند ما يريد الخلوص الى نتيجة عامة. أما العرض الذي تشتمل عليه أكثر صفحات هذه الفصول فتنزّهُ الى حد بعيد عن نزعة المؤلف الخاصة

الاّ انهُ مع كرهه للنظام الدكتاتوري في روسيا يرى ان روسيا لا تهدد السلام العالمي ويدافع عن عقد الميثاق الفرنسوي السوفيتي في سنة ١٩٣٥ لانهُ يرى انهُ اذا عزلت روسيا عزلاً فعالاً عن أوربا فتسلح المانيا والريبة التي تحيط بموقف ايطاليا يجعلان فرنسا في موقف شديد الخطر وهو يقول « ان الغرض من الميثاق المحافظة على توازن القوى في أوربا وهو ما يزعم هتلر انهُ يبغيه . . . »

أما فصله عن ايطاليا فأشد لهجة من سائر الفصول وعنده على ما جاء في آخر الفصل انهُ في الاتصال بموسوليني ومعاملته يجب ان نحيد عن التأثر بالشعور وان ندرس ميكيافللي وان نعلم ان موسوليني يحتقر الساسة البريطانيين ويعتقد بأن النزعة السلمية قد أضعفت الشعب البريطاني وان الامبراطورية آخذة في الانحلال وأنهُ يأمل ان يتبوأ ما يحل محلها في البحر المتوسط وإفريقية والشرق الاوسط وانهُ معادٍ للنظم النيابية الحرة وفكرة الحرية الفردية والسياسة السلمية ونظام السلامة الاجماعية المثل في جنيف

وفي الكتاب بحث واف في مشكلة الاقليات في أوربا وما تشكو منهُ وعنده ان الاقليات الالمانية في تشيكوسلوفاكيا كانت أحسن حالاً من سائر الاقليات الاوربية المختلفة

وقد أُلحق بالكتاب فصلان احدهما خاص بأسبانيا وسياسة بريطانيا فيها والآخر بالنمسا وحادث ضمها الى الرايخ الثالث في شهر مارس الماضي

***

والخلاصة ان الكتاب جدير بأن يكون على مكتب كل مثقف لشؤون أوربا لما يزخر بهِ من الحقائق المرتبة المنظمة في فصوله. انما يجب على من يطالع النتائج التي يخلص اليها المؤلف من عرضه للحوادث والحقائق ان يفعل ذلك وهو عالم بوجهة نظره الدمقراطية

موت سوسو

« سوسو » مرثية أليف فريف الطفولة
فيه شعلة الحياة المقدسة بين يدي وهند
مرثيته ، أو مرثيا الشعلة الخابية فيه !

لقد هدمت في الضلوع الحياة ... فما يرجف القلب أو يخفق
وقد غاب لا ألاؤها في العيون ... فما ترمق الكون أو تبرق
وقد سكنت نأمة في حشاه ... فما عاد يغفو أو يعرق
فيا قربها لحظة في الزمان ... ويا بعد آثارها تطرق
وتنقل من عالم صاحب ... إلى عالم صمته مطبق

***

تقيم الحياة هنا مأتماً ... وما إن بها جزعاً تفرق
وإن الحياة لمجنونة ... بأبنائها الكل لا تفرق
فجيمتها في صغار الفراش ... كموت الفتى حادث مرهق
هو الموت في كنهه واحد ... ويزهق من بعد من يزهق
فما انذعرت في صراع الردى ... لخلق لها كخلق ما تخلق !

***

وترجف في كل حي إذا ... أصاب سواه الردى المزهق
أشعتها في جميع النفوس ... ترقرقها مصدر يألق
فإن سنة ما بنض الضياء ... تذبذب لألاؤها المشرق [1]
فيا ديمة رقرقت في العيون ... لأنت الحياة ممن تدفق
يمز على النفس فقد الحياة ... فنجزع لموت إذ يطرق

جبران — سيد قطب

(١) الحياة واحدة في جميع الاحياء كمستودع الطاقة بعد فروعه المتفرقة ومتى مسه ما ينغص من طاقته تذبذبت جميع الفروع . وكذلك يرجف الاحياء موته

الاسرات الحاكمة

وبعض الاحداث السياسية الخطيرة الشأن

في العالم الاسلامي منذ قيام الاسلام حتى القرن السابع عشر الميلادي

للدكتور زكي محمد حسن

امين دار الآثار العربية ومدرس بمعهد الآثار الاسلامية

يعنى الطلاب في مصر بدراسة التاريخ الاسلامي . ويبذل الأساتذة جهوداً مشكورة في هذا السبيل ، ولكنهم يلاحظون في الطلاب انصرافاً الى العناية بمراحل التاريخ الاسلامي مرحلة مرحلة ، غير عاملين على ربطها بعضها ببعض ليسهل عليهم الافادة مما يتلقونهُ ، والمقارنة بين الاقاليم الاسلامية المختلفة ، ومعرفة الروابط بينها ، والاحداث الخطيرة الشأن في تاريخها . وقد سمعت من بعض الاساتذة الاجانب ، ممن يشتغلون بتدريس الآثار الاسلامية شكوى من عجز الطلاب عن تصور حال العالم الاسلامي كله في اي عصر من العصور ، فدفعني ذلك كله الى كتابة البيانات الآتية ، جمعت فيها أخطر الاحداث السياسية شأناً في التاريخ الاسلامي ، واستعرضت فيها الاقاليم الاسلامية في القرون المختلفة لبيان الاسرات التي كانت تحكمها ، ثم ختمت الكلام على كل قرن باشارة وجيزة الى حالة الفنون فيه . وغاية ما أتمنى ان يكون في هذا البيان ما أرجوه من نفع للطلاب والقراء وان يعينهم على النظر فيما بلغهُ الاسلام من مجد وما له من شأن خطير في العالم : —

القرن السابع الميلادي

ا — بعث النبي عليه السلام

وكانت الهجرة في سنة ٦٢٢

وبدأ حكم الخلفاء الراشدين في سنة ٦٣٢

ب — ثم فتح الشام في سنة ٦٣٨ وظل يحكمها ولاة من قبل الخلفاء حتى صارت مقر الحكم في عهد بني أمية ابتداء من سنة ٦٦١

ج — وتم فتح ايران في سنة ٦٤٢ وبدأ يحكمها ولاة من قبل الخلفاء

د — وتم فتح مصر في سنة ٦٤١ وبدأ يحكمها ولاة من قبل الخلفاء

ه — وفي النصف الثاني من القرن السابع بلغ جنود المسلمين حدود الهند بعد ان اجتاحوا افغانستان في سنة ٦٦١، وكذلك غزوا بلاد التركستان (ما وراء النهر) واستولوا على بخارى وسمرقند في سنة (٦٧٤ و ٦٧٦) ولكنهم لم يستعمروها استعماراً منظماً الا في أوائل القرن الثامن

و — وتقدم العرب في شمال افريقيا بعد اخضاعهم مصر ولكن مقاومة البربر كانت شديدة فلم يتم اخضاع افريقيا وتؤسس القيروان الا في سنة ٦٧٠ ثم سقطت بعدها قرطاجنة وبلغ العرب شواطىء المحيط الاطلسي

ز — أما في شمال الدولة الاسلامية فقد غزا المسلمون ارمينيا واستولوا عليها في آخر القرن السابع او بداية القرن الثامن. كما انهم استولوا على قبرص في سنة ٩٤٩ وحاصروا القسطنطينية عدة مرات منذ سنة ٦٧٠

ح — وأهم الآثار التي تنسب الى نهاية هذا القرن قبة الصخرة في بيت المقدس وقصر المشتى في بادية الشام

القرن الثامن

ا — سقطت الدولة الاموية في سنة ٧٥٠ وقامت على أنقاضها الدولة العباسية

ب — كانت الشام مقر الخلافة حتى قيام بني العباس الذين شيدوا بغداد في سنة ٧٦٢ بسبب اخلاص الشام لبني أمية وبعد دمشق عن وسط الدولة الاسلامية وقربها من حدود بيزنطة. وازدهرت بغداد في نهاية هذا القرن على يد هارون الرشيد

ج — مصر كان يحكمها ولاة من قبل الخلفاء الامويين فالعباسيين

د — فتح العرب الاندلس سنة ٧١١ وظل يحكمها ولاة من قبل بني أمية حتى سنة ٧٥٦ حين أسس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الدولة الاموية في الاندلس مستقلاً عن الخلافة العباسية. وحدث ان توغل المسلمون في جنوب فرنسا وأخضعوا قسماً منها حتى صدهم شارل مارتل

في واقعة بلاط الشهداء بين مدينتي تور وبواتيية سنة ٧٣٢

هـ — تبدأ الدولة الادريسية في مراكش سنة ٧٨٨ على أثر ثورة قام بها العلويون في المدينة وأخضعها العباسيون ففرّ ادريس بن عبد الله (من نسل علي بن أبي طالب) الى مصر فراكش حيث أسس الدولة الادريسية

وأما بقية شمالي افريقية فلم يبق خاضعاً منهُ للخلافة الا الاقليم الذي يعرف الآن باسم تونس . اذ ان أسرتين من الخوارج ظهرتا ايضاً في شمالي افريقية هما بنو رستم وبنو مدرار

و — ومن أهم الآثار الفنية في هذا القرن الجامع الاموي بدمشق وقصير عمرا في بادية الشام ويمتاز هذا القصر الاخير بما على جدرانه من صور جميلة يظهر فيها تأثير الاساليب الفنية البيزنطية والساسانية

القرن التاسع

ا — في بلاد العرب تحكم الدولة العباسية غير ان دخول العناصر الاجنبية من فرس وترك ثم اتساع أطراف الخلافة الاسلامية جعل الخلفاء العباسيين يفقدون سلطانهم الفعلي ولا سيما على الولايات النائية

ب — بلاد الاندلس تحكمها الدولة الاموية من عاصمتها قرطبة

ج — مراكش تحكمها الدولة الادريسية وكذلك يحكم بنو رستم جنوبي غربي تونس . وفي سنة ٨٠٠ يتخلى هارون الرشيد عن حكم افريقية (تونس) ويمنحها أسرة الاغالبة ، تحكمها تحت سيادته الاسمية

د — يفتح المسلمون جزيرة صقلية

هـ — مصر يحكمها ولاة من قبل الدولة العباسية حتى سنة ٨٦٨ حين يستقل بها أحمد بن طولون ويغزو الشام

و — بدأ ظهور الامرات المستقلة في بلاد العرب نفسها فقام بنو زياد في تهامة وجزء من بلاد اليمن سنة (٨١٩) وقامت ايضاً عدة امرات صغيرة أخرى

ز — في أيران قام بنو طاهر (٨٢٠ — ٨٧٢) وبنو الصفار (٨٦٧ — ٩٠٣) ثم بنو سامان (٨٧٤ — ٩٩٩)

هـ — وأهم ما امتاز به القرن التاسع من الوجهة الفنية تأسيس المعتصم مدينة سامرا التي ظلت عاصمة الدولة الاسلامية من سنة ٨٣٨ الى سنة ٨٨٣ كما ازدهرت فيه صناعة الخزف ذي البريق المعدني وصناعة تزيين الجدران بالزخارف الجصية ومن أهم آثاره جامع ابن طولون بالقاهرة وأطلال مدينة سامرا في العراق بما فيها من زخارف جصية وصور .

القرن العاشر

ا — بلاد الاندلس تحكمها الدولة الاموية في قرطبة ويتخذ عبد الرحمن الثالث لنفسه لقب خليفة سنة ٩٢٩

ب — في مراكش تحكم الدولة الادريسية حتى سنة ٩٨٥

ج — في شمالي افريقية يسقط بنو الاغلب سنة (٩٠٩) وبنو رستم سنة (٩٠٨) وذلك بسبب قيام الدولة الفاطمية

د — في مصر تسقط الدولة الطولونية سنة ٩٠٥ وتحكم مصر ولاة من قبل الخلافة حتى تقوم الدولة الاخشيدية سنة ٩٣٥ وتسقط سنة ٩٦٩ حين يفتح الفاطميون مصر

اما الفاطميون فقد قاموا في شمالي افريقيا وهزموا الاغالبة سنة ٩٠٩ وبسطوا سلطانهم على مصر وشمالي افريقية الا مراكش — ثم استولوا على الشام . على ان تقلهم مقر الحكم الى القاهرة أفقدهم اجزاء امبراطوريتهم في شمالي افريقية بسبب ضعف مراقبتهم لها فقامت على انقاضها دول صغيرة مستقلة او شبه مستقلة قضى عليها المرابطون في منتصف القرن الحادي عشر كما قضوا على الاسرات الصغيرة التي قامت على أنقاض الدولة الادريسية بعد سقوطها سنة ٩٨٥

هـ — في ايران تسقط الدولة الصفارية في سنة ٩٠٣ وتظل الدولة السامانية تحكم حتى آخر القرن (٩٩٦) وتظهر دولة الايلخان وكذلك دولة بني بويه في العراق وجنوبي بلاد الفرس ويزول كل نفوذ فعلي للخلفاء العباسيين حين يستولي بنو بويه على الاملاك الباقية لهم ويمنحون في

احتلال بغداد سنة ٩٤٥ ويظل خلفاء العباسيين بعد ذلك لا مظهر لهم الا بلاطهم الخاص حتى يقضي عليهم المغول سنة ١٢٥٨

و — ونشأت في افغانستان الدولة الغزنوية المستقلة سنة ٩٦٢ . وكانت الدولة الصفارية اول الدول الاسلامية التي استعمرت افغانستان استعماراً منظماً وخلفها في كابل حكام من قبل الدولة السامانية ثم افلح البتكين احد قواد السامانيين في انشاء الدولة الغزنوية

ز — قامت في الموصل وحلب الدولة الحمدانية (٩٢٩ — ١٠٠٣)

ح — اما من الناحية الفنية فان أجل ما امتاز به القرن العاشر تشييد الفاطميين مدينة القاهرة في مصر وازدهار الفنون الزخرفية ازدهاراً يتجلى في اكثر منتجاتهم الفنية من خزف ومنسوجات وتحف معدنية وخشبية وزجاجية مما يشهد بعظم الثروة التي جمعها المصريون في ذلك العصر والتي وصفها الرحالة الايراني ناصر خسرو وصفاً مسهباً

القرن الحادي عشر

ا — في الاندلس تسقط الدولة الاموية سنة ١٠٣١ وتقوم الدويلات الصغيرة المعروفة باسم ملوك الطوائف وأهمهم بنو عباد في اشبيلية (١٠٢٣ — ١٠٩١) الذين يستنجدون بالمرابطين لمعاونتهم في حروبهم مع المسيحيين ويلي المرابطون النداء مرتين ولكنهم في المرة الثانية (سنة ١٠٩٠) يضمون الاندلس الاسلامية الى املاكهم

ب — في شمالي افريقية كان التنافس بين الدويلات الصغيرة وكان نجاح بني زيري في امتزاج قوة سنية وسمرقندية من العرب سبباً في ضعف النفوذ الاسلامي حتى قامت دولة المرابطين بين البربر سنة ١٠٥٦ واعترفت بسلطان اسمي ديني للخلافة العباسية

ج — في مصر والشام كان الحكم للفاطميين . وقد أفلح الصليبيون في الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٩

د — في بلاد ايران وتركستان تحكم دولة الايلخان كما يحكم بنو بويه (وهم من الشيعة) في العراق وجنوبي ايران حتى سنة ١٠٥٥

ه — وظهر السلاجقة في سنة ١٠٣٧ وقد استطاعوا توحيد العالم الاسلامي من حدود افغانستان الغربية الى البحر الابيض المتوسط واليهم يرجع الفضل في فشل الصليبيين

و — اما في افغانستان فكانت تحكم الدولة الغزنوية التي مدّ سلطانها على اقليم البنجاب في الهند

ز — وقد تقدمت في القرن الحادي عشر صناعات الخزف والنسيج والنحاس المنزل بالفضة ويرجع الفضل في ذلك الى السلاجقة والفاطميين

القرن الثاني عشر

ا — في الاندلس ينتهي حكم المرابطين ويبدأ حكم الموحدين سنة ١١٤٥

ب — في شمالي افريقية تظهر دولة الموحدين وتقضي على سلطان المرابطين سنة ١١٤٦

ج — في مصر تسقط الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ ويبدأ حكم الدولة الايوبية التي انشأها صلاح الدين حين كان في خدمة نور الدين محمود بن زنكي الذي كان قد أعلن نفسه سلطاناً على جزء كبير من سورية

د — اما في الشام فقد كان الخلاف بين المسلمين والصليبيين على أشده واتيح لصلاح الدين في الجزء الاخير من هذا القرن ان يبسط سلطانه على قسم كبير من الشام وان يسترد بيت المقدس سنة ١١٨٧

ه — وكان النفوذ في غربي اسيا للسلاجقة ثم انقسمت دولتهم الى فروع عديدة فقامت على أنقاضها دويلات كوّنها ضباط السلاجقة المسمون الاتابكة ولكن دولة السلاجقة ظلت في الجزء الغربي حتى اول القرن الرابع عشر

و — ظهر الاتابكة فكان منهم اسرة زنكي في الجزيرة وسورية وكان منهم اتابكة الموصل

ز — أما في افغانستان فقد سقطت الدولة الغزنوية سنة ١١٨٦

ح — ويرجع الى هذا القرن بدء ازدهار صناعة التصوير في المخطوطات بالعراق وايران كما أينع الفن المغربي الاسباني على يد الموحدين في الاندلس ونبغ الايرانيون في انتاج ضروب شتى من الخزف الفني الجميل

القرن الثالث عشر

ا — في الاندلس يضمحل نفوذ الموحدين حتى تسقط دولتهم ويطردون من شبه الجزيرة سنة ١٢٣٥ — وتسقط الدويلات الاسلامية الصغيرة واحدة بعد الاخرى اللهم الا دولة بني نصر في غرناطة الذين تقوم أسرتهم في سنة ١٢٣٢ وتبقى حتى نهاية القرن الخامس عشر

ب — في شمال افريقية تسقط دولة الموحدين وتقوم على أنقاضها دولة بني حفص في تونس (١٢٢٨ — ١٥٣٤) ودولة بني زيان في الجزائر (١٢٣٥ — ١٣٩٣) ودولة بني مرين في مراكش (١١٩٥ — ١٤٧٠)

ج — في مصر وسورية سقطت الدولة الايوبية وقامت دولة المماليك البحرية سنة ١٢٥٠ بعد ان هزم الصليبيون في نفس السنة على أيدي السلطان الايوبي طوران شاه في واقعة المنصورة حيث أسر لويس التاسع ملك الصليبيين وسجن في دار ابن لقمان التي لا تزال قائمة في المنصورة الى الآن، ثم فدى نفسه وجنده بعشرة آلاف الف فرنك. وقد نجح بيبرس البندقداري في صد التتار عن مصر بعد ان هزمهم في واقعة عين الجالوت بفلسطين سنة ١٢٥٩

د — أما الذين فقد كان الايوبيون قد غزوها سنة ١١٧٣ وسادت لهم السيطرة عليها حتى سنة ١٢٢٩ حين خلفهم في حكمها أسرة الرسوليين (١٢٢٩ — ١٤٥٤)

ه — في آسيا الصغرى يحكم السلاجقة الروم

و — وفي سورية والجزيرة تحكم أسرة الاتابك عماد الدين زنكي حتى سنة

١٢٥٠ وفي ديار بكر تحكم الاسرة الارتقية (١١٠١ — ١٣١٢)

ز — ويبدأ سلطان المغول في ايران من سنة ١٢٥٦ . وتسقط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٨

ح — وفي الهند يبدأ نفوذ سلاطين دلهي سنة ١٢٠٦

ط — ومن المميزات الفنية في هذا القرن نشأة الطراز المغربي الاندلسي الذي ينسب في بعض الاحيان الى قصر الحمراء والذي يمتاز بوفرة زخارفه كما يتجلى في هذا القصر . واتقن المصريون صناعة الحفر الدقيق في الخشب وصناعة التحف المعدنية المفرغة بالفضة والذهب على النحو الذي ازدهر على يد الساجقة في بلاد الجزيرة ولا سيما الموصل. وظهرت في نهاية هذا القرن صناعة الزجاج المموه بالمينا في سورية ومصر ومن أبدع منتجاتها مشكاوات المساجد التي تفخر دار الآثار العربية بحيازة عدد كبير منها

القرن الرابع عشر

ا — في الاندلس كان بنو نصر يحكمون غرناطة

ب — كان شمالي افريقيا مقسماً بين دولة بني حفص ودولة بني زيان ودولة بني مرين

ج — كانت دولة المماليك البحرية تحكم مصر وسورية حتى سنة ١٣٩٠ وظهرت دولة المماليك البرجية او الشراكسة سنة ١٣٨٢

د — سقطت الدولة الارتقية في ديار بكر سنة ١٣١٢

ه — قامت في آسيا الصغرى سنة ١٣٩٩ وفي بداية القرن الرابع عشر دولة آل عثمان وعبر هؤلاء الاتراك الدردنيل سنة ١٣٥٣ وبدأوا فتح الاقاليم البيزنطية في أوربا حتى خضع لهم في القرن الرابع عشر جزء كبير من شبه جزيرة البلقان

و — كان المغول يحكمون في ايران

ز — بدأ حكم التيموريين في بلاد وراء النهر وامتد الى ايران وخضع لهم جزء من الهند في نهاية القرن

ح — ازدهرت التجارة والفنون الفرعية على يد المماليك في مصر كما أينع فن تصوير المخطوطات برعاية التيموريين في هراة وشيراز وتقدمت في ايران صناعة بلاطات القاشاني والفسيفساء من الخزف

القرن الخامس عشر

ا — كان بنو نصر يحكمون في غرناطة حتى سقطت في يد المسيحيين وانتهى سلطان المسلمين في اسبانيا سنة ١٤٩٢ وهي نفس السنة التي كشفت فيها اميركا

ب — كان بنو حفص يحكمون في تونس وبنو مرين في مراكش والجزائر

ج — كانت دولة المماليك البرجية تحكم في مصر وسورية

د — اتسعت فتوحات الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والبلقان وأفلح العثمانيون في الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فزال أثر الدولة البيزنطية وأصبح البلقان كله من املاك الترك

ه — حكم المغول في ايران ثم خلفتهم الدولة التيمورية

و — قامت في بعض اجزاء الهند أسرات اسلامية محلية

ز — ظل حكم التيموريين في بلاد ما وراء النهر بعد ان غزا تيمور الاقاليم المختلفة في الشرق الادنى وأخضع سورية واستولى على دمشق سنة ١٤٠١

ح — بلغ فن التصوير أوج عظمته في نهاية هذا القرن على يد بهزاد في ايران كما تقدمت صناعة الخزف في مصر وايران وأتقن المصريون صناعة الزجاج المموه بالمينا وانتقل الى البندقية فانون من المسلمين فنقل عنهم الفنانون البنادقة كثيراً من الاساليب الفنية في زخرفة التحف المعدنية والزجاجية وفي صناعة التجليد

القرن السادس عشر

ا — انتهى حكم المماليك في مصر وسورية سنة ١٥١٧ وأصبحت البلاد ولاية عثمانية

ب — أخضع العثمانيون الجزائر وتونس وطرابلس بعد ان كان السلطان في أغلب انحائها للفراصنة

ج — كان شمالي الجزيرة وما يجاوره من الولايات الواقعة في ايران وآسيا الصغرى خاضعاً لاسرات صغيرة من خلفاء السلاجقة

د — اتسعت فتوحات الدولة العثمانية فهزم السلطان سليم الفرس وضمّ كردستان وديار بكر لدولته وكذلك استولى على سورية ومصر وبلاد العرب من الممالك ووصل سليمان القانوني الى فينا

ه — قامت الاسرة الصفوية في ايران سنة ١٥٠٢

و — سقطت الاسرة التيمورية في بلاد ما وراء النهر سنة ١٥٠٠

ز — بدأت امبراطورية المغول في الهند سنة ١٥٢٦

ح — ازدهرت الفنون عامة والتصوير خاصة على يد الصفويين في إيران (الشاه عباس الاكبر ١٥٨٨ — ١٦٢١) وقد عمل في بلاطهم بهزاد في بداية القرن (حين نبغ في ايطاليا ليوناردو دافنشي وميشيل انجلو ورفائيل) وبلغت صناعة السجاد أوج عظمتها كما أبدع الطراز العثماني في الفن الاسلامي وذاع صيت العثمانيين بما كانوا ينتجونهُ من منسوجات حريرية وسجاد ومن خزف في أسنيك وكوتاهية وغيرها وبما شيده المهندس سنان من مساجد غاية في العظمة والجمال — كما ازدهر الطراز الهندي في الفن الاسلامي على يد قياصرة المغول في الهند وذاع صيت المآثر الهندية وما كان ينتجهُ الفنانون الهنود من سجاد وصور وأسلحة

القرن السابع عشر

أ — كانت مصر وسورية وشمالي افريقية وآسيا الصغرى تابعة للدولة العثمانية

ب — كانت الدولة الصفوية تحكم في ايران وجزء من العراق

ج — امراء خيوه وبخارى يحكمون في تركستان الغربية

د — كان قياصرة المغول يحكمون في الهند وبلغ سلطانهم أوج عظمته على يد أورنجزيب (١٦٥٨ — ١٧٠٧)

ه — بدأت الفنون الاسلامية في الضعف والتدهور متأثرة بالاساليب الغربية التي تسرّبت اليها في القسطنطينية وفي ايران والهند ومن أجل المآثر الاسلامية في هذا القرن تاج محل بمدينة اجرا في الهند

دار الآثار العربية زكي محمد حسن

الميكانيكا

الكلاسيكية

للدكتور اسماعيل احمد أدهم

١ — تمهيد

ان تدقيق العلم يوصلنا الى أن صفة التحليل النهائي لظاهرات الكون كانت ميكانيكية منذ نشأة العلم الى اواخر القرن التاسع عشر ، يزيدنا يقيناً في هذا ، أننا لو أخذنا على عاتقنا أن ندرس كل ما أخرجته المعرفة البشرية — في هذه الفترة — من نظريات وفرضيات مصبوبة في قالب العلم — لألفيناها في جوهرها القصي ذات صبغة ميكانيكية دفعت لتصور حادثات الكون في عالمي الزمان والمكان ذات نهج آلي خاضعة لنواميس وسنن مادية. ونحن لو أردنا أن نلمس بدء هذه النظرة في التاريخ، فسنضطر الى الرجوع بالزمان الى الوراء أربعة قرون فنلفي أنفسنا في أواسط القرن السادس عشر حين تمخض العقل الانساني عن أعظم انقلاب شمله في أساليب التفكير

لقد كان الانسان منذ عهد سقراط الحكيم (٤٦٩ — ٣٩٩ ق م) يرى غاية التفكير في إدراك الماهية ، وذلك بمعنى تكوين معاني تامة الحد . وكان سبيل التفكير طوال هذه العهود منحصراً في الاستقراء حيث يتدرج العقل من الجزئيات الى الماهية المشتركة بينها ، رائداً كل جدل إلى الحدّ والماهية . وهذا المنهج في التفكير دفع الانسان من مقولة الكم حيث وقف بالفكر الانساني عندها بالفيثاغوريين الى مقولة الكيف وكان نتيجة هذا المنهج في التفكير أن ظهرت فلسفة المعاني التي ابتدعها أفلاطون الالهي (٤٢٧ — ٣٤٧ ق م) وأرسطوطاليس المعلم الاول (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) والتي ملكت ناصية العقل البشري طوال القرون الوسطى وكانت سبباً لانصرافه الى الغيبيات . وفي أوائل القرن السادس عشر أخذت جماعات قليلة من المفكرين الغربيين تشك في قدرة الأسلوب التجريدي وإمكان الوصول به الى نتائج تطبيقية وأخذوا يعولون على ادماج النتائج التي تسفر عنها التجارب والمشاهدات في نظام مادي تربطه مبادىء وقوانين عامة ، ذلك بعد أن شعروا بمقدار ما في أساليب القدماء من البعد عن الواقع المحسوس وكان مبعث تفكيرهم الايمان بتجانس عالم الطبيعة ووحدته

وقد ساق هذا الاعتقاد هؤلاء المفكرين الى تعميم النتيجة المستخلصة من ظاهرة معينة بما تماثلها

من ظاهرات وهذا الأسلوب تمخض عن اكتشاف قوانين عامة للطبيعة . ولقد نجحت هذه النظرة يوم أخرج جوهان كپلر (١٥٧١ — ١٦٣٠ م) للناس حركة السيارات ، ويوم كشف السر اسحق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧م) قانون الجاذبية العامة . ولقد بلغ هذا النجاح غايته على يد پيير سيمون مركيز دي لابلاس (١٧٤٩—١٨٢٧م) عندما أخرج للناس كتابه « نظام العالم » وفيه أقام بناء الكون على أساس مادي . ولقد قومت اكتشاف غاليليو غاليليه (١٥٦٤ — ١٦٤٢م) لسنة التصور الذاتي واكتشاف السر اسحاق نيوتن لقوانين الميكانيكا الثلاثة التي بنى كتابه الخالد « المبادىء » هذه النظرة الميكانيكية للكون . وكان ذلك كله مقدمات لعمل فاصل بين دورتين في تاريخ الفكر الانساني ، وأصبح العالم كله لا يخرج في كنهه عن كونه مجرد حادثات تنظم من حدوثها تفاعلات المادة والقوة

ولما كانت فكرة القوانين الطبيعية لم تخرج في أبسط صورها عن انها تعميم للنسبة التقديرية الرياضية المستخلصة من ظاهرة من الظاهرات على غيرها ، ولما كانت ابسط اختباراتنا التي نرجع اليها الموجودات ترجع لحادثات ، كانت النسبة التقديرية الرياضية للقانون الطبيعي للحادثة عبارة عن تعيين سلوك الحادثة ونهج تصرفها ، وهذا يتطلب تعيين مكانها وزمانها ازاء المقادير الاخرى . ومن جانب آخر نحن نعرف ان النظر الكلاسيكي للزمان والمكان يقرر مطلقية كل منهما لكونهما واجبين لموضوع الحادثة بدون ان تصل حساباً لعلاقة الحادثة بالمشاهد من حيث تراءى له ولآلاته ومقاييسه الذي يعين بها زمان الحادثة ومكانها ، فكل تبدل يطرأ على الراصد او المشاهد ولآلاته ومقاييسه الذي يعين بها زمان الحادثة ومكانها لا تغير من نتيجة الرصد لانها راجعة للحادثة لاعلاقة لها بالمشاهد ولا آلاته ومقاييسه من حيث يرتبط به موضوع الحادثة

هذه هي قرارة النظر الكلاسيكي للحادثات فهي تلقي دائماً في روعنا ان عالم الطبيعة الزاخر بالحادثات — والذي ينظم من حدوثها تواصل الزمان والمكان ، اشياء ثابتة لا تتغير ولا تتحول ، فلو شبهنا ساحل نهر بالمكان وجريانه بالزمان والزورق الحامل للركاب والذي يدفعهُ تيار النهر بالحادثات ، لكان في وسعنا القول بأن الزمان اشبه بانسياب الدافق الذي يدفع الحادثات والمكان كالساحل ازاءه . ومن البدهي انه اذا لم يكن الزورق فالنهر جار ، كذلك اذا لم تكن الحادثات فان الزمان في حركة انسيابية ، والاجسام الباقية على الشاطىء ساكنة في أماكنها . ومعرفة حركة الزورق في النهر يستلزم مبدئياً تحديد بعدها عن الساحل مع تحديد قوة جريان النهر وهذا معناه أنهُ لتعيين حادثة في الكون لا بد لذلك من معرفة فاصلتها المكانية وكذا الزمانية . هذه الصورة تجيز لنا في عقل السر اسحاق نيوتن وجميع علماء الميزيقا النظرية حتى اواخر القرن التاسع عشر وهذه الفكرة تجري سيالاً مطلقية الزمان والمكان ، وتجعل انتشار الحوادث في العالم مطلقاً وانتشار حادثتين مطلقتين في الكون يذهب بنا عن طريق مفهوم الاقتران الى التطابق في الزمان

أعني التوافق. فلو فرضنا ان حادثة ما طابقت في زمان حدوثها ، زمان حدوث حادثة أخرى فذلك يحدث مطلقاً في العالم، ومدى المدة والمسافة الفاصلة بين حادثتين مطلق لانهُ يرجع لموضوع الحادثتين

وتقوم فكرة مطلقية الحوادث في عالمي الزمان والمكان بمفهوم التشبع الاجسام الصلبة في رحاب الخلاء ، فالاشكال والخطوط الهندسية ليست الا وحدات ثابتة . وشكل جسم ما هو مجموعة الاوضاع الفراغية التي تستقر فيها النقط التي تشكل ذلك الجسم ، وعليه يمكننا ان نقول ان أساس العلم الكلاسيكي قائم على الرجوع مباشرة للحادثات بدون النظر لحركة الاكوان التي تشملها ، وبذا تكون الهندسة الكلاسيكية مستمدة مفهوماتها الاولية من تساوي انفراصل المكانية

وعلى هذا الاساس يبدو لنا ان أشكال الهندسة مطلقة، وان هذا الاطلاق يكون معنا موضوع الهندسة الكلاسيكية القائمة على مبدأ مطلقية المكان ، وبذا تتحقق النظرة الاقليدية التي تولد معنا قوانين العلاقات بين مبدإ السببية ومبدإ الزمان المطلق

٢ — المبادىء الكلاسيكية في علمي الميكانيكا والسيناماتيكا

لا يخرج مفهوم الزمان الكلاسيكي عن كونه مجرد ملاحظة فلسفية . وهو لا يعدو اعتبار الزمان حالة شعورية مطلقة مبهمة غامضة، فلكي يتخلص مفهوم الزمان من ابهامها وغموضها يجب ان يأخذ صورة رياضية تقديرية ، ولما كان العلم الكلاسيكي يضاف تحت حقائق التجربة الى تصوير زمانين ، موضوعي وذاتي ، الاول في عالم الحادثات وهو نسبي، والثاني في عالم النفس وهو مطلق ، وهذا الانتظار الحادث في مفهوم الزمان كان احدى نقط الضعف في النظرة الكلاسيكية ، غير انهُ كان يتغلب على ذلك بواسطة علم الحركيات — السيناماتيكا — القائم على مفهوم الزمان الموضوعي الذي هو صورة تقديرية للزمان الذاتي . ويقوم هذا العلم على أساس يستمده من ادماج مبدإ الزمان في الهندسة الكلاسيكية المستمدة الى مفهوم انتشار الاجسام الصلبة ، اذ هو يدقق النظر في الاجسام بالنسبة للزمان والمكان . فهو في نزعته حلقة الوصل بين الهندسة والفيزيقا ، فالنقطة المادية المتحركة حلقة وصل النقطة الهندسية بالذرة

ولما كان مفهوم كل من الزمان والمكان مستقلا ومطلقاً في نظر علم الحركات وغير تغير الاجسام لمواضعها في المكان يستفاد منهُ بتقدير الزمان . غير ان هذا لا يدل على ان الزمان يتبع المكان في اي حالة من الحالات ، لانهُ ان كانت قيمة الزمان النسبية تتبع تغير الاجسام لمواضعها خلال المكان، فمفهوم الزمان مستقل لانهُ مطلق لا يتبع حركة القياس ، مثال ذلك حركة الرقاص فانا نتخذها أساساً لقياس الزمان الا ان حركة الرقاص غير الزمان ، وهي ان كانت توحي بفكرة الزمن التقديرية الا انها تعجز عن مدنا بمفهوم الزمن المطلق وانه يمكننا

ان نقول ان فكرة الزمن التقديرية لا المطلقة هي موضوع علم الحركات ، الذي يستوجب قبل كل شيء تعيين حركة النقطة المادية ، وهذا يستلزم معرفة نسبة النقطة المادية أولاً في النظام الذي يحتويها وهذه الحالة شبيهة بحالة تعيين محاور الفصل والوصل أعني الكميات التي تحدد من وضع نقطة ما coördinates في الهندسة التحليلية ، والنتائج التي أسفر عنها التجارب في تعاقب حركات النقطة تكوّن معنا معادلات الحركة

تتقوّم حركة الاجسام ومعادلات الحركة بقوانين الميكانيكا الكلاسيكية التي نشأت بجهود غاليليو ونيوتن وانصبت في مبدأ عام هو مبدأ النسبية الكلاسيكية ، وهذه القوانين تردّ الى أخمسة مبادىء :

الأول : مبدأ غاليليو أو قانون التصور الذاتي (الاستمرار) وهو يقرر ان في الاجسام استعداداً للمحافظة على حالتها الطبيعية ، فاذا كانت ساكنة فانها تظل ساكنة ما لم يؤثر فيها مؤثر يخرجها للحركة . وان كانت متحركة فانها تظل متحركة حركة منتظمة مستقيمة ما لم يطرأ عليها طارىء يغير من انتظام حركتها او اتجاهها . فاذا أثرت قوة في جسم اكتسب ذلك الجسم عجلة ، وقانون التعجيل يعرف بالمبدأ الثاني من مبادىء الميكانيكا

الثاني : مبدأ نيوتن الأول او قانون التعجيل : وهو يقرر ان مقدار التعجيل الذي يكتسبه الجسم تحت تأثير قوة تجوز نفس الاستقامة مع محصلة القوى المؤثرة في ذلك الجسم ، وهي تساوي نتيجة خارج قسمة المحصلة على كتلة الجسم ، فكأن العجلة التي يكتسبها الجسم تحت تأثير القوة تولد الكتلة . وكتلة جزيء من المادة تحسب بمقدار خطوط القوة التي فيها . وهذا المقدار ثابت لا يتغير . والقوة ليست الا النسبة بين الكتلة وبين مقدار عجلتها أعني الشعاع المساوي للكتلة ومعادلها : القوة تساوي الكتلة في العجلة . وهي تريك جميع النسب والعلاقات الممكنة بين الكتلة والعجلة والقوة في شكلها الشعاعي المستقل عن نسبتها المحاور الوضعية . ولما كانت القوى التي تؤثر في نقطة مادية نتيجة لتأثير نقط مادية أخرى ، فهذا التأثير يقع من جهة الوضع النسبي لهذه النقط . ومن جهة أخرى السرعة النسبية لهاتيه النقط المادية . ومن هنا لنا ان نخلص بقانون الحركة النسبية الذي يقرر ان النظم المادية سيان كانت ثابتة بالنسبة لمحاورها الوضعية أم كانت متحركة حركة منتظمة مستقيمة ، فان القوانين التي تتبعها واحدة . ذلك لان مقدار تعجيل هذه النظم يتبع النسبة المطلقة لحركة هذه النظم ومعنى هذا في لغة رياضية ان النسبة التفاضلية بين هذه السرع تتبع القيم التفاضلية بين المحاور الوضعية . ومعنى هذا أن هذا المبدأ يشمل ساحة مقدار التعجيل النسبي أو بتعبير أصح ساحة القيم التفاضلية بين مقادير التعجيل فانهُ من الممكن اشتمالهُ على ساحة مبدأ ردّ الفعل

الثالث : مبدأ نيوتن الثاني أو قانون مساواة ردّ الفعل للفعل وبيانه أننا لو أتينا بجسم

ووضعناه على حامل فهذا الوضع لا يمنع تأثير المؤثرات فيه ومنها الجاذبية ، إذ تجذبهُ الارض بقوة تساوي زنته على الحامل ، فاذا لم يكن الحامل متيناً تكسر بتأثير قوة الجذب . والجسم المحمول على الحامل يتولد فيه قوة من فوق الى تحت تساوي زنته وهذه القوة التي تتولد هي الفعل لقوة الجذب . فلو كان الجسم على يد انسان فلكي يمنعهُ من السقوط يجب أن يدفعهُ من تحت الى فوق ليتغلب على قوة جذب الارض له وأعني القوة الدافعة من فوق الى تحت، وللتغلب على هذه القوة يجب أن يدفعهُ على الاقل بقوة موازية لقوة الجذب . وهذا الدفع يتولد دائماً في وضع الجسم على أي حامل فلو فرض انهُ علق بخيط شدود لحامل ؛ فالخيط يتوتر ويكون شدة توتره مساوياً لزنته ، وفي هذه الحالة ينتج أن يدفع الخيط الجسم بقوة تساوي توتره أعني وزن الجسم . وهكذا يكون ردّ الفعل مساوياً لوزن الجسم أعني الفعل . هذه القاعدة عامة ففي حالة اذا لم تحدث القوى المؤثرة حركة في جسم تولد عن ذلك قوة مساوية له وتكون هذه القوة في اتجاه مضاد وهذا ما يعرف بردّ الفعل

واشتمال مبدأ الحركة النسبية على ساحة ردّ الفعل تعود لصحة شموله لساحة القيم التفاضلية بين مقادير التعجيل . ولما كانت مقادير التعجيل تتبع مقدار القوى المؤثرة فان هذا يسوقنا الى مبدأ الجاذبية العامة وفرضية القوى المركزية معاً وهي التي تقرر ان قوة الجاذبية بين جسمين تتناسب مع كتلتيهما حيث ان الاجسام تتجاذب بعضها لبعض بقوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما مقسوماً على مربع المسافة بينهما ، وهو الشيء الذي يعرف بقانون الجاذبية أو مبدأ نيوتن الثالث

ومن المهم ان نلاحظ ان المقدار الذي يحسب مسافة في قانون الجاذبية ليس تناسبهُ مع الكتلة التي هي النسبة بين القوة ومقدار التعجيل انما مع الكتلة الجاذبة وبتعبير أدق ليس مع مقدار تصور ذاتية الجسم انما مع مقدار قابلية الجذب لانهُ يصح ان تكون الجاذبية متناسبة مع عكس مربع المسافة ولا تكون متناسبة مع بسط حاصل ضرب الكتلة . وهذه النظرة تسوقنا الى فرضية القوى المركزية التي تعتبر قوى الدفع والجذب بين الجزيئات المادية راجعة لاعتبار القوى توجه مع استقامة الخط المستقيم الواصل بين الجزيئات المادية وتتحول منحصرة في المسافة التي بينها . وهذه الفرضية ان لم يكن قانونها عين قانون الجاذبية النيوتونية فهي على كل حال مشابهة لها

وتركب السرع في هذه الساحة الخاضعة لقانون عام فرضية القوى المركزية تعود لمبدأ تركيب السرع الذي يرى من وجهة نظره ان محصلة السرع المركبة ترجع لطريقة التحصيل من قاعدة متوازي أضلاع القوى التي تجعل المحصلة مساوية لمجموع المركبتين لها اذا كانت الحركتين على استقامة واتجاه واحد ، فاذا اختلف الاتجاه دون الاستقامة كانت المحصلة مساوية الفرق بين المركبتين . وهذا المبدأ يعتبر المبدأ الخامس من قوانين الميكانيكا الكلاسيكية

وهذه القوانين الخمسة تنصب في مبدأ عام هو : مبدأ النسبية الكلاسيكية [لها تتمة]

الكيمياء الصناعية

الكيمائيون العصريون
وكيف ينتجون النضار من الفضلات

لعوض مترى

كان مطمح كيمائيي العصور الوسطى ، تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب ، متذرعين الى بغيتهم تلك بما كانوا يسمونهُ « حجر الفلاسفة » وهو السرُّ الدفين الذي لم يكونوا يبوحون به لاحد ، اذ كان اولئك المجربون الاولون يركبون مواد ذات روائح كريهة ثم يطبخونها على درجات مختلفة من الحرارة حتى أن يظفروا بتحقيق تلك الاحلام العقيمة ، التي كانوا يظنونها تدرُّ عليهم النضار . فكانت مساعيهم تذهب أدراج الرياح

اما الآن فاننا نشاهد العلماء مرتدين ميدعاتهم [1] الكتانية البيضاء في معامل التحاليل الكيميائية حيث يستعملون الماء الجميذة [2] وريش الطيور وبذور نبات عباد الشمس والحيّة الخالية من الملح والهلام وقصاصات الشعر التي يبذلها الحلاقون من حوانيتهم ، وذلك لانتاج بلُّورات تساوي ضعفي وزنها ذهباً . وتعرف تلك البلُّورات الدقيقة التي تضارع الجواهر باحماض الاميتو Amino acids [3] وهي غالية جداً بحيث يبلغ ثمن الرطل الواحد من بعض اصنافها الف ريال

واذا تأملت تلك الاحماض بمبنك المجرَّدة تجلت لك شبيهة باملاح الحمام العديمة اللون أو مثل مسحوق الطلق الابيض . واذا فحصتها بالمجهر ، استطعت رؤية بلُّوراتها الرائعة

ومن المحال القليلة في الولايات المتحدة الاميركية التي يتاح لك ان تبتاع منها احماض الاميتو قسم الكيميو بجامعة كلمبورنيا في لوس انجليس حيث يقوم الدكتور مكس ڤن Dr. Max Dunn احد مخترة الكيمياء في القرن العشرين ، بالاشراف على صنع هاتيك الاحماض لتباع للجامعات والمستشفيات والمختبرات في آفاق المسكونة كافة . واحماض الاميتو من المواد الكيميائية النادرة التي قلما توجد خالصة . ولم يكتشف العلماء منها الاَّ ٢٢ صنفاً قسموها باسماء مختلفة وهي

---

(١) البدع والميدعة والبداعة ما يصنع به الثوب ونحوه (٢) الجسد الدم اليابس كالجامد والجليد
(٣) وقد اشرنا الى هذه الاحماض وذلك في مقالنا عن (البيئة الصينية ومناهجها الغذائية) في مقتطف يونيه سنة ١٩٣٨

تؤلف البروتين الذي هو من اعظم عناصر الكائنات الحية . وتكون على شكل خيوط طويلة كأنها خيوط الجواهر . وقد تسمح الطبيب النطاسي بنصح للسيدات الشابات السمينات باجتناب المواد الدهنية والكربوهيدراتية في غذائهن ، ويبيح لهن الافراط في الاغذية البروتينية ، فيصف لهن الخبز واللحم والبيض والخضراوات الخضة والفواكه

ولما كان البروتين يؤلف جزءاً جوهرياً من غذائنا ، صار من الطبيعي أن يتحول ويشغل حيزاً خطيراً من اجسامنا . فاذا نظرت الى بدنك كلها . فكل ما تستطيع رؤيته فيه — هو البروتين ، ممثلاً في جلدها وظفارها وشعرها لان جل تركيبنا العضلي البشري ، من البروتين

وبلغ من تعقد التركيب الكيميائي للبروتين : ان تجز العلماء جميعاً عن تركيب صنف منه ، بيد أنهم قد تمكنوا من تحليله فتبين لهم انه يؤلف من احماض الامينو المختلفة

وكان أول مجهود بذله الدكتور ضن نفسه لشراء احماض الامينو من مخازن العقاقير الطبية التجارية عقباً ، إذ لم يكن يباع فيها من اصنافه الاثنين والعشرين الا بعضها وذلك للمباحث العلمية ، وكانت أسعاره باهظة ، وقد بلغت ثمن البلاتين تقريباً . ولذلك توفر الدكتور ضن على صناعة أحماض الامينو ليتسنى له ادراك المعلومات الثمينة جداً الخاصة بمزاياها الطبيعية وتركيبها وقابليتها للذوبان فشرع في تأسيس المصانع المعروفة الآن باسم مصانع احماض الامينو

فكان مشروعه هذا من المشروعات الدالة على الجرأة ، غير الرابحة ، من مشروعات جامعة كليفورنيا التي افتتحت أعمالها التجارية من سنة ١٩٣٥ اذ جعلت تصنع هاتيك الاحماض واحداً فواحداً ودونت أسماءها في قوائم بعثت بها الى الجامعات و لمستوصفات والمعامل الكيميائية في العالم قاطبة ، فجاءتها الطلبات تترى

وأصبح الآن ستة عشر نوعاً من احماض الامينو الاثنين والعشرين ، معروضة للبيع مع ان مشروع البيع قائم على اساس اجتناب الربح . وبلغ من ضخامة انتاج بعض تلك الانواع ان الرطل منها يباع بأكثر من الف ريال ، بينما يتراوح ثمن الرطل من بعضها الآخر ، بين خمسة ريالات و ٨٠٠ ريال . وبعض أنواع احماض الامينو تصنع مباشرة من العناصر الكيميائية وذلك بطرق التركيب الصناعي . وغيرها يستخلص من النباتات الخ . انات والنباتات

أما الطريقة التي تصنع بها تلك البروتينات الجديرة بالذكر . وذلك بحسب صنف حمض الامينو المطلوب ، اذ يؤخذ الدم الجديد والخبن الخالي من الملح وبقور عشاء الشمس والحنطة والحلام وفصاصات الشعر ، فتوضع في وعاء كبير حيث تمزج بحمض الكبريتيك المركز او بحامض الهيدروكلوريك المركز أيضاً ثم تغلى أربعاً وعشرين ساعة او اكثر وتضاف اليها مواد كيميائية أخرى ثم تستخرج بالتبخير والتنظيف وذلك مع مراعاة تحاوي الزيادة والضبط إذ تستخرج

منها مواد غزيرة حتى تصير البقايا مثل مسحوق ناعم او بلورات دقيقة ، وهذه هي أحماض الأمينو فتحلل تحليلاً كيميائياً متقناً ثم توضع في الفواريز وتلصق عليها بطاقاتها

وقال الدكتور ض انهُ قد استجدت لاستخلاص احماض الأمينو طرق اخرى ، ولاسيما مرة في تاريخ الكيمياء استحالت تلك الاحماض ، بلورات شفافة رائعة كأنها الجواهر الفريدة والبلور في عرف العلماء دليل على منتهى النقاوة . وهذا أمر جدُّ خطير عند العالم الباحث .

واحماض الأمينو نافعة جدًّا للناس بوسائل شتى بحيث اذ حرم منها امرؤ حرمانًا تامًّا ، وهي في منزلة بروتينات ، هلك . اذ لا بدَّ للانسان من الاعتماد على النباتات أو على الحيوانات الآكلة النباتات التي تتغذى بتلك الاحماض . والنباتات هي الكائنات الحية الوحيدة في الكون التي تستطيع امتصاص الاملاح الكيميائية من التربة . وبواسطة الطاقة الشمسية تتمكن النباتات من ضم تلك الاملاح الى الحامض الكربونيك والماء لتوليد البروتينات

ومتى أكلت لحمًا او اسفاناخًا ، قامت الوسائل الهاضمة التي في معدتك ، من فورها ، بالعمل في البروتينات اذ تجزئها الى أحماض الامينو ، وتولى مجرى الدم توزيعها على أعضاء جسمك جميعها حيث تستعمل موادَّ أولية لاعادة تكوين النسج التي بليت من الشغل والرياضة

وتساعد أحماض الأمينو أيضاً على تنظيم وظائف الجسم ، فتؤثر في حجمه وسرعة نموه ومقدار الشحم الذي يدخره وكذلك في لون العين والشعر . وقد تؤثر أيضاً في شخصية المرء

وقدَّر الخبيرون ان ملَّيجراماً من أحماض الامينو المروفة باسم تيروكسين ، المودعة في الغدَّة الدرقية يتوقف عليه احدى الحالات الثلاث وهي السعادة الطبيعية والحياة والهنات واللاهة

ومن أحماض الامينو ضرب يعرف باسم الحمض الجلوماتيك [1] glutamic acid يصنع ويباع كتوابل للطعام وهو ذو طعم مدهش يشبه طعم اللحوم الطبية

ومنهُ صنف آخر يعرف باسم سيستين [2] cystine ويتوافر في الشعر البشري . ويوقن بعض العلماء ان التجارب الدائرة في أحماض الامينو ستحل معضلة الصلع

ومن أحماض الامينو أيضاً ما يسمى جليسين [3] glycine وقد تبين نفعهُ في علاج الامراض العقلية وآخر يسمى فينيلين phenaline يستعمل في علاج القرح المعدية المستعصية

ويتوسل علماء جامعة كليفورنيا بأحماض الامينو الى حل معضلة السرطان

---

(١) عرضت هذا الاسم على صديقك الاستاذ نقولا حداد الصيدلي الكيميائي والكاتب العلمي المشهور المعروف لقراء المقتطف مستوضحاً اياه عما يعلمه بشأنه فقرر ان هذه التسمية حديثة وقد تكون مركبة تركيباً يدل على حمض ثنائي دلك الحامض ويظهر ان اكتشف الدكتور ض قد حدث هذا الاسم من الفادة البروتينية التي تستخرج الحامض منها وقد اطلع الاستاذ حداد ايضاً على البحث الكيميائي الخاص بهذا فاتضح له بعض نقطة الحامضة (٢) السيستين — مادة توجد في البول — معجم تيرف (٣) الجليسين — ويسمى ايضاً سكر جلاتين — معجم تيرف

الرسام

حسين بدوي

عرض وتحليل

لمحمد فهمي

أتيح لي ان اكون في « باريس » في شهر اغسطس من هذا العام (١٩٣٨) حين افتتح الفنان «حسين بدوي» معرض رسومه بالمكتب المصري للسياحة بالشانزليزيه تحت رعاية معالي فخري باشا وزير مصر المفوض والمسيو بيتري رئيس جماعة «فرنسا — مصر» فأمكنني ان اشاهد عن كثب تقدير رجال الفنون وكبار المثقفين للفن من فرنسيين وأجانب لرسوم هذا الفنان وطابعه المتميز بقوة الشخصية وعمق الفكرة وما له من قدرة على توزيع اللون وتحليله الى درجات متعددة لكل درجة تعبيرها الخاص وكأنما يخاطب روحك بلغة من الالوان معبراً عن فكرة منتزعة من اعماق نفسه لا تلبث ان تحسها تتغلغل في اطواء نفسك وإذا بك امام لوحاته تحس وترى وتسمع ! واذا بالذي امامك ليس بمعرض رسوم بل معرض حياة !

يرتكز فن بدوي على دعائم ثلاث : الفكرة . طريقة التعبير . اللون . كل منها تشعرك بوجودها في قوة ووضوح كأنما حاول اجتذابك اليها خاصة ولكنها جميعاً تحقق «الكل» المتسق في انسجام تام

﴿ الفكرة ﴾ — فالفكرة هي الاساس الذي تحكم به على مدى عمق الفنان واتساع رحاب روحه ، ومقدار ثروته من الاحساس التي وقدرته على التعبير . فالموضوع الذي يعرض له حتى يحقق منذ بدايته حافلاً بجميع خصائص العالم الخفي من ظواهر وامرار !

وان الفكرة لتثبت اعماق [illegible] حتى تملأ جانب [illegible] وكلها فتخرج للوجود وقد حملت كل ما في نفسه من خصائص [illegible] خصبة وعمق واتساع !

وهنا يحق لنا ان نقف قليلاً ثم نطوي السنين القهقرى ربع قرن او يزيد لنخلص الى طفولة بدوي ونشأته حيث تتأصل خصائص المحيط الذي في جوه تبعث « الفكرة » اولى ما تبعث في شكلها البدائي وهي في طريقها الى الكمال الانساني ! الخالق . فتتجه هذه الملاشعور حيث استقرت في أعماقه الخصائص الوراثية وانضمت في حناياه صور البيئة . فتثبت الفكريت التي اثمرت فيه بل حيث مصدر جميع الانفعالات والمشاعر الفائضة التي يعانيها الفنان « في

عقده الباطن » فيحاول الافصاح عنها بأسلوبه الخاص وطريقته في التعبير وبلغة حيث المادة الخام التي يصوغ بها الفنان فنه !

فبدوي نشأ نشأة مصرية بحتة في ريف مصر وبين حقولها الخضراء الباسمة دائماً ونشأ والصفاء الواجمة في الصيف ثم تغذى بتاريخ مصر منذ عهد الفراعين ولمس بروحه روح الفن الفرعوني ووعى جمال الفن الاسلامي ثم هو بحكم نشأته العائلية مؤمن عميق الايمان فيه طهارة المؤمن وصفاء قلبه ونقاءه ثم تمثل تقاليد هذا الشعب الموروثة وحياته الحافلة بالآلام والمسرات والاحلام

هذه الخصائص متغلغلة في اعماق نفس بدوي مضافاً اليها مزاجه الخاص وطابعه المتفرد بالغموض الذي كثيراً ما يشير الى مجاهل وفجوات في اعماق روحه لا يفذ اليها النور تموج بالانفعالات الغامضة والاشباح والاطياف ! فمن هذه جميعاً تمتزجة متفاعلة تتكون طبيعة الفكر عند بدوي الفنان ! وهي اذ رمزية وإما مثيولوجية وإما تصويرية

ففي بعض لوحاته يطوح بك في تيه لا حدود له فيقودك الى مجاهل التاريخ حيث الانسان في حالته البدائية وقد صوره في لوحة « رقصة الكهف » وهو في حالة من النشوة الوحشية (Primitive) ينقر على آلات دف ساذج مستقيم الاضلاع (اذ لم يكن قد توصل الانسان بعد الى الدف المستدير !) ورفيقته تشاركه نشوته وهما يرقصان امام باب كهفها المظلم الرهيب وكأن الاثنين اشباح تدور في ظلام الدهور ! . وتارة يدخل بك الى هياكل الفراعنة كلوحتيه « السائل المقدس » و « حارسة المقبرة » فتستشعر تلك الروعة الرهيبة التي خلعها الفراعين على معابدهم ومقابرهم وهي المنبثقة من اعماق روح مصر المفعمة بالقداسة وجلال الايمان . فترى في اللوحة الاولى « السائل المقدس » فتى المعبد في وقار وروعة وهو يصب لفتاة من الشعب السائل المقدس فتتلقاه في إناء بلهفة وخشوع تستشف خلاله لذة ذلك الايمان العجيب !

وأما « حارسة المقبرة » فتبدو في الظلام وقد أنهكها عناء الوقوف فارتكزت برأسها فوق يديها المتشنجتين على قمة عصاها وأسندت ظهرها واحدى رجليها المهيكتين الى احد الاعمدة الضخمة المتينة المقبرة وسط ظلام مخيم . في حد الجو الرهيب يملأ الاعتقاد نفسك ان هناك مقبرة حقاً وان بها ميتاً مدفوناً حقاً وان هذه حارسة مهمتها حقاً !

وانطابع الرمزي المميز يبلغ القمة في لوحته « نهايتها الاخيرة » و « الامومة » والاولى اقتباس فكري بحت . ولوحات بدوي تبين لنا ناحية الغموض في نفسه ونزوعه الى مجاهل التطور في حياة البشرية وارتياد حقب التاريخ وكأن بدوي لا يعبر عن عواطفه ومشاعره المشجرة في محيط عقله الباطن فحسب بل عن مشاعر شعب بأسره بل الانسانية جميعاً ! وهنا يحق لنا ان نقول ان بدوي صاحب مذهب رمزي في الفن وهذا أمر طبيعي في هذه الفترة التي نجتازها من

سلسلة تطورنا الاجتماعي والثقافي وانهُ بعد ان لاحت هذه الظاهرة الرمزية والميثولوجية في انتاجنا الادبي الرفيع من شعر ونثر « أنظر مفرق الطريق لبشر فارس وشهر زاد وأهل الكهف لتوفيق الحكيم وعلى هامش السيرة لطه حسين وشعر بعض شعراء المدرسة الحديثة » نعم كان من الطبيعي حينئذ ان يظهر صاحب هذه الطريقة في الفن ومن يرَ لوحات بدوي يحكم انهُ صاحبها

وبدوي حين يفكر في محاكاة الطبيعة سواء الحية او الصامتة يحاول دائماً ان يتحداها فينفخ فيها من روحه ما يهبها النبض والحياة فترى اللوحة وقد خرجت من بين يديه تحمل من خصائص بدوي ما يزاحم خصائص الاصل الذي تعبر عنهُ وكأن هناك تنافساً بين شخصيتين قويتين : بدوي والطبيعة . ولكنهُ في النهاية لا يخضع الا لنفسه ! فترى طيف رمزيته يلوح على درجات مختلفة من الوضوح والتستر حسب قابلية الموضوع الذي يعرض لهُ . ومن هنا كانت طبيعة بدوي لا تتفق « والبورتريه » أي تصوير الاشخاص وقد أخبرني انهُ لا يميل اليه كثيراً وان كان أحياناً يلجأ اليه ليكسب عليه من روحه وفنه وفي هذه الحالة يبلغ الغاية من الاجادة ومن ذلك لوحة « بنت الحيران » اقتناها سري باشا ولوحة فذة تسمى « عذيلة » أطلقت عليها صالونات القاهرة « الجيوكوندا المصرية » وهي لدى مدام سامي باشا

﴿ طريقة التعبير ﴾ — لعل طريقة التعبير في فن بدوي هي أنسب أسلوب للتعبير عن أفكاره . أو قل ان هذا الاسلوب وليد تلكم الافكار، وبدوي في طريقته هذه لا يتأثر بأي مدرسة من مدارس الفنون أو أية شخصية من رجال الفن فكما ان فكرته وليدة طبعه وخصائص نفسه فكذلك أسلوبه ليس الا نتيجة طبيعية للجو النفساني الذي يحيا فيه بل هو النتيجة الحتمية لانبعاثات روحه وهواجس فؤاده. على انك واجد بينهُ وبين رامبرانت شبهاً غير قليل في ظلاله وعتمه ! فهو إما عابس كالطبيعة الغاضبة وإما كئيب كأحزان الغروب. ويبدو أسلوب بدوي كأنهُ ثوب مفصّل تماماً لأدق المقاييس ملاءمة للفكر وابرازاً لما فيها من جمال وسحر ! كل شيء فيه جديد مبتكر وكل ذرة فيها حية ناطقة ومجموعه المتكلي يتميز بطابع الاستقلال والطرافة وكأنهُ يقول في كل ذرة من أجزائه « أنا شيء جديد » وهذه الظاهرة لاحظها ناقدو الفن الفرنسيين فأشاروا اليها في جرائدهم

فاذا اراد ان يعبر للشمس « الغروب » مثلاً كانت فتاة ريفية تعود حاملة على رأسها أناء كبيراً وهي في ثوبها ومشيتها وحزمات الضوء المتساقطة على اللوحة هنا وهناك باحكام عجيب وقد شمرت الفتاة عن ساقيها تخوض في ارض تنطبها المياه فتكاد تلمس ما تعانيه وهي تنقل خطواتها في جهد واعياء وتحس انتهاء والشوق في اندفاع الفتاة والحركة التي تكاد تهز اللوحة من . كل هذه التعبيرات تملك عليك نفسك فلا تملك الا ان تهتف « حقاً انها العودة ! »

ولبدوي طابع في تعبيره يتناسب ورمزيته فهو لا يبرز لك تفاصيل الاشخاص بدقائقها

واضحة جلية بل على قدر ما تعبر به عن المعاني والانفعالات في الجو الذي يخامرُ على اللوحة كأنما ينقلك من عالم الحس الى عالم التخيُّلات والاسرار فتشارك الفنان في احساسه وشعوره بل كأنك تعيش معه في عالمه

﴿ طريقته المبتكرة ﴾ — توصل بدوي الى ان يخط على لوحة « الاكواريل » الماء المثبت ظلالاً واضواء هي غاية في الاتقان بأسلحة مدية الاسنة فترى الظلال والاضواء تموج امامك في اللوحة وكأنها ظلال من الطبيعة نفسها تبدو مهيبة رائعة !

هذه الطريقة تتطلب صبراً طويلاً واناة ومهارة لا يطيقها الاّ من وهب نفسه للفن ؛ ولاشك ان الكثيرين سيحتذون هذه الطريقة الجديدة والاستعانة بها مع « الترشاة » على رسم الظلال والاضواء على انني اشك في ان احداً يستطيع البلوغ بها مبلغ بدوي من القدرة والاعجاب. وذلك لانها لا تصلح الاّ لفنان له طابع بدوي ذلك الطابع القائم في اغلب لوحاته . فترى الاشخاص والمرئيات تبعث امامك رهبة لانها تبعث من الظلام وتخطو في الظلام توضحها حزمات من الضوء يسقطها الفنان من كوّة روحه البعيدة الاغوار فلا يتجلى الظلام تماماً. ولكن تستطيع ان تتبين ما فيه من اشباح واشخاص. في مثل هذه اللوحات القائمة يمكن استعمال الاسلحة المدية اي طريقة بدوي في كشف الاضواء والاظلال على اللوحة بشرط ان يكون الفنان متمكناً من طريقته حاذقاً لها

﴿ اللون ﴾ هذه السهولة التي تراءت لي في فن بدوي على ان هذه السهولة نتيجة البساطة والاقتصار غالباً على لون واحد . ولكن المهارة والقدرة على تحليل اللون الى درجات عدة تجعلك حائراً امام تلك المجموعة العجيبة المتناسقة من الالوان، وما هي في الواقع الاّ لون واحد تناولتهُ يد بدوي ومقدرته فكان ما تراه

هذه القدرة على تحليل اللون تضفي على لوحاته طابعاً من البساطة والتعقيد معاً ولكنها البساطة الفطرية والتعقيد الفذ ثم هي تهيء له ان يحوّم بأشباحه واشخاصه في عوالمها المجهولة او المعلومة في غير ما جلبة ولا صخب من تطاحن الالوان وتضاربها. وبذلك يستطيع ان يخلق الجو الملائم كل الملاءمة للانفعالات والمشاعر التي يريد التعبير عنها فتنطق بها وجوه اشخاصه

« وكأن كل قسمة من قسمات الوجه تتحدث عما يشتجر في حنايا الصدر وآفاق الفؤاد من احاسيس وعواطف . وقد كنت أود ان أتناول مجموعة من لوحات هذا الفنان بالتحليل والشرح ولكنني جبنت أردت ان أعرض لهذا وجدت ان المجال لا يتسع الآن . وأملي ان يتاح لي تحقيق هذه الرغبة او يتقدم بها غيري ممن تذوقوا فن بدوي ولمسوا روحه في انتاجه الفني وهذه خدمة غير قليلة للفن الجميل

مؤتمر المستشرقين

العشرون

اهم ما تلي فيه من المحاضرات

انعقد مؤتمر المستشرقين العشرون في مدينة بروكسيل عاصمة البلجيك من الخامس الى العاشر من شهر سبتمبر ١٩٣٨ . وكان المؤتمر على تسعة أقسام : مصريات وافريقيات — آشوريات — آسيا الوسطى — الهند — الشرق الاقصى — الشعوب واللغات السامية — العهد القديم ويهوديات — الاسلام — الشرق المسيحي. وقد زادت المحاضرات التي ألقيت على ثلاثمائة واليك أهمها فائدة :

القسم الاول — « هوموروس ومصر » للاستاذ جلبرت (من البلجيك) — « فكرة النقد المالي في مصر الفرعونية » للاستاذ دميل (من فينا) — « ترتيب اللهجات السائرة في السودان الاوسط » للاستاذ لوقاس (من المانيا) — « المكتشفات الاخيرة لحفريات الجامعة المصرية في قرية هرموبوليس » للدكتور سامي جبره (من مصر)

القسم الثاني — « النصوص الأكدية في رأس شمرا » للاستاذ فيرولو (من فرنسا) — « حمورابي بحسب رسائل مطوية » للاستاذ جان (من باريس) — « التقويم الاشوري » للاستاذ ولي (من امريكا الشمالية)

القسم الثالث — « اللغة التركية في بغداد في القرن الحادي عشر للمسيح » للاستاذ عيني (من تركيا) — « في الشعر التركي — الغربي لعهد السلجوقيين » للاستاذ رُسّ (من انجلترا) — « مواد تركية في اللغة الفارسية الحديثة » للاستاذ كوبرولو (من تركيا)

القسم الرابع — « أصل كلمة كلكتّه » للاستاذ شاترجي (من الهند) — « الرقص الهندي التقليدي نظريًّا وعمليًّا » للاستاذ دفي (من انجلترا)

القسم الخامس — « ملاحظات على رحلة ماركو بولو » للاستاذ بليوت (من فرنسا) — « المناقضات الفلسفية بين الدهيتين : اليابانية والصينية » للاستاذ مالك نير (من أميركا الشمالية) — « مصادر جديدة لعلاقات الثقافية الخاصة بالحكم المغولي في الصين » للاستاذ هيتش (من المانيا)

القسم السادس — « في تاريخ فلسطين وشرق الاردن في القرن الثاني قبل المسيح وأصل بني اسرائيل » للاستاذ دي فو (من أورشليم) — « راس شمرا وبنو اسرائيل » للاستاذ جاستر (من انجلترا) — « في التعاقب التاريخي للشعر الجاهلي » للاستاذ جرونبوم (من فينا) — « الالفاظ العربية المعربة في الجزرية في المواجهة اليمانية لهذا الزمن » للاستاذ رسّي (من ايطاليا)

القسم السابع — « الجناس اللفظي في اللغة العربية » للاستاذ سيدن (من مالطة) — « الحديث والتدوين في اقدم تاريخ للاسرائيليين » للاستاذ نوت (من المانيا) — « معنى الفظة الضحايا في الغرامير » — الاستاذ ريش (من انجلترا)

القسم الثامن — « النسمة الاستقبالية لسورة أهل الكهف عند المسلمين » الاستاذ ماسينيون (من فرنسا) . (ذكر المحاضر كيف فسّرت فرق المسلمين سورة أهل الكهف على اهوائهم ومنازعهم نظرة الى ما وقع في الاسلام بعد تدوين القرآن) — « مشروع تيسير قواعد اللغة العربية » و « كتاب الغايات والفصول لابي العلاء المعري » للاستاذ الدكتور طه حسين (من مصر) . (قال المحاضر في الشطر الثاني من محاضرته إن أبا العلاء لم يخرج على التقاليد الاسلامية ولم يرغب في معارضة القرآن وان بين كتاب الغايات والفصول واللزوميات وجوه شبه) — « في نشر كتب علماء الجغرافيا من العرب » للاستاذ كراموس (من هولاندا) — « أصل القصص الاخلاقي والنقد الاجتماعي في الشرق العربي مختتم القرن التاسع عشر » الاستاذ بريس (من الجزائر) . (تكلم المحاضر على أحمد فارس الشدياق وأديب اسحق والمويلحي والمنفلوطي وفتحي زغلول وناظر بين « حديث عيسى بن هشام » و « ليالي سطيح ») — « مسألة المبنى في الشعر العربي الحديث » للاستاذ بروكلمن صاحب « كتاب تاريخ الآداب العربية » (من المانيا) . (عرض المحاضر للقيود التي توثق النظم العربي على الطريقة التقليدية وأشار الى نشأة الموشّح الذي خالف بعض هذه القيود ثم ذكر ان خليل مطران هو الذي فك من القيود وقد حذا حذوه الاستاذ ابو شادي موسيه الشاعر الفرنسي الرومنتيكي . وقال ان لخليل مطران مدرسة تجري على ما نجده في النظم قبل أحمد زكي ابي شادي المتأثر بالادب الانجليزي . ثم انتقل المحاضر الى الشعر الحديث من الشعراء فقال ان فيهم من يذهب في تجويد الصياغة الشعرية مذهباً يبعد عن مذهب خليل مطران ومدرسته جرأة واستقلالاً ، وكان مثله هنا أشعر بيت قرأه (شعر بيت فارسي) — « بعض نظرات في مذهب السنة في الخلافة » للاستاذ جب (من انجلترا) — « الناحية الصوتية من الشعوبية » للاستاذ ايفا (من بلجيكا) . (ذكر المحاضر ما وقع بين العرب والشعوبيين من مناظرات ومساجلات حول غنى اللغة العربية عن اللغات السامية واليونانية وغيرها او حاجتها اليها)

[البقية في آخر باب المكتبة]

حديقة المقتطف

صديقي ! ...

للكاتب الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

نقلها : ايزاك شموش

شهوة الموت

من ديوان (أغاني الفردوس)

صديقي أ...

للكاتب الالماني الشهير ارثر شنيتزلر Arthur Schnitzler

نقلها ايزاك شموش استاذ اللغة والآداب العربية في الجامعة العبرية بالقدس

صديقي أ... (واسمهُ الحقيقي مارتن راند) الطالب في معهد دراسة اللغات ، كان شاعراً شابًّا ، لم يشجعهُ النقّاد قط ، ولم يستطع ابداً أن ينشر بقية الاقاصيص التي كان ينشرها في صحف الملحقات ، ومع ذلك ، فقد كان كالكثيرين من اضرابه لا يبأس بما اذا كنا نجده أو لا نجده على شيء من الاهلية والفن ، وكان يسير هذه الحياة مع رفيقة غير منظورة ، مع الهة الشعر ، ويقع منها على ساعات ستة حقيقية

الاّ انهُ كانت تنتابهُ في بعض الاحيان ازمات سوداوية ، تسببها ليس معاكسات الدهر العادية . ولا الهموم البغيضة التي يذوقها كل انسان ، ولكن .. عند ما يكون صديقي أ... حزيناً ، فلانهُ يكون منهمكاً في وضع قصة محزنة يموت فيها من شدة الحب اميرة بعيدة ، او يقتل بسيف احد الخونة فارساً مقداماً . أو يبتدع قصة تحول فيها جنية شريرة دون سعادة شخصين طيبين طاهرين

وعلى نقيض ذلك . كان أ... يطير فرحاً عند ما ينشد الربيع ، او ينشد ليلة سكر يقوم فيها وجه مستعار يقبل ثغر رسام شاب منتخب في ثوب نوبي سري . وهو يهمس في أذنه : « اني لك ولن يقوى احد على سلبي منك ! »

وا أسفاه ! ان الامر لا يحتمل الجدل ، لقد كانت هذه الدلائل الاولى على جنون صديقي أ... وكثيراً ما كنت اوبخهُ ، وكثيراً ما كنت اعظهُ بصورة رضية ، اذ أن صداقتهُ الوثيقة مع الاشباح كانت مشؤومة في رأيي . ألم يكن من الافضل ان يتعرف على الحياة ، وان يختار له رفيقات عراوات أو شقراوات أمتع وألذّ بما لا حدّ له من تلك المخلوقات الخيالية الشاردة التي يبتدعها تصوره ؟

وذات مرة ، اتبع نصيحتي ، واتخذ لنفسه خليلة .. كانت مغنية طبعاً .. بل اني لمبالغ بعض المبالغة ، اذ انها اذا كانت أصبحت خليلته ، فلانها ارتمت في

احد الامناء عند الخروج من دار التمثيل ، وبين ذراعيه ... انهُ لمبدأ حزين لقاءة كانت نهايتها حزينة ايضاً ، ولم ادرك حقيقة ذلك الاَّ عندما كان كل شيء قد انتهى

***

كنت الى جانب أُرغُني ذات يوم بعد الغداء أُهوم في كرسي الواسع واذا بصديقة أ... الشابة تقبل عليَّ : وكنت أرهف السمع واحدى يديَّ على الارغن ، لانحن متأثر يحتضر شيئاً فشيئاً ، وأسائل زائرتي بالنظرات وقد غرَّاني ذهول غريب : لقد كانت وحدها ، ولم يسبق لها قط ان جاءت اليَّ بدون أ... فأخذت احدق النظر في الباب لعلي أشاهده يتبعها ، فهمت سؤالي الصامت وأجابتني بصوت تخنقهُ العبرات

— هو في البيت ... انهُ يشتغل

— وهل أنت قادمة من عنده ؟

ورجوتها ان تتخذ لها مقعداً على الديوان ، وجلست على كرسي بالقرب منها

— وما كاد يستقر بها الجلوس حتى أجهشت بالبكاء

— ماذا حدث يا صديقتي الصغيرة ؟

لم تجب ... انتظرت جوابها بصبر ، ثم استطردت :

— اذن ؟

قلت لها ذلك بهدوء عظيم فأخرجت منديلها وكفكفت عبراتها

— اضرب لحناً مفرحاً جيداً ، لحن (فالس) ... حينئذٍ استطيع ان أفضي اليك بكل شيء ، فاتجهت الى الارغن وضربت اول لحن خطر لي ، واذ ذاك أخذت تتمتم :

— انهُ عادة لايحبني

فتوقفت عن العزف واتخذت هيأة الدهش ، مع ان دهشتي كانت مصطنعة ، اذ اني كنت انتظر منذ مر هذا الصيف ، ما انا به في حزن :

— استمر في العزف فاحتجت :

— ليس هنا موضع لحن (فالس)

وطفقت اعزف لحناً حزيناً لا بد بهذه المناسبة الارتاك الذي كان يسود بيننا .

وكم آسف لاني عزفت ذلك اللحن ! لقد اصبحت عاقي على ذلك ضاناً مبعثهُ الوساوس

فاستأنفت الفتاة :

— لا بدَّ انهُ أصبح يحب امرأة أخرى، اذ سمعته يصرخ هذا الصباح مرات عديدة : « أنت لست مثلها . . . آه . . . أنت لست مثلها ! » وكنت أحاول بعد ذلك ان أعانقهُ ، فكان ينظر اليَّ كأنهُ طائف من بعيد ويقول لي « اذهبي ! . . . انك تزعجيني . . . كان عليك ان تشعري بذلك » فجمدت في مكاني . . . أما هو فقد استمرَّ يكتب ، ووجههُ يشتعل ، وعيناه تلمعان ، وبعد برهة التفت اليَّ وعلى تحقق انني لم أتحرك ، صرخ : « ألا تزالين هنا ؟ » . . . حينئذٍ ذهبت . . . فسألتها :

— وماذا تظنين فهزَّت أكتافها . . .

— أما أنا فسأحاول ان أقول لك ذلك وان كان يتعذر إفهامك : ليس لك مزاحمة من لحم ودم ، انك من تتحدثين عنها لا وجود ولا حياة لها الاَّ في مخيلة صديقنا أ . . . فحدقت في وجهي بصمت ، فاستأنفت :

— أنا أعرف حق المعرفة . . . ان فيهِ مسًّا جنونيًّا !

وقد بدا عليها شيء من الدهشة للهدوء الذي عبرت فيهِ عن تلك الحقيقة فصرخت :

— اذن . . . هو يفزعني !

— كلاَّ ! لا ينبغي ان تفزعي ، فقد ظننت انك تستطيعين ان تسمري حبه بقولك له ذات يوم : أ . . . العزيز ! أنا لا وجود لي ، ما أنا الاَّ بطلة خارجة من احدى أقاصيص الجان . وهذه السعادة التي تذوقها بين ذراعي ان هي الاَّ حلم من الاحلام

— اذن هو نصف مجنون ؟

— بل هو نصف شاعر ، أي مجنون ! ولكن . . . لا تبكي . . . وشرعت أعزف لحن (الفالس) الذي كانت قد طلبته مني ، فنهضت بهدوء واتجهت نحو الباب ، ولما حاولت مراقبتها منعتني بإشارة من يدها

— كلاَّ ! اني سأعود

وفي اليوم التالي ذهبت لأرى صديقي أ . . . ، وكان الفجر قد أضحى ، ومع ذلك فقد رأيت أربع شموع حمر تحترق من حوله ، اذ انهُ لم يكن يستطيع العمل الاَّ على ضوء الشمع الاحمر ، وكان ينظر بعين كامدة الى الورق الذي تتراقص عليهِ

براعته بدون توقف . فأخذت أطفىء الشمعات الواحدة تلو الاخرى ، ولم يشعر بوجودي الا عندما أطفأت الشمعة الرابعة ، فابتدرني :

— أهذا أنت ؟ فصرخت بلهجة حازمة :

— أ... دع كل هذا وقم حالاً لتفدى معاً والا سميت لسجنك في دار المجانين

فدفعني بيديه الواهنتين ، انعدمتي امرأة

— لقد أتت صديقتك الي البارحة ، فماذا فعلت معها ؟ فأخذ يتبسم :

— لا تحدثني عن هذه المخلوقة البشرية المسكينة ، اني لا أريد ان أسمع شيئاً عن الجنس اللطيف بعد الآن !

— طبعاً انت لا تحب النساء الحقيقيات لانهن يقترفن جريمة سائر المخلوقات البشرية فيأكلن ، ويشربن ، ويحببن ، ويعبرن الحياة بما فيها من تفاصيل وفصول الا انه قاطعني :

— امرأة واحدة كائنة في نظري ، ولن تقوى على انتزاعي منها ، اسمع . . . كانت ذات مرة . . .

وأنشأ يقص علي قصة فتاة رائعة الجمال كانت تحيا في جزيرة من جزائر المحيط الهادىء ، وكان اسمها « تركيز » ، وكانت على نصيب عظيم من الجمال الى درجة ان انساناً او الهاً لم تقع أنظاره على مثلها وكان أ . . يشعر بقصوره وعجزه عن ايراد الاوصاف اللازمة ليصف جمال المتحدث عنها ، وأخبرني وقد غارت عيناه انه منذ اليوم الذي تسلطت فيه « تركيز » على قلبه وعقله ، لم يعد يشعر بأقل عاطفة نحو اي امرأة ، فسألته :

— وهل تحبها ؟

— بل أعبدها ! . . . ولكن واأسفاه ! . . . انها لن تلبث أن تموت . . . اذ يلذعني ان تموت !

فأخذت أهز رأسي ، اذ كنت قد ارتبت حقاً ، فاستطرد

— هنالك امير افريقي احب « تركيز » حباً جماً مشؤوماً . . .

— وهل أصبحت تغار منه ؟

— وماذا أستطيع ان افعل ما دامت تحبه ؟

— ولكن ... أيها المجنون ... اجعل الامير الافريقي فريسة لنمر ملكي ، وانزل على ضفاف الجزيرة المقدسة ، شاعراً باسم أ ... حتى اذا رأته ...

— انهُ لا يستطيع !

وكانت تلوح على أ ... ملامح الاقتناع الشديد بهذه الحقيقة

— ولمَ لا ؟ ليس عليك الاَّ ان تريد ذلك ! ان جميع خيوط هذه القصة هي بين يديك ! كل ذلك قد ابتدعهُ جنونك ! أن « تركيز » الاَّ من مبتدعات مخيلتك!

فارتسمت على ثغره ابتسامة صفراء ، وقال بهدوء :

— كلاَّ ! لنهضت أذرع غرفته طولاً وعرضاً لأهدىء روعي .

— اذهب ... انك تزعجني ! فوقفت ، وحدّجتهُ بالنظرات

— سأعود في ساعة الغداء

وبينا انا أقفل الباب ابصرت أ ... يشعل الشموع من جديد ، مع ان ضوء النهار كان قد غمر الدنيا ، وقد أبصرت الناس في الشوارع يسيرون بخطوات ثابتة ، فعجبت لهذا المقدار من الحيرة في بادىء الامر ، ولا غرو ، فان من يخرج من دار المجانين يعجب لكل شيء سليم

وعند الظهر الفيت باب دار صديقي أ ... مقفلاً بالمزلاج .

— عد هذا المساء ، قال لي

وعند المساء كان الباب مقفلاً ايضاً ، فصرخت :

— ألم تمت « تركيز » بعد ؟

فسمعت أ ... يتنهد تنهدات عميقة : لا شك ان « تركيز » كانت تنازع وعند الصباح عدت اليه ، لم يكن الباب مقفلاً ، ولكن أ ... كان جالساً الى منضدته وهو على أشد ما يمكن من الشحوب ، فسألته :

— ماذا اصابك ؟ فتنهّد :

— انها تحتضر ! فأجبت :

— يا للحظ

فأغرورقت عيناه بالدموع دون ان يفهم ، فقلت له وقد أحسست بشيء من الضيق :

— هيا أ . . . أسرع

— لا أستطيع

— انك مضحك ! أنت تحنق على نفسك ! كل هذا لا فائدة فيه . . .

— لا فائدة فيه ؟ . . . أنت لا تستطيع ان تفهم

فتوجهت الى النافذة وفتحتها :

— ألمس بهذا الهواء البارد ؟ أتشعر برقة هذا الهواء الصباحي الذي يعبث الارواق على منضدتك ؟ أبصر وقاحة الشمس التي تبرأ من رأسك المتعب ، والتي تذهب الغبار المتراكم على أوض غرفتك ؟ أترى هذا العالم المتعدد الالوان الذي يسبح في زرقة السماء ؟

فأطل من النافذة ، وأسرع فأغمض عينيه ، كأنما النور يؤذيهما ، ومع ذلك فقد ترك نفسه بين يدي أقودها كما اشاء ، ولكني عبثاً حاولت ان أخلق محادثة لانهُ لم يكن يجري جواباً

— أتريد ان تستقل عربة ؟

— نعم أريد

كانت هذه اول جملة فاه بها ، فتأسيت بها ، وأسرعت فأوقفت عربة مكشوفة ذهبت بنا الى غابة فنا ، فلما توسطنا الحقول ونحن نسلك ذلك الطريق الذي تظلله اشجار كبيرة ، مورقة ، لمحت صديقي يبدي حركة دهش وانذهال ، وشرعت عيناهُ يستعيد حواسه ويتبع مسألته :

— هذا جميل ، أليس كذلك ؟

ولكن ابتسامته كانت قد غارت ، وكانما هي كانت تعبر عن لسان حاله :

« ألا تزال تظن ان هنالك شيئاً يقوى على انقاذي ؟ »

وتناولنا طعام الغذاء في أحد الفنادق ، وكنت أشجعهُ على الأكل ، ولكنهُ لم يمد يده الى صحن من الصحون ، وانما كان يتنهد ، ويقول لي :

— انت نعم ، ولكنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً في سبيلي ؟

— بل أستطيع كل شيء ، أستطيع ان أعيد كل شيء الى نظامه ، اذ أردت ان تكون عاقلاً . اني أفهمك جيداً ، وأفهم ان روحك المريضة ، هذه الروح

الشاعرة . كان لا بد لها ان تقع في حب «تركيز»

فقاطعني :

— وما دامت «تركيز» تحتضر فينبغي ان اكون شقيًّا !

وأخذت شفاهه ترتجف ، وكانت الشمس قد شرعت تتحدر للغيب ، والضوء يبسط أجنحته بهدوء على الحقول والنابات الندية ، فسمعته يقول :

— أسرع ! أسرع !

وانطلقت العربة تعدو نحو المدينة ، وكانت الاشباح المتحركة توهمنا ان المنازل الاولية قريبة جدًّا ، واننا سنبلغ المدينة قبل ان يجن الليل ، وكان صديقي آ . . لا يفتأ يكرر :

اسرع ! اسرع !

فسمعه السائق ، وأهب الجياد ، وكان آ . . يتحبب :

— أريد أن أعود ! أريد ان أعود !

— دع عنك كل شيء . . . ينبغي عليك ان تجتنب البرد هذا المساء . . .

فنظر اليَّ دهشاً :

بل ينبغي عليَّ ان اشتغل !

وكان تنفسه متهدجاً ، لاهثاً ، يجب لفت اليه انظار السائق الذي تفرس فيه دهشاً ، ذاهلاً

وكنت ادعوه من حين لآخر أ . . . ولكنه لم يكن ليسمعني . . .

وبينا نحن نجتاز الشوارع المظلمة عرض لخيالي مشهد لم استطع ان اتخلص منه . . . تخيلت «تركيز» ممددة في تابوت بلوري ، وأمامها شاعري ، يتأكله الحزن وعيناه جامدتان ، يتمشى فيها ألم عميق يقصر عنهُ الوصف

ولما وقفت العربة عند دار آ . . قفز الى الارض ، وأخذ يصعد السلالم بسرعة عظيمة الى درجة انني عند ما لحقت به كانت شحوبه الحمر قد اوقدت ، فجلس الى منضدته دون أن يشعر بوجودي ، وقررت ان امضي الليلة بالقرب منهُ لان حالته كانت تقلقني قلقاً شديداً

كانت يراعته تجري تائهة على صفحات القرطاس ، وكانت النافذة مفتوحة

يضطرب ضوء الشموع من نسمات الهواء التي تهب منها . وكانت الاوراق المجزئة تدور حول المنضدة ، وكان صباح يزداد تأثراً من دقيقة لاخرى حتى غدا شاحباً كوجوه الاموات

وقد ثبت لديَّ ذات لحظة ان « تركيز » تحتضر ، اذ ابصرت يد أ . . . يتابها التباطؤ ، ونفسه يعروه الاختناق ، فلم يلبث ان ترك قلمه وتهالك على المنضدة ، وهو يجهش في البكاء بمرارة وحزن

فتأسيت بذلك ، وقلت لنفسي : « لقد انتهى الامر ! ان اثر الجمال قد تلاشى والصورة الخيالية الفظيعة التي عاش معها بضعة ايام قد اندثرت ! »

وخيل اليَّ ان الجو قد تغير ، وان الارواح الشريرة تهرب من النافذة ، وان ضوء الشموع قد اخذ يلطف ، وان الهدوء قد عاد الى صديقي المسكين ، اذ كانت نوبة البكاء قد خفت بعض الشيء

فتمددت على الديوان . واستسلمت للرقاد ، ويظهر اني رقدت طويلاً ، اذ لم يكن قد بقي شيء من الشموع عندما استيقظت ، أبصرت أ . . . فاقد الحركة ، منكس الرأس ، فاقتربت منه ، ولمحت في نظراته ما يبعث على الاطمئنان ، فقلت له :

— هيا قم ارقد فأجابني بصوت عادي :

— عُدْ الى منزلك ، ولا تعد تقلق نفسك من اجلي فصرخت فرحاً

— آه أ . . . ! هل انتهى كل شيء ؟ فأكبَّ عليَّ يعانقني ويقول :

— نعم ، انتهى كل شيء ! — اذن اسمح لي ان اتم ليلتي على ديوانك

— لك ما تريد

وكانت تبدو في صوته آثار الصداقة الصميمة . . . لم تفارقني نظراته وانا أتمدد على الديوان ، واخذ يتبسم بلطف عندما اشرت عليه بأن يتمدد هو أيضاً . . . بل اني أحسست بنظراته ترتقي حتى بعد ان استغرقت في الرقاد

استيقظت مع الفجر ، لم يكن صديقي أ . . . في الغرفة ، فنهضت واقتربت من المنضدة ، فضحت على ضوء الفجر الضئيل ورقة مطوية أربع طيات ، وقبل ان أفضها ، أسرعت الى سرير صديقي ، فألفيته شاغراً لم يمسه أحد ، فعراني ارتجاف

مريع، وأحسست اني أصبحت فريسة اضطراب غريب . . .

أول نظرة بدرت مني اتجهت نحو الشموع ، فاذا بها مرمية الى الارض مع الشماعة ، الى جانب المدفأة . . . بحثت بأنظاري عن الاوراق المخطوطة : كانت الاوراق البيضاء ما تزال على المنضدة . . . حينئذٍ عزمت على ان أمض الورقة ، فاذا بها هذه الكلمات : « مات « تركيز » فانتهى كل شيء ! »

فاصطكت أسناني وصرخت : أين هو ؟ . . . رباه ! . . . أين هو ؟ . . .

أسرعت الى مدخل الدار : لم يكن فيه أحد ! . . . فتحت الباب : لم يكن قفص السلم مضاء . صعدت الى الغرفة ، ولمحت شمعة من جانب المدفأة ، فأشعلتها وأسرعت الى صحن الدرج ، وانحنيت على الدرابزون ، فأبصرت . . . شبحاً اسود . ممدداً على الارض . فمددت يدي التي تحمل الشمعة لأتبين بوضوح أكثر فسقطت قطرة شمع على الجسم الصديم الحراك ، فهرولت أنزل السلالم مسرعاً والشمعة في يدي حتى اذا أدركت أسفله أبصرت جثة هامدة . . . .

كان وقع اقدامي على السلالم قد أيقظ الجيران ، فهرع الناس من كل جانب يتساءل بعضهم : « ماذا جرى ؟ » . . . ويرسل البعض الآخر صرخات منزعة

وقد رأيت نفسي مضطراً الى اعطاء شرح لذلك فقلت :

— لقد كان مجنوناً ! . . .

واذا أحد الحضور يأخذ الشمعة من يدي ، أوظنهُ كان يرتجف ! . . .

***

لقد قرأت القصة الاخيرة التي كتبها صديقي آ . . . انها قصة فاشلة تماماً ، لا يكاد يتبين فيها أثر الفن قط !

ولا شك ان هذه آخر مؤلفة للقصة ، ولكن حرصي على صحة الرواية يضطرني الى قول الحقيقة . . . ومع ذلك ، فقد كان صديقي آ . . . شاعراً عظيماً اذ أي مخيلة قوية ينبغي ان يكون قد حباه الله بها ، ليستطيع ان يخلق امرأة يحبها الى حد الجنون ؟ حتى لا يعد يستطيع الحياة حين قضت المخيلة على هذه المرأة الاثيرة ؟ ؟ ؟

آه . . . ان لربات الشعر لاهواء غريبة ! ! !

شهوة الموت

«من ديوان (أغاني الفردوس)
الذي أخرجه الياس أبي شبكة ،
وفي باب مكتبة المقتطف كلمة عنه»

ناقمٌ على السماءْ حاقدٌ على البَشَرْ
ساخط على القضاءْ ثائرٌ على القَدَرْ
غير فطرة الماءْ لا أحبُّ في البَحَرْ
صرت أمقت الصفاءْ صرتُ أعشق الكَدَرْ
غير مشهد الدماءْ لا أحبُّ في الصُّوَرْ
ناقمٌ على السماءْ والبشر !

***

جُلِّلي ليَ الجسدْ واسكبي لي الرحيقْ
لا تفكري بغدْ قد يجي ولا يجيءْ
ما لنا وللأبدْ إنّ سرّهُ عميقْ
الهوى اذا اتّقَدْ كان للبلى طريقْ
فلْنَمُتْ يداً بيدْ ولْنُغَيِّبْ البريقْ
بين شهوة الجسد والرحيقْ

سير الزمان

توازن القوى البحرية

في البحر المتوسط

الوضع الجغرافي

الاهداف الاستراتيجية

الاساطيل وبرامج الانشاء

الطيران والقواعد البحرية

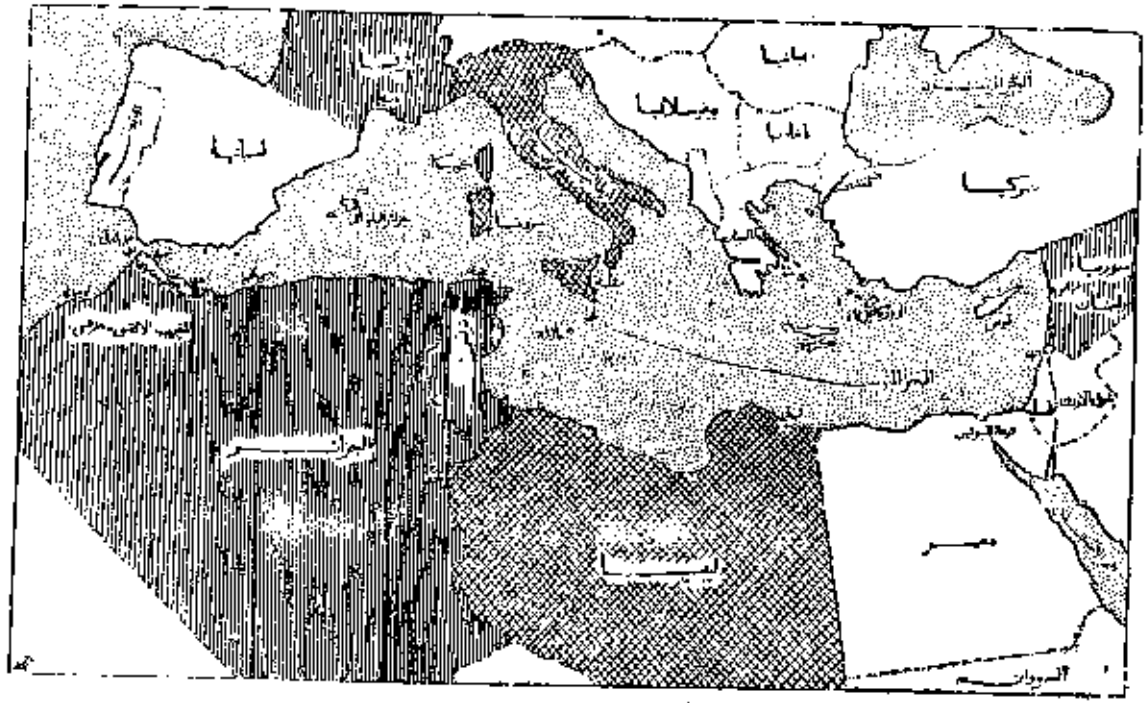

خريطة للبحر المتوسط وسواحله

توازن القوى البحرية

في البحر المتوسط

الوضع الجغرافي

بعد أن انتهت الازمة التشيكوسلوفاكية ، اتجهت الانظار في مقدمة ما اتجهت اليه الى المشكلة الخاصة بالحرب الاهلية الاسبانية ، لانها لا تزال كالورم السرطاني تسمّ جسم العلاقات الاوربية ولاسيما ما كان منها خاصًّا بسياسة بريطانيا وايطاليا وفرنسا في البحر المتوسط . ونحن المملكة المصرية القائمة على الطرف الشرقي من هذا البحر ، يهمنا بوجه خاص تحوُّل العلاقات بين دوله الكبرى ، لان احدى هذه الدول حليفة لنا ومصيرها في هذا البحر مرتبط بمصيرنا الى حد بعيد . ولذلك نقلنا هذه الدراسة الوافية في توازن القوى البحرية في البحر المتوسط ، لما لهذا الموضوع من شأن كبير بوجه عام . ومن صلة وثيقة بنا بوجه خاص

والبحث في هذا الموضوع ، يقتضي منا اولاً دراسة المواقع الجغرافية للبلدان التي تهمها شؤون هذا البحر . وذلك لان الخطة البحرية لدولة انما هي أثر من آثار موقعها الجغرافي . فهذا الموقع الجغرافي يعين الاهداف التي تتجهُ اليها والقواعد البحرية التي تنشئها وتحميها وطبيعة السفن الحربية التي تبني منها اسطولها ، واذن فالموضوع يشتمل اولاً على بحث الموقع الجغرافي ، ثم الاهداف العسكرية ثم برامج الانشاء البحري ثم قوى الطيران والقواعد البحرية ، ثم المقابلة بين جميع هذه العناصر

هذه الطريقة في البحث تفضي بنا الى تقسيم دول البحر المتوسط او التي تهمها شؤونه بوجه خاص الى أربع طوائف وهي اولاً طائفة البلدان التي يصب ماء البحر المتوسط سواحلها ولا يتصل بالمحيط الا عن طريقه . وتتألف هذه الطائفة من ايطاليا واليونان ويوغوسلافيا وتركيا . واذا حسبنا ان البحر الاسود ليس الا بحيرة كبيرة لانهُ لا يفضي الى مسالك المحيطات الحرة

والطائفة الثانية تضم البلدان التي لها سواحل على البحر المتوسط واخرى على بحر آخر وهي اسبانيا وفرنسا ومصر . ويدخل في فرنسا ممتلكاتها الافريقية وانتدابها السوري واللبناني

والطائفة الثالثة هي الامبراطورية البريطانية ولها في البحر المتوسط موقف خاص

والطائفة الرابعة هي طائفة البلدان التي موقعها الجغرافي خارج البحر المتوسط ولكن لها بعض

مصالح فيه وتتجه الى الرغبة في ان يكون لها شأن في تصريف امتعته في طليعتها المانيا وروسيا

ومن الواضح ان اهداف هذه الامم تختلف باختلاف وضعها الجغرافي . فالبلدان التي يمكن ان تحسب اسيرة هذا البحر كايطاليا ويوغوسلافيا واليونان وهي التي تعتمد في امتيازات مرافئها غذائها على المواصلات البحرية فيه ، لا يمكن ان تمرن خطتها وأهدافها شبيهة بخطة دولة اخرى كفرنسا تستطيع اذا سدت في وجهها مسالك البحر المتوسط ، ان تستورد ما تحتاج اليه من الغذاء عن طريق المحيط الاطلنطي ، ولا بخطة الامبراطورية البريطانية التي تستطيع ان تعتمد على طريق الكاب البحري في حال الضرورة ، ولا بخطة المانيا او روسيا اللتين لا تستطيعان ان يكون لهما شأن كبير فيه الا اذا كانت احداهما متحالفة مع احدى دول البحر نفسه

فحرية هذا البحر في نظر بعض هذه الدول — كايطاليا — بمنزلة النفس أي انها مسألة حياة او موت . وهي في نظر الآخر كفرنسا ذات مقام خطير املاكها وممتلكاتها في افريقيا وانتدابها في الشرق الادنى وسهولة تنقلها الافريقية في حالة الحرب . وهو شريان عظيم الشأن في الامبراطورية البريطانية ، ولكنه ليس مما لا يستغنى عنه من جهة التغذية . اما الدول الاخرى التي لا يتصل ماء هذا البحر سواحلها ، فلا حاجة حيوية بها اليه

ويضاف الى هذه الاعتبارات العامة اعتبارات خاصة ، ففرنسا مثلاً تحصر نشاطها بالجانب الغربي من هذا البحر ، لاهتمامها بمواصلاتها التي تربطها بالمغرب الاقصى وتونس والجزائر . وهذه المواصلات محصورة في منطقة واقعة بين شبه الجزيرة الايبيرية وشبه الجزيرة الايطالية فهذه الحقيقة لا بد ان تكيف خطتها البحرية وعلاقاتها السياسية بهذين البلدين . وايطاليا ، بعدها من قبل الطبيعة بوضعها الجغرافي لقطع المواصلات بين غرب البحر وشرقه . أما بريطانيا ففي يديها مفتاحان تقفل بهما مدخلي البحر اذا اقتضت الحال وهما جبل طارق وترعة السويس

الاشراف الاستراتيجي

تتباين الاهداف الاستراتيجية طبعاً وفقاً للاعتبارات الجغرافية التي بسطناها فيما تقدم فاطرد

(ايطاليا) — فلننظر أولاً في موقف ايطاليا . فقد قلنا ان ايطاليا سجينة هذا البحر وهي لا تستطيع ان تستورد معظم الغذاء اللازم لها الا عن طريقه فاضعفها احد مسالكه الرئيسية في ان تتفاهم مع الدول الباسطة سيادتها على هذا البحر اي مع انكلترا وفرنسا واولى أن يكون لها أسطول يمكنها من ان تسيطر على البحر وحدها وهو عمل ما كان يستطيعه الا قليل من الدول ان تتفاهم مع إحدى دول القارة الاوربية فتتمكن من ان تحصل منها عند الحاجة على المواد الاولية التي تحتاج اليها صناعتها والغذائية اللازمة لأود شعبها وحينئذ يكون في وسعها أن تقف وجهاً لوجه مع قوة الكتلة الفرنسية الانكليزية

وقد وضع كاتبان يدعيان همل Hmmel وسيورت Siewert كتاباً عنوانه البحر المتوسط خصا بعظم فصوله بموقف ايطاليا . وعندهما انهُ ليس في الوسع إنكار الميل الايطالي الى بسط السيطرة الايطالية على البحر المتوسط . وان هذا الميل ناشيء عن عوامل ثلاثة هي الجغرافي والديمغرافي والاستعماري . فايطاليا في المائة من حدود ايطاليا سواحل يغمرها ماء هذا البحر . ولذلك ترى ايطاليا في كل مؤتمر بحري ، تبسط موقعها الجغرافي الخاص في البحر المتوسط وما تلاقيه من الصعوبة في استيراد ما تحتاج اليه من مواد الغذاء والصناعة ، ثم تعتمد على هذا الوضع الخاص في طلب الحقوق الخاصة بقوة استيرادها . ولا يخفى أن ايطاليا من أفقر البلدان الاوربية في المواد الاولية كالفحم والمعادن والنفط والخشب وغيرها فأودها قائم على الاستيراد

كانت ايطاليا سنة ١٨٧١ تعد ٢٧ مليوناً ولكن عدد سكانها اليوم ٤٢ مليوناً . هذه الزيادة الكبيرة في عدد السكان أحدثت موجة من الهجرة حتى ليقدر عدد الايطاليين الذين يقطنون خارج ايطاليا بعشرة ملايين منهم ثمانية ملايين في اميركا

والحالة الناجمة عن الموقف الجغرافي وقلة المواد الاولية وموجة الهجرة افضت الى نشوء الفكرة الفاشستية ، النازعة الى الاستعمار باحياء الامبراطورية الرومانية وجعل البحر المتوسط بحيرة ايطالية ، المتجلية في فتح الحبشة والمنشآت الاستعمارية في ليبيا

فلكي تحقق ايطاليا ما تدعوه « بحرنا » عليها أن تنهض الى مستوى قوة ندتيها في البحر المتوسط أي فرنسا وانكلترا . الا ان موارد ثروتها تحمل ذلك متعذراً عليها الآن . ان موقعها الاستراتيجي يمكنها من ان تبلغ مرتبة من القوة لا تستطيع ندتاها أن تسبقها بها وذلك بانشاء سفن حربية من نوع الغواصات على الاكثر ، وبالسلاح الجوي . فهي تستطيع أن تعرقل مواصلات فرنسا وشمال افريقية بهذه القوة فتعيق تبعثة القوات الفرنسية . ثم انها تستطيع ان تقطع الصلة بين غرب البحر المتوسط وشرقه فتعرقل مواصلات بريطانيا مع الهند ان لم تقطعها بتاتاً

(فرنسا) — فلنلق الآن نظرة على موقف فرنسا . ان مواصلاتها في غرب البحر المتوسط ذات شأن عظيم جداً في نظرها لانها السبيل المباشر من مرسيليا وطولون الى أوران والجزائر وتونس . فيها عدة ان تبعث ملايين جندي في ممتلكاتها في شمال افريقية وتنقلها الى فرنسا وكانت مواصلاتها في غرب البحر المتوسط مقطوعة او محفوفة بالخطر تحتم عليها ان تنقلهم عن طريق المحيط الاطلنطي فتضيع بذلك وقتاً ثميناً . فحرية المواصلات في غرب البحر المتوسط مسألة على أعظم جانب من خطر الشأن في نظر فرنسا . ومما يجب الاعتراف به ان هذه الحرية تغدو معرضة لخطر عظيم في حالة نشوب حرب عامة تكون فيها أسبانيا وايطاليا ضد فرنسا

يقابل هذا ان فرنسا تحتل — في حالة نشوب حرب عامة — مواقع في البحر المتوسط

تمكنها من الهجوم على شبه الجزيرة الايطالية . فثمة أولاً الساحل الفرنسي القريب من ايطاليا ثم جزيرة كورسيكا التي مركز من مركز فرنسا الحربي ازاء ايطاليا . ان المسافة بين كورسيكا وساحل توسكانا الايطالي ٨٤ كيلومتراً ، وبين كورسيكا وجنوى ١٥٠ كيلومتراً وبين كورسيكا وروما وسيلانو وتوران ٢٠٠ كيلومتر . ولذلك يمكن القول بأن كورسيكا أصلح ما يكون مكاناً للشروع في الحملات الجوية التي تبغي فرنسا ان توجهها الى ايطاليا في حالة نشوب حرب . ثم يضاف الى ذلك موقع طولون في جنوب فرنسا وبيزرته في شمال افريقية . ومن هنا تتبين ان فرنسا لا تعوزها قواعد الهجوم على ايطاليا في حرب تكون فيها ايطاليا عدوة لها

ثم ان المسافة بين بيزرته وساحل صقلية الغربي قصيرة ، فاذا شاءت ايطاليا ان تستعمل جزيرة بانتلاريا لقطع المواصلات بين غرب البحر وشرقه في مضيق صقلية استطاعت فرنسا ان تبدل هذا العمل وتبطله من بيزرته وهي قاعدة بحرية وجوية عظيمة . واذا كانت ايطاليا تستطيع في بدء الحرب ان تقطع المواصلات البحرية في المضيق بين صقلية وساحل تونس فان وجود بيزرته يجعل استعمال ايطاليا لهذا المضيق متعذراً كذلك

أما (اسبانيا) فلا نزاع في ما لموقعها من عظيم الشأن . فساحلها يمتد من الشمال الى الجنوب على حدود البحر الغربية . ثم انها تملك جزائر البليار ومواقع عظيمة الخطر على الساحل الافريقي مثل مليلة وسبتة . فموالاتها لايطاليا والمانيا تجعل انكلترا وفرنسا كثيراً لانها تعرقل مواصلات فرنسا — كما بينا — وتنقص من قيمة جبل طارق كمفتاح لغربي البحر المتوسط . ومن هنا كان للحرب الاهلية الاسبانية ذلك المقام الخاص في دوائر السياسة الاوربية[1]

ثم كلمة عن (بريطانيا) . فالبحر المتوسط في نظرها طريق اقامت على مراحل خاصة منه الحصون لتأمينه . فثمة جبل طارق في الغرب ومالطة في الوسط . ثم انها تحرس مدخل البحر من ناحيته الشرقية من مقامها الخاص في فلسطين ومصر . وقد بالغ الكتّاب كثيراً في ما كتبوه عن مالطه وسقوط قيمتها الحربية . ولكنها اذا كانت قد غدت غير صالحة تماماً مواتية للاسطول البريطاني كما كانت فانها لا تزال تصلح حصناً تثوب اليه مرافئ القوات والطائرات فالهدف الذي تسعى اليه بريطانيا هو حفظ الطريق البحري بين جبل طارق وبورسعيد حرًّا فاذا حدث ما يقطع عليها هذا الطريق ، فانها تحول سفنها التجارية الى طريق الكاب

ثم ان للسياسة البريطانية هدفاً آخر في البحر المتوسط وهو المحافظة على مصالحها وعلاقاتها السياسية في الشرق الادنى

---

(١) راجع « الحرب الاهلية الاسبانية وصداها الدولي » مقتطف نوفمبر ١٩٣٦ صفحة ٤٧٥ — ٤٨٥

أما تركيا فلها شأن كبير في البحر المتوسط لانها تستطيع ان تتحكم الى حدٍّ بعيد بمخرجه الشرقي ، ولأنها تستطيع ان تمنع روسيا من التدخل في شؤونه باستلاكها الدردنيل والبوسفور . وأما ألمانيا وهي ليست من دول هذا البحر بحصر المعنى فتستطيع ان تبرز سفاءها فيه اذا تحالفت مع ايطاليا وعندئذٍ فقد تؤيد حليفتها ببعض سفن بحرية من قبيل الغوّاصات او بعمل عسكري في البلقان يتجه الى اسطنبول وسلانيك

بقي أن نقول أن هدف (مصر) هو الاحتفاظ باستقلالها وهي في حاجة الى دولة كبيرة تحالفها فتحالفت مع بريطانيا لان مصالح البلدين من حيث حفظ السلام في البحر المتوسط واحدة

المساطيل وبرامج الانشاء

ان الشروع في بناء الطراد الايطالي «اميرو» في جنيف من عهد قريب، يعد خطوة جديدة في تجديد قوة ايطاليا البحرية في البحر المتوسط . وليس في وسع الباحث الا الاعتناء باحترام أمام الجهد العظيم الذي بذل في تعزيز الاسطول الايطالي منذ تقلدت الحكومة الفاشستية أزمة الحكم، وذلك لتحقيق الهدف الذي ترمي اليه وهو المساواة بفرنسا التي ما فتئت تطالب بها ايطاليا في المؤتمرات البحرية ثم حققها موسوليني في الواقع تقريباً . فالطرادات السبعة التي بنتها فرنسا — ومحمول كل منها ١٠ آلاف طن — ردت عليها ايطاليا بصنع سبعة مثلها من المحمول نفسه . إلاّ أن ايطاليا نظرت الى موقعها الجغرافي الحربي فرأت انها لا تحتاج الى سفن حربية تصلح للمدى البعيد ، فاتخذت في بناء سفنها الحربية قاعدة خاصة بها فجعلتها اقل سرعة وأقصر مدى واستعملت فرق الوزن الذي كسبته كذلك لجعل دروعها أكثف وأمتن

فنشأ عن ذلك انهُ اذا كانت ايطاليا تساري فرنسا في عدد الطرادات التي محمول كل منها عشرة آلاف طن فالرأي بين الخبراء ان الطرادات الايطالية التي بنيت ردٌّ على الطرادات الفرنسية ، متفوقة لان الايطاليين اعتنوا في بنائها بالخبرة والاختبار

وقد سعت الاميرالية الايطالية أن تتبع برنامج الانشاء البحري الفرنسي ، حذوك النعل بالنعل ، في جميع الاصناف الاخرى من السفن الحربية ، ولكنها كانت تسعى في كل ما تصنعهُ الى التحسين والاتقان على نحو ما فعلت في الطرادات

فالمدمرات الفرنسية التي محمولها ٢٥٠٠ طن و٣٠٠٠ طن ردت عليها الاميرالية الايطالية بطرادات خفيفة من طراز «الكوندوتيري» ومحمول كل منها يتفاوت بين ٥ آلاف طن و٦٧٠٠ طن

أما في الغواصات فتسعى ايطاليا الى مساواة فرنسا بل والى التفوق عليها عدداً . ولكنها أي ايطاليا تصنع غواصات أصغر حجماً وأخف وزناً من الغواصات الفرنسية . وسبب ذلك ان

البحر المتوسط وهو بحر داخلي لا يقتضي غواصات كبيرة تستطيع ان تسافر مسافات طويلة في المحيطات ، فهي في هذا البحر قريبة من قواعدها . ولذلك تفضل ايطاليا ان تزيد عدد ما تبنيه من الغواصات الصغيرة والمتوسطة ، ويقابل هذا ان فرنسا تحتاج الى غواصات من السفة الاولى حجماً ومدى لطول مواصلاتها البحرية الاستعمارية

ومع ان ايطاليا عمدت في البدء الى بناء السفن التي توافق خططها البحرية في بحر داخلي — اي السفن الصغيرة الحجم — الا انها عمدت بعد ان شرعت فرنسا في بناء البوارج الكبيرة من طراز الدونكرك والستراسبورج الى الرد عليها بالشروع في بناء الطرادين الكبيرين فيتوريو فينيتو والجوليو ريو . وبدلاً من ان يحمل مرسولبي حمولة كل منها ٢٦٥٠٠ طن حمل المحمول أقصى ما تسمح به معاهدة وشنطن وهو ٣٥ الف طن . وهو المحمول الذي سيتخذ قاعدة في بناء البارجتين الجديدتين من طراز البارجة « اميرو » التي تقدم ذكرها

ويمكن ان يقال على وجه من الدقة ان الاسطول الايطالي كان في اول يناير سنة ١٩٣٨ مؤلفاً من اربعة طرادات مجددة مجموع حمولها ٩٠ الف طن و١٦ طراداً منها سبعة حمولة كل منها ١٠ آلاف طن و ١١٤ مدمرة وسفينة طوربيد و ٨١ غواصة

أما برنامج الانشاء البحري الذي أذيع فواسع النطاق وعند تمامه يصبح الاسطول الايطالي في البحر المتوسط قوة تحاذر[1]

يقابل القوة البحرية الايطالية في البحر المتوسط أسطولا الكتلة الفرنسية البريطانية ، أو ما تستطيعان ان ترصداه منها للخدمة في هذا البحر . فعلينا في المقام الاول ان نبين مجموع قوة الاسطولين ، ثم نشير الى القوة التي تستطيعان رصدها للخدمة في البحر المتوسط

كانت فرنسا في بدء سنة ١٩٣٨ متفوقة على ايطاليا في جميع اصناف السفن الحربية فحمول سفنها التي لا تزال تحت مستوى التعبير وصالحة للقتال كان ٥٠٠ الف طن حالة ان محمول سفن ايطاليا المقابلة لها ٣٨٠ الف طن . ولكن فرنسا مهددة بخسران هذا التفوق

ولسنا في حاجة في مثل هذا الفصل الى التبسط في وصف العناصر التي يتألف منها الاسطول الفرنسي ويكفي القول انه في مجموعه يتفوق على الاسطول الايطالي الا ان برنامج الانشاء البحري الفرنسي ليست له سعة كافية ولا سرعة وافية ولذلك ينتظر ان تلحق ايطاليا بفرنسا في سنة ١٩٤١ وتسبقها سنة ١٩٤٢ اذا لم توسع فرنسا نطاق برنامجها البحري وتزيد البناء سرعة

(١) يشمل برنامج الانشاء البحري لسنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ اثنتي عشرة (١٢) قائدة مدمرات و١٦ قارب طوربيد وعشرين غواصة . ثم أذيع في ٧ يناير اضافة طرادين (حمولة ٥٥ الف طن) واثنتي عشرة كشافة وطائفة من القاذفات الى برنامج الانشاء البحري وسيكون اسم الطرادين « ريمنا » و« اميرو »

ثم لننظر في الاسطول البريطاني. ان مجموع محمول سفنه يفوق المجموع الخاص بفرنسا وايطاليا معاً اذ يبلغ ١١٦٠٠٠ر١ طن وهي متفوقة خاصة في البوارج والطرادات الكبيرة وحاملات الطيارات . وموضع الضعف الوحيد في الاسطول البريطاني هو الغواصات . ولذلك يزعم الخبراء انهُ اذا عمل حساب لاسطول المانيا في البحر الشمالي ، ولمقتضيات الطرق الامبراطورية ، استطاعت بريطانيا وحدها ان ترصد للخدمة في البحر المتوسط اسطولاً يفوق الاسطول الايطالي . فاذا ضم اليه جانب من الاسطول الفرنسي كان التفوق حاسماً لا ريب فيه . اما ضعف الغواصات فهناك وسائل لمكافحتها تقلل من خطرها

ويضاف الى هذا ان برنامج الانشاء البحري البريطاني ضخم جداً وهو يبلغ وحده في تفوق محمول سفنه رقماً[1] اعلى من الرقم الخاص بمجموع محمول الاسطول الايطالي الآن ، وحتى ثم بلغ مجموع محمول السفن في الاسطول البريطاني ٠٠٠ر٧٠٠ر١ طن وهذا عدا ١٢ سفينة مجموع محمولها ٦٣ الف طن أقر بناؤها ولكن لم يشرع فيه بعد

اما الاساطيل التابعة لاسبانيا ويوجوسلافيا واليونان وتركيا فلا شأن كبير لها بل ان شأنها صغير جداً ولا يذكر لان معظم سفنها صغيرة وقديمة . أما اسطولا روسيا والمانيا ، فالاول محصور البحر الاسود وبحر بلطيق ولا يحتمل ان يكون له شأن اكبر من ارسال بعض غواصات الى البحر المتوسط . واما الاسطول الالماني في البحر الشمالي فجل ما يستطيعه ان يقف امام جانب من الاسطول البريطاني وما يؤيده من الاسطول الفرنسي في البحر الشمالي وليس في وسعه ان يرسل اكثر تذكر الى اسطول دولة حليفة في البحر المتوسط

الطيران والقواعد البحرية

لا يتم البحث في موازنة القوى الحربية في البحر المتوسط الا اذا ربطنا بالاعتبارات الحربية من مقام وتأثير في هذه الموازنة . والطائرات كعامل في تقرير القوى الحربية ينظر الى موضوعها من ناحيتين الاولى عملها في الاستكشاف واطلاق القنابل والثانية القواعد التي تستند اليها

[illegible] السفن البحرية او معها فتؤخذ نوع محمله السفن ويستقل من سطحها وهذه السفن نوعان نوع خاص يحمل الطائرات ولا تحمل له الا حملها والنوع الآخر هو السفن الحربية العادية التي تحمل عدداً يسيراً من الطائرات ولكنها ليس لها سطح تسير كما

(١) يشتمل برنامج الانشاء البحري الانكليزي على ستين سفينة مختلفة تخرج حمولها ٤٢٧ الف طن عدا السفن الاثنتي عشرة الاضافية

ترى في حاملات الطائرات الخاصة ، فتطلقها بالقذف الميكانيكي بجهاز يشبه المنجنيق القديم وقد اتخذ رداء جديداً

ففي هذا النوع من الطائرات نجد التفوق حاسماً للاسطولين البريطاني والفرنسي ولا سيما الاول الذي يعد بين سفنه سبع حاملات للطائرات

ثم هناك القوات الجوية المستقلة عن الاسطول والمستندة الى قواعد على اليابسة وفي هذا النوع يقر الخبراء بان التفوق في البحر المتوسط لايطاليا . وذلك لاسباب في مقدمتها ان سلاحها الجوي كبير وأصنافه كثيرة ثم لان كل سلاحها الجوي مجتمع في شبه الجزيرة الايطالية ، وله قواعد في مواقع غاية في الملاءمة للبر والقر . وقد يكون من الشاق أن توضع موازنة دقيقة بين عدد الطائرات التي تستطيع ايطاليا ان تجردها في حالة نشوب حرب وعدد الطائرات التي تستطيع فرنسا وبريطانيا أن ترصداها للبحر المتوسط ، وذلك لسهولة التنقيل والتبديل في أجهزة تسير بسرعة عظيمة كالطائرات الحربية . وإنما يمكن ان يقال ان ايطاليا متفوقة على فرنسا وبريطانيا في سلاح الطيران من حيث خطط الهجوم والدفاع مما يسهل على اسطولها عمله

هذا في مايتعلق بسلاح الطيران . وقد بقي علينا أن نجمل الكلام في ختام هذا الفصل على القواعد البحرية التابعة لدول البحر المتوسط المختلفة

وأول مايخطر للباحث الميزة التي تتمتع بها ايطاليا من حيث موقعها الجغرافي وهي امتدادها في وسط البحر المتوسط ، وما لها من قواعد بحرية متعددة يثوب اليها الاسطول للتموين والترميم اذا اقتضى الامر ذلك . ثم قرب هذه القواعد من موانع المعارك البحرية المحتملة . هذه القواعد هي تارنتو ضد كعب الحذاء الايطالي وسيسيليا وجنوى وناپولي على الساحل الغربي وريستا وبولا في البحر الادرياتيكي ، ومسينا في جزيرة صقلية وقد أعد مرفأها اعداداً خاصاً ليكون قاعدة للغواصات تستند اليها الغواصات التي تقوم من ناپولي وتارنتو وبرنديزي . وفي صقلية قواعد أخرى منها تراپاني وكاجلياري ، وهذه تصلح لقطع الطريق البحري بين غرب البحر المتوسط وشرقه

ثم هناك جزيرة پانتلاريا الصخرية الواقعة بين طرف صقلية الغربي وساحل تونس وهي تخص الآن لتؤيد القواعد التي تسيطر على ذكرنا في قطع الطريق البحري

وعلاوة على القواعد البحرية التي تملكها ايطاليا في وسط البحر المتوسط ، لها قواعد في شرق البحر ولاسيما في جزيرتي رودس ولبروس في بحر ايجه . ثم لها طرابلس الغرب وبنغازي على ساحل لوبيا الشمالي ، ولكن ساحل لوبيا الشمالي مما يصعب الدفاع عنه وحمايته

والخلاصة ان ايطاليا قوية بقواعدها البحرية في الوسط ، ضعيفة في الجناحين

يقابل هذا ان انكلترا وفرنسا لهما قواعد لا تقل قوة ومنعة وحسن موقع جغرافي عن قواعد

ايطاليا . والميزة الاولى التي تتمتع بها بريطانيا هي قدرتها على ايصاد باب البحر المتوسط في الغرب والشرق . فتصبح الدول التي تتوسط هذا البحر وكأنها اسيرة فيه . ثم ان منعة جبل طارق قد يهددها خطر من ناحية اسبانيا اذا كانت معادية لفرنسا وانكلترا . ولكن وجود فرنسا في المغرب الاقصى وقدرتها على استعمال اوران والمرسى الكبير يعزز موقف انكلترا وفرنسا المتبع عند مدخل البحر من ناحيته الغربية

اما المدخل الشرقي أو الجوي المخرج فهو محكم الايصاد بوجود ترعة السويس وأعمال التحصين التي تقيمها بريطانيا في الشرق الادنى . وليس لمخالفة انكلترا مع مصر غرض أهم من الاشتراك معها في السيطرة على ترعة السويس عندما تقتضي الحاجة ذلك . ثم ان اسطول البريطاني يستطيع الاستناد الى قواعد الاسكندرية وبور سعيد ومرسى مطروح ويضاف الى ذلك المرفأ العظيم الذي أنشىء في حيفا ، والمعدات التي تمد في مرفأ فملجستا بقبرص حتى يصبح قاعدة تصلح للطائرات والغواصات والمدمرات

واذا كانت ايطاليا قوية في القلب ضعيفة في الجناحين فانكلترا قوية في الجناحين ضعيفة في القلب . فليس لها في وسط البحر الا مرفأ فاليتا في جزيرة مالطة . ثم ان مالطة فقدت بعض قيمتها الحربية لقربها من قواعد الطائرات الايطالية ، ولكن اذا حسبنا ان عمل قاعدة بنزرته الفرنسية في تونس يكمل عمل مالطة كان من الحتم علينا أن نقرر ان فرنسا وانكلترا اقوى في القلب مما كان يظن . واعل بنزرته نفسها في أبدع موقع لقاعدة بحرية في البحر المتوسط كله . والحكومة الفرنسية تقوم هناك بانشاء حصون عظيمة الشأن ، وهي لقربها من سواحل ايطاليا الغربية تصلح أن تكون مقرًّا تقوم منه الحملات الجوية والبحرية على ايطاليا

هذا وان أجاشيو في جزيرة كورسيكا وطولون قاعدتان بحريتان عظيمة الشأن وتكملان العمل الذي تقوم به بنزرته

ولذلك يمكن أن يقال بوجه عام ان القوات البحرية الانكليزية والفرنسية في البحر المتوسط والقواعد البحرية التي تستند اليها تمكن الدولتين من الاحتفاظ بمكانتهما البحرية المتفوقة فيه

والخلاصة ان مشكلة القوة البحرية وتوازنها في البحر المتوسط لا تقوم الا في حالة نشوب نزاع بين ايطاليا من جهة وانكلترا وفرنسا من جهة اخرى . فاذا حدث ذلك فالطريق الدولتي لندن وباريس الا ان ايطاليا تستطيع بموقعها الجغرافي وطائراتها ان تقطع الطريق البحري بين غرب البحر وشرقه ما زالت لم تغلب على امرها

راجع مقال « البحر المتوسط في التاريخ » مقتطف فبراير ١٩٣٥ صفحة ١٦٠ ومقال « مشكلة البحر المتوسط » مقتطف اكتوبر ١٩٣٧ صفحة ٣٣٠

مكتبة المقتطف

كتب قرأتها

صقر قريش

دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب
بالداخل مؤسس الدولة الاموية بالاندلس تأليف
الاستاذ علي أدهم صفحاته ١٢٨ طبع مطبعة المقتطف

ما قرأت كتاباً في سيرة بطل من أبطال التاريخ ، أو عظيم من أصحاب الفتوحات ، الا وشعرت بانقباض الصدر من وحشية الانسان ومن تفجر روح الشر وانبثاث أصول الجريمة فيه ، وكثيراً ما قلت في سري ، ان روح الخير انما هو اسم لمسمى لا وجود لهُ البتة في نفوس من تواضعنا على تسميتهم بالابطال والعظماء ، وان العظمة والمجد والخلود التي لصقيها ألقاباً مبجلة انما هي نتيجة ضعف في نفوسنا المريضة ، وصور للخوف والاستسلام والاستكانة للطاغية ، وكثيراً ما أعدت أسباب هذا الانقباض النفساني الى مؤلف سيرة البطل نفسه وقد ساقتهُ همجية الحادثات معها ، ولم يقوَ على صد نفسه عن الانزلاق في وحشية الوقائع ، ولا تحرير عقله من التأثرات الباطنية ، فعرض موضوعه عرضاً أشعر القارىء انهُ يخبط في برك من دماء مستنقعة حول القصور والمنازل ، ويموج في مياهات عامرة تتراكم فيها الاشلاء تنبث منها روائح النتن ، والرمم يعلوها البلى والانحلال ، ومما لاحظت ان أنياب الجريمة والشر تبرز في نفس الطاغية الاديب أكثر مما تظهر في الطاغية الذي لا يحفزه خيال مبدع ولا يدفعهُ الى المغامرات سوى دافع حب المجد ، واشباع الانانية اشباعاً مطلقاً

قل بين كتاب التراجم وسير الابطال من نظر الى روح أعمال الرجل العظيم قبل تدوين وقائعها ، والى ملاحظة تكوينه ودراسة عصره وبيئته دراسة عالم باحث منقب متجرد ، وعمل بحرية وجرأة على اظهار ظروفها ودواعيها ، ملابساتها وخفاياها ، مقدماتها ونتائجها ، وقل صحة سير الباري ليضعك مع المؤرخ والمقارنة ، والمفاضلة والحكم على المترجم لهُ او عليه كما فعل مؤلف كتاب صقر قريش

لقد تناول صديقنا الفاضل الاستاذ علي أدهم بالبحث والدراسة شخصية من أبرز الشخصيات الاسلامية جمعت بين خيال الاديب الخالق ، والمصلح الاجتماعي ، والطامح الى استرداد ملائه كان موطداً في سبيله وأرومته انزعهُ منهم من هم أقوى وأقدر ، شخصية عبد الرحمن ، الملقب بالداخل ، المعروف عند سادة العرب بصقر قريش . وان في اصطفائه هذه الشخصية الشاذة ،

الجاسة بين الاشياء واضدادها ، الدالة على البشرية بأوفر معانيها ومظاهرها ، ومحاولته الاحاطة بها من جميع جوانبها ، وابرازه عناصرها الثمينة والخسيسة ، وخصائصها الميكانيكية البشعة والسامية السمحاء ، وعظيم مقدرتها على القفز من الوفاء الى الغدر ، والانقياد والامتناع ، والكره والرضى وغير ذلك من الاضداد بدون ما ترفع او تذبذب ، وفهمه مثار الانفعالات النفسية فهماً لا تشوبهُ شائبة تشكك ، انما هو تجديد في أدبنا العربي في دراسة الشخصيات البارزة على أضواء أحدث العلوم العصرية

والعلوم الحديثة في الحركات التاريخية ، السائرة عفواً الى غاية مجهولة ، تسعى الى معرفة هذه الغاية والقبض على كل فكرة تتناثر عنها . وقد توصلت العلوم الحديثة باجلاء الغوامض ، وتبديد السحب ، وجعلت تاريخ الانسانية سلسلة من افكار توالت على الدنيا بدون انقطاع

ولظهور الفكرة التي تتناثر عن الغاية الكبرى طرائق عدة منها : « انبعاث الغريزة التاريخية طموح العظيم لتحقيق الفكرة » «والايحاء الى الافراد الذين تسميهم أبطال التاريخ واتخاذهم رواداً للفكرة رطلائع لها » فسعد الرحمن اذن من العظماء لانهُ حقق فكرة عصره ، وقام بأكبر واجب زمنه ، وكان يخضع لعاطفة قوية مسلطة على الغرض الذي يتطلع اليهِ العصر ، فعبرة بطل ليست في الذرائع التي تذرع البطل بها ، بل في تحقيق الفكرة

« ومما يثير حبنا للابطال العظماء وعطفنا عليهم ، ان نهاية اكثرهم كانت اشبه بالمأساة ، فان الفكرة تتبدهم بعد تحقيقها » فكتابة سيرة البطل اذن ، ليست تأريخ ساعة مولده ويوم وفاته ، ولا معرفة مواقعه الحربية وغزواته جيرانه ، واستلاب الضياع ، وسبي النساء ، وكسب الابل والاتن والسائمة ، والتنكيل بالخصوم ، وذبح الآلاف من الاعداء ، انما هي نبش الطلل التي سوغت كل هذا ومهدت لتحقيق الفكرة الاصلاحية المرتكزة في ضمير البطل التي اوحتها مطالب العصر

***

كانت اسبانيا في ذلك الوقت مختلة الاحوال ، قد تطاول على اهلها الجور ، وتمادى بهم الشقاء «وكانت هناك اقلية من الاغنياء المستأثرين بالامتيازات والمنافع ، وأكثرية مهملة مطرحة تعاني الفاقة والحرمان ، وكان اشراف الرومان ، وقد صدئت سيوفهم في اغمادها » اخذوا «يعيشون عيشة مترفة مخلدين الى الدعة منهالكين على اللذة »

وعندما قبائل البربر على اسبانيا ، فوجدت الطريق سهلاً ممهداً ، فكانت هذه القبائل تسرف في السلب والنهب والتخريب ، فيئس الشعب من الخير والاصلاح ، لا يبالي أحكمهُ الرومان ام ساس امره البرابرة . ثم توانت نكبات الحاكمين والمحاكمين ، واستحكمت العداوة

بين المغيرين الغاصبين ، فأودت بهم النكبات الى اقتراف الخيانة العظمى بالذهاب الى موسى ابن نصير حاكم افريقيا العربي ، يزين له الاندلس ، يغريه بخيراتها ويحفزه على غزوها والاستيلاء عليها

تهيأ الاسبان ظل حكومة عربية أبرّ بهم من سائر الحكومات السابقة ، وكان اكثر الحكام ينتسبون الى احدى الشعبتين الكبيرتين من العرب وهما قيس من الجنبة واليمنية ، وكانت سيوف هؤلاء العرب لا تغمد مرة الاّ لتسقي مرات من اقربها لتروي من دماء العرب انفسهم ولو ساد التفاهم وتم الوفاق بين القيسية واليمنية ، لامكن اسبانيا ان تحظى بأيام هنيئة بالصفاء بعد تلك الخلافات المتأججة والمعارك الحامية »

ظهر عبد الرحمن ، الدمشقي المولد وأمه بربرية في الوقت الذي تمت فيه كلمة العباسيين وأخذوا يتقبون أثر بني امية ويسلون فيهم القتل والتنكيل

فرّ عبد الرحمن الى افريقيا حيث نفوذ العباسيين هناك قبل الاستداد ، وهنا تبدأ رواية مسلسلة ، تامة الوحدة ، منسجمة الحبك ، سامية السياق ، فصدها فصل الاستئناد على أمم واستخلصها من وعورة التاريخ وجفاف روحه ، فهدها ، فصيّرها لينة المسالك ، مقبولة المحضر لا تستكره العين مرأى الدماء المستباحة ، ولا تشفق على شعب عربي فتح الامصار ، ودوّخ الجيوش ، ونشر الدين الاسلامي ، وانتهى نهايته المعروفة « لانهُ لم يكن شعباً قد تمّ امتزاجه وكملت وحدته ، وتلاقت اهواءه » وان القارىء قد ينتحل الاعذار المسوغة لظلم عبد الرحمن الداخل وقسوته « لفارق الكبير بين مزاج البربري النزاع الى عمق العاطفة الدينية ، يأخذ الدين مأخذ الجدّ الصارم ، ويوغل فيه بغير رفق ، وهو شديد الاعتقاد ، كثير التصديق لما وراء الطبيعة ، وبين مزاج العربي الذي لا يطيق الاسراف في الدين ، ولا يأخذه مأخذ الجدّ الشديد العبوس »

أجل ، لقد توفق الاستاذ علي أدهم عبد له من مقدرة على تسليط اضواء عقله على كل حادث صعب او سهل ، والنظر اليه نظرة مجردة ، والموازنة بين المسائل المتخذة والنتائج المرتقبة ، والبادئات والاغراض المرتبطة بالفكرة ، المتأثرة من الغاية الكبرى ، أقول قد توفق الى إخفاء حدة النزعة البشرية فيما التي ترى الواقع وتحس أثره في النفس وقعاً تأبه الى البواعث والذرائع وتحقيق الغرض ، وجعلنا نقتنع ، بمقتضيات الحرص على النجاح ، وتبرير الخصوم والاعداء ، انها هي التي جعلت صقر قريش لا يتعفف عن الغدر والخيانة ، ولا يتورع عن الدسيسة ، ولا يحجم عن الشدة المتناهية ، وهذا — في زعمي — من احسن ما بلغ اليه عقل عصري مستنير في المعرفة ، والتوضيح ، والتبسيط والاقناع . واليك نبذة من ذلك قال : —

« جاء عبد الرحمن الاندلسي طريداً قد شرّده الخوف ، واقتفتهُ المطاردة ، فلم يجد أمة موحدة القصد ، متحدة التقاليد متقاربة الاخلاق ، بل وجد على نقيض ذلك اخلاطاً من الامم ، وأغاطاً متباينة من الناس ، فقد كانت اسبانيا عند دخوله خليطاً غريباً من بقايا الرومان والاسبان القدماء والقوط والنورمنديين والعرب والبربر ، لا جامعة قومية تربطهم ، ولا مصلحة مشتركة تعين على إدماجهم ، ولا عقلية متشابهة تسيطر عليهم وتسيرهم ، فكان جل مارمي اليه وعمل على تحقيقه هو ان يخلق منهم امة واحدة »

***

لم يكتف الاستاذ علي أدهم بتطهير حوادث التاريخ من روائع الدماء وتزويق صور الوحشية الآدمية فيها وتحويلها الى قصة سلسة ، تملو فيها الجوانب الاصلاحية والاجتماعية على جوانب المجد الذاتي والانانية الفردية ، بل استخلص صوراً فنية من جوانب حياة عبد الرحمن الفتان « الجلاد الرهيب ، والسفاح المليح ، المستطار الوجدان ، والمستفز العاطفة » وفرق بين طراز رجل العمل وطراز الشاعر — وكان عبد الرحمن اديباً شاعراً وخطيباً ومحدثاً — فقال مقالة جيتي شاعر الالمان الذي صوّر الاول رجلاً مثل الاغراض ، محدود القصد ، متزن الملكات . وصوّر الثاني رجلاً عاجز الارادة ، تلعب به اهواؤه ، وتستبده عواطفه ، فهو يسير بالحياة على غير هدى ، ليصل بعد استعراض سجاياه وخلائقه انهُ كان رجل عمل دنيوي كقومه الذين كانوا في الجاهلية أصحاب تجارة ، وفي الاسلام انتزعوا الملك بالحيلة والدهاء والعصبية للتماسك ، وعالجوا صناعة الحكم ، ليقول بلباقة الاديب الحريص على ألا يمس تفنن الاديب ونجيزته ، إذا توفر الروح الادبي في الرجل الطموح ، فان الادب ، وسعة الخيال ، تدفعان به الى ركوب كل مركب تحقيقاً لغاية المجهولة التي تتثاءر عنها « الفكرة » لتستقر في ضمير البطل العظيم فيحققها على أتم وجه وأكمل معرفة

والآن وقد تيسر لي بعض ما أود قوله في هذا الكتاب الذي أحسن صديقي الفاضل رئيس تحرير المقتطف جعله احدى هديتيه السنويتين الى قراء مجلته ان أدعو القراء الى الحرص على اقتناء هذه المتعة الفنية والتاريخية والنفسية والافادة منها لانها زاخرة بالبحوث الناضجة ، والدراسات المختمرة ، وهي مثال لمن تحدثهم نفسهم في كتابة التراجم والنقد ، واستحثهم بنوع خاص على قراءة فصول فيه عنوانها « معيار البطولة ، والايام الاخيرة ، وعبد الرحمن الفتان ، وتقويم وتقدير » لان كل فصل على حدته خليق بأن يكون كتاباً بل فنية يستمد منها المتأدب والاديب

القاهرة حبيب الزحلاوي

أقاصي الفردوس

ديوان شعر لالياس أبي شبكة سنة ١٩٢٥ صفحة من قطع المقتطف الكبير صدر عن دار المكشوف
طبع مطبعة الآداب في بيروت

كان للحرب العظمى أثرها في الافراد كما كان لها أثرها في الأمم. ولقد هزّت عروش الاخلاق كما هزّت عروش الملوك؛ فزعزعت في النفوس عقائدها، واطلقت الغرائب من عقالها، وأصابت المُثُل العليا في صميمها. فخرج الناس عن طورهم، وطفت عليهم موجات الاستهتار فاندفعوا يقوّضون ما في طرائقهم ويحطمون ويغيرون ويبدّلون لا ترضيهم قرة ولا يصدهم خرف

وكما ان الحياة الاجتماعية قد تأثرت بهذه الثورات فقد تأثرت بها آداب الأمم الغربية كل التأثير فنشأ جيلٌ ثائر الذهن حادُّ الاعصاب صريحٌ كل الصراحة ساخطٌ قلقٌ متشائمٌ حرّ النزعة والفكر لا يقف عند حدٍّ ولا يهاب صعباً ولا يبالي بشيء

ولقد سرى تيار هذه الثورات من الغرب الى الشرق شكلاً تأثيراً شديداً وقعاً حيث أصاب الناس في روحانياتهم وجرف في طريقه كل ما تقدّسوا وما حرصوا في المحافظة عليه، فتغيرت الاذهان وتبدلت أساليب الكتابة وتنوعت موضوعاتها. وقامت الصراحة في النفوس مقام النفاق فانطلقت القرائح غير هيابة تطرق ما لم يكن لها ان تطرق وتكشف في جرأة كل ناحية من نواحي الحياة

لقد حالت هذه الخواطر في ذهني وأنا أقرأ ديوان « أقاصي الفردوس » التي أخرجته للناس حمأ سائلاً شاعرٌ قويّ العاطفة مشبوبها قوي الشاعرية الى بعيد حد. ما تحسّ في أحرفه النار تلفحك، وتشعر في جوه بالهامات صاعدة هابطة لا تنقطع زعزعها صريحٌ فيها يبالي الناس الصراحة به، مصورٌ للثورة العنيفة التي تجتاح نفوس الشباب اروع تصوير. ممزّق للقناع الخادع والمظهر المنافق. ذلك هو الياس أبي شبكة شاعر لبنان الجديد بل بلبله الأدنى بغير

قد تناول شعراء العربية تصوير الحياة البوهيمية في أحضان الشهوات. ولقد ترك لنا ابو نواس على الاخص اكبر أثر لذلك على ان هذا التصوير حسّي محض ينبعث من الجسد الى الجسد في انحطاط وزراية ولا يسمو الى الروح أو يشتمل بخواطرها، ولا يعبر عن الصراع في النفس بين عوامل الخير والشر، لا يعنى بالجوهر قدر ما يعنى بالعرض. ولكن « أقاصي الفردوس » يعبر عن كل هذا. ففي قصيدته « القاذورة » اروع صورة للحياة البوهيمية الطافية على ظلمة رغباتها اذ يقول:

فصوّفت في غمر من الليل، والحتا ... يعربد والارجاس ترعى وتربدُ
وللحمر الغالي اشيش ورغوة ... كأن الثريا سكرى ينهدُ

وأغمدتُ في صلب الدجنة ناظري وفي كل جفن لي من الهدب مبردُ
فأبصرت اطباقاً تُعمِّدها يد أصابع من عظم ، وتصبغها يدُ
صباغ يغور الخزي منهُ ملاصقاً اذا علقت فيها النواظر تجمدُ
وشاهدت في الاطباق منضدة الورى تُمور بها الديدان سكرى تمربدُ
هم الناس في الدنيا تهاويل حنّطت بكيتُ عليهم في جحيمي وعيّدوا
وما هذه الدنيا ، يذرّي رمادها لريح الفنا ، الا جحيم مرمّدُ
تلاشت بها النيران غير بقية تشبُّ ، لها في شهوة الطين موقدُ
ففي طبق مستنقع في صقيعه نمت حشراتٌ فاجرات توقّدُ
نساء أقمت في الصدور مراضعاً على فيها الورديّ للاثم مورد
مراضعها نطفاء فهي ضفادع على ما بها من شهوة النار مجلد !

وان قصيدته « سدوم » لمن أروع ما كسب الشعر العربي . وفيها تصوير لمظاهر الأعماق بين الحياة المستهترة في مدينة العصر والحياة المستهترة يوم صب الله على سدوم نار غضبه فأطفأها لهباً وسعيراً . وفيها يهتف ساخراً :

مثاكِ ملتهبٌ وكأسك مترعهْ فامشي أباك الخمر واضطجعي معه
لم تبق في شفتيك لذات الدما ما تذكرين به حليب المرضعه
قومي ادخلي يابنت لوط على الخنا وازني فان أباك مهّد مضجعه
ان ترجعي دمك الشهيّ لنبعه كجدول في الارض راجع منبعه
لا تيأسي بعتاب ربك انهُ جرثومة من نارك المتدفقه
في صدرك المحموم كبريت اذا لمست به الشهوات فجر أضلعه
في صدرك الدامي مناجم للخنا أورثتها نار الذراري المزمعه

الى ان يقول : —

أسدوم هذا العصر لن تتحجبي فبوجه أبيك ما برحت متنعه
كانت منكرة كوجهك عندما خبثت عليها من جهنم زوبعه
قذفتك صحراء الزنى بحضارة تكلى مشوّهة الوجوه مفجّعه
بؤر مسمّرة الفساد بخدعة نكراء بالخزّ الشهيّ مرقّعه

ثم استمع الى التصوير الدقيق للثورة الجامحة أو التطاحن بين الروح والجسم وقد بلغ الشاعر في تصويره هذا الى ابعد حدود الدقة والتعبير تطاوعه الفاظ مصهورة في اتون هذه العاطفة المشبوبة:

أسيلة النحشاء نارك في دمي فتضرّمي ما شئت ان تتضرمي

أنا لست أخشى من جهنم جذوة ما دام جسمي، يا سدوم، جهنمي
طوّفتِ بي سيّاً بأروقة اللظى فحملتُ تابوتي وسرت بمأتمي
وعصبتِ بالشبق المجنّح جبهتي فرفعتها في عصريَ المتهكم
علمتني لغــة الشوكة عندما فجرت الغام الســموم بمنجمي

وكذلك في قصيدته « الشهوة الحمراء » صورة لهذا التضاد وان كانت هادئة النفس محطمة الآمال يائسة يهتف فيها بحسرة ومرارة

لقد تعبتُ من الاحلام في جسدٍ ملّ العفاف بألوان من الألم

أما قصيدتهُ « تمثيون » فمن خالدات قصائده ، وفيها يصوّر لنا ثورة تمثيون وهو يتقلب بدليلة عند ما اسلك بأعمدة الهيكل ليقوضهُ :

وارقصي ايها البراكين تحتي تحت رجليك كالجحيم النذير
اصبح الليث في يديك اسيراً فاطرحيه سخرية للحمير
واجعلي الغل ومن كل صريع واليواقيت ومن كل غدور
ان اكن سقت في غرامك شرًّا فالبرايا مطيــة للشرور

اما قصيدة « الصلاة الحمراء » فهي اغنية القلوب التي انحتها الجراح وحطمتها الأيام بعد ان عصرتها الليالي ، او هي الشودة الروح اذا خلصت من احضان المادة

وكذلك في قصيدة « الديمومة » و « الطرح » تحس النسامي وتحس الوصول الى التحرر كما تحس المرارة التي تلازم الروح بعد حلاوة التشوفات الاولى وبعد ان تبلوّ الحياة

ان ديوان « اغاني الفردوس » جدير بالحياة لانه صوت للحياة لا رياء فيها ولا تزويق ، ولا خداع فيها ولا تهويل . وهل هناك ما هو اصدق من هذا البيت لشاعرنا الذي شكك في تصوير العالم الدنيوي ، وهو :

طريقه الشك - اني سار - يلكه وحلمه الشهوات الحمر والقرب !

حسن كامل الصيرفي

عصفور من الشرق

حين كتب الاستاذ توفيق الحكيم « عودة الروح » و « اهل الكهف » و « شهرزاد » اطمأن محبو الادب الى ما كتب وراحوا ان يكون همزة الوصل بين ادب الغرب وأدب العرب . وقد عرض في كتابه الاخير « عصفور من الشرق » لمشكلة « الشرق والغرب » وأنت لن تعدم في الكتّاب الغربيين اقسمهم من قام على نقد النظم الاجتماعية والاقتصادية التي يقوم عليها المجتمع الاوربي الحديث نقداً قويًّا لاذعاً يمهد لقيام الثورات احياناً . أما الاستاذ توفيق الحكيم فانه

اراد أن ينقد هذه النظم الغربية بين « الشرقي » فصور لنا مصريًّا في عهد الشباب يعيش في قلب العاصمة الفرنسية . يغشى الكنيسة فيؤخذ بروعة الخشوع والصلاة ويعجب كيف يدخل الاوربيون الكنيسة كما يدخلون المقهى دون اعداد خاص . ويغشى المسرح فيعجب برواية «الارلزية» ، وأنهاء الموسيقى فيعجب بسنفونية « بتهوفن » الخامسة اعجاب صديقه الروسي « ايفان » بشراب « الفودكا » وتلستوي او أشد ولكنه يأخذ على الحاضرين وعلى البهو الاغراق في البذخ والاسراف في الترف اسرافاً لا يتفق مع التجرد وروحانية الفن

وقد أحب « محسن » فكان في حبه على أشد ما يكون حياء الشرقي وخياله حتى اذا أخفق في حبه أو غدرت به من يحب أخذ يجتر ألمه وانقلب ساخطاً لا على نفسه وانما على الغرب ومدنيته . ولعل هذا الاخفاق في الحب قد جعل من « محسن » « عدوًّا للمرأة »

وماذا يأخذه محسن على أهل الغرب ؟ ان صديقه أندريه الذي يعمل في المصنع ثماني ساعات في اليوم ويشعر انهُ عبد رق ثم هو يأكل لحم البقر ويختلف الى المقاهي والمسارح ويأكل ابنه « الجانو » وتتكفل الدولة بتربيته ان لم تستطع أمهُ تعهده في المنزل ، هو دون شك أسعد حظًّا في حياته من الفلاح المصري أو العامل المصري . وغريب ان يذكر « محسن » من أحوال الشرق في معرض المقابلة جلوس « سليم » الساعات الطوال ليلمع طرف ثوب حبيبته ولا يذكر شقاء الفلاح وبؤس العامل . ويستمع المصور الى أحاديث صديقه الروسي عن أديان الشرق وأنبيائه ومذاهب الغرب وزعمائه فيخرج من ذلك كلهُ بأن الشرق قد حلَّ مشكلات المجتمع الكبرى حين جعل مملكة السماء من نصيب البؤساء في هذه الارض كأن هذا الشرق الروحاني لا ينوء بمشكلاته التي كادت تذهب بريحه . الاَّ ان الشرق لأجدر بالبكاء اذا جاز للغرب ان يرفع عقيرته بالشكوى

واذا تركنا الموضوع الى الشكل فالكتاب فصول متتالية تجمع بينها هذه الفكرة الغالبة عن روحانية الشرق ومادية الغرب ، وهو ليس قصة كاملة لها عقدة تأخذ في سبيل الحل الى خاتمة حاسمة

وانجد فيها المصور يردد في براعة ما يسمع من العباد فأنت لا تدري أأثر هو أم قائم وعقله لم يفكر و تفاعل أم تشاءم . ولو قدر لهذا المصور ان يتحدث بلسان من ألسنة أهل الغرب لما كان في حديثه جديد على أهل الغرب . ولو انهُ تحدث الينا ونحن اهل الحديث عن هذه الازمة النفسية . وألوانها الدقيقة التي يحسها الشرقي المتشبع بشرقيته الروحانية اذا القمر فجأة في الغرب وحضارته المادية ثم تتبع هذه الازمة الى نهايتها من رجوع الى الحضان الشرق ، او احتماء بالتصوف ، او تشكل على غرار الغرب يختلف عن حيث سرعته وبطئه او شدته وضعفه — لو انهُ فعل لجاء في حديثه بالجديد الطريف على أهل الشرق والغرب ولعل

الاحتماء بالتصوف هو السبيل الذي يضطر الى سلوكه أدباؤنا اذا خيب المجتمع او الواقع آمالهم. فلم يثبت منهم أحدٌ الى الآن لنقد المجتمع المصري ومهاجمته في كافة نواحيه الخلقية والسياسية والاجتماعية فهم سرعان ما يستولي اليأس على نفوسهم ولا يتمثلون بالابطال من كتّاب الغرب فيكفون في عالمهم الداخلي لا يخرجون منهُ الاَّ ناماً . وهو سلوك لا يحمد لأدباؤنا ولا سيما من كان منهم على صلة وثيقة بالحضارة الغربية ولا يتفق مع الرسالة السامية التي يؤديها الكتّاب للوطن والمجتمع على أننا نحب ان يكون لهذا العصفور من الشرق صِنوٌ «وعصفور من الغرب »

« صقر دمث »

في الفنون الاسلامية

للدكتور زكي محمد حسن — مطبوعات اتحاد أساتذة الرسم قطع متوسط — عدد صفحاته ١٠٨ — مطبعة الاعتماد

لئن كانت الفنون الشرقية قد اسدل عليها ستار من النسيان ردحاً من الزمن الاَّ اننا نراها اليوم تعود سيرتها الاولى من النمو والانتعاش

وردت هذه العبارة في الكلمة التي كتبها رئيس اتحاد اساتذة الرسم صاحب العزة الاستاذ احمد شفيق زاهر بك تصديراً لكتاب «في الفنون الاسلامية» للدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية الذي صدر في صيف هذا العام . فعلى عاتق من يا ترى تعود اليوم الفنون الاسلامية الى سيرتها السابقة الاولى كما كانت في عصور الامويين والعباسيين والفاطميين والسلاطين والمماليك

لا شكَّ في ان الفنون الاسلامية بحثت في خلال القرن الماضي على عاتق رجال الفن والاستشراق الالمان والفرنسيين والانجليز . وهي تهب اليوم من مرقدها على عاتق علمائنا الناشئين الذين تذوقوا الفنون الاسلامية واخذوا في دراستها والبحث عن جمالها الفائض والتنقيب في آثارها . ونحن نرى في طليعة الركب بين هؤلاء العلماء العاملين والمتحمسين لخلق ثقافة للفن الاسلامي في مصر — الدكتور زكي محمد حسن أستاذ الفنون الاسلامية في معهد الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية والذي يعرف قراء المقتطف والمتصلون بالحركة العلمية في مصر

وحقيق ان دار الآثار العربية أصبحت على رأس المتاحف التي تقوم برسالتها العلمية خير قيام بفضل عملها في نشر الثقافة الفنية بما تصدره من مؤلفات علمية جمتها محط رجال المشتغلين بالآثار الاسلامية في الشرق والغرب . ومن حسن الحظ اننا نقرأ بين كل حين وآخر عن كتاب في الآثار والفنون الاسلامية يخرجهُ الدكتور زكي أو محاضرة في الموضوع نفسه يلقيها الدكتور زكي او مقال ينشره هو أو بعض زملائه المتحمسين النابغين . . . . . .

والكتاب الذي نحن بصدده اليوم صورة لما يجب ان يعرفهُ كل متذوق للفن الاسلامي عن نشأته وتطوره . ففيه يتحدث المؤلف عن نشوء الفن الاسلامي وانتشاره وأساليبه المختلفة في البلدان التي عم الاسلام فيها : — من طراز اموي الى طراز عباسي الى طراز اسباني مغربي الى طراز مصري سوري فطراز فارسي فتركي فهندي ....

وبعد ان تكلم المؤلف عن ميزات كل طراز انتقل الى وصف عناصر الزخرفة الاسلامية واهمها الصور الآدمية والحيوانية والرسوم الهندسية والزخارف النباتية والزخارف الخطية

وذكر المؤلف بعض خواص الفنون الاسلامية كما درسها على ضوء المخلفات الفنية في المتاحف او الحفريات فذكر من هذه الخواص كراهية الفنان المسلم للفراغ وحبه للزخارف المسطحة وتكرار الموضوعات الفنية . . . الخ. ويشتمل الكتاب على ثلاثة وخمسين لوحة تمثل الفنون الاسلامية في العصور المختلفة كالخزف والنجارة والنسيج المفارز والتجليد والزجاج والقاشاني . . . الخ

وقد طبع هذا السفر النفيس طبعاً متقناً على ورق مصقول مما زاد في رونق الكتاب وبهائه فلا يفوتنا أن نتقدم الى أحاد اساتذة الرسم — وعلى رأسه الاستاذ الجليل احمد شفيق زاهر بك — وافر الشكر على عنايته بالعمل على تشجيع الدراسات الفنية وان تمنى ان يكون التوفيق حليفه وان تكلل جهوده بالنجاح فيكون هذا الكتاب فاتحة سلسلة طيبة في الفنون

« عبد الرحمن »

ابن سينا الفيلسوف

تأليف الاب بولس سعد — طبع بمطبعة الاتحاد على السور ببيروت ١٩٣٧ في ١٣٦ صفحة قطع متوسط

نشر هذه الرسالة الاب المحترم بولس سعد عن « ابن سينا الفيلسوف » وابتدأ الكتابة بحديث عن بيئة ابن سينا وما للبيئة من اثر في تكوين الفرد الى ان قال « ولقد اقر علماء البيولوجية على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ان للبيئة في حياة اناء آدم اثراً بالغاً ... » وفي هذا الفصل ذكر تنافس الفرس والعرب والاتراك وما لهذا التنافس من أثر في حياة ابن سينا . وفي الفصول التالية ذكر نبذة مفيدة عن حياة ابن سينا من الوجهة العامة والخاصة . ثم ابن سينا العالم وباحثهُ في المنطق — طبيعيات — النفس — الله والمعلول — ونبذة عن الوجود الالهي وآراء هذا الفيلسوف العظيم او ارسطو « الاسلام » كما سماه المؤلف الفاضل، في خالق الكون وآرائه عن حدوث الكون وكيف ثبت والعناية الالهية وفي الفصل الاخير اورد نبذة عن سياسة ابن سينا بين السياسيين

لقد تصفحت هذه الرسالة النفيسة فوجدتها سفراً مفيداً كاملاً عن حياة وآراء الفيلسوف الايراني الاكبر في مختلف المباحث الفلسفية والطبيعية والالهية ونحن نشير على قرائنا الافاضل الذين

لم نسمح أوقاتهم بمطالعة ما كتب عن ابن سينا في مختلف الكتب أن يقتنوا هذه الترجمة السعيدة لمطالعة هذه الرسالة التي تبحث أطوار حياة ابن سينا وما أسداه من خدمات للعلم والفلسفة

« رائدة »

علم النفس في الحياة

تأليف ماشو ترجمة نظمي خليل ، ٢٤٠ صفحة — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر أخيراً كتاب علم النفس في الحياة الذي نقله الى العربية الاستاذ نظمي خليل وقدم له الدكتور عبد العزيز القوصي فقال :

« كان علم النفس قبل الخمسين السنة الاخيرة فرعاً من فروع الفلسفة ، يتخير الباحث فيه المكان الهادىء فيسند رأسه الى يده ، ويطلق العنان الى فكره يحاول ان يهتدي الى موضع العقل أو يقف على خواصه وصلته بالروح وعلاقته بالجسد ، او يجزه منه وهو الخ . وهكذا يترك الباحث عقله يضل في شعاب التفكير على غير طائل ، فيدور في دائرة صغيرة مقفلة لا يعرف اولها من آخرها ، وقد يصل الى أشياء يخيل اليه انها صحيحة فيأخذ بها ويطمئن اليها ، حتى اذا ما جاء باحث آخر وسلك بعقله طريقاً مغايراً للطريق الاول ، وصل الى أشياء مخالفة للأولى كل المخالفة

« ظل الامر على هذه الحال حتى قرب نهاية القرن الماضي فتحولت نظرة العلماء الى علم النفس وتبع هذا تغيير كبير في طريقة البحث والاستقصاء . فبعد ان كانوا يبحثون في خواص العقل والنفس بدأوا يبحثون في مظاهر سلوك الانسان في الحياة

« ولقد ظهرت كتب عدة تعالج هذه الناحية التطبيقية الهامة في حياة الانسان من بينها هذا الكتاب الذي شمل على صغر حجمه ميادين واسعة من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، وعالج هذه المشاكل البارزة التي تكتنف حياة جميع الافراد — رجالاً كانوا او نساء — بلغة تجمع بين القوة والجمال ، وطريقة تجمع بين الاسلوب العلمي الهادىء وبين العرض الادبي الاخاذ

« يبدأ الكتاب بالتحدث عن الاسس الاولية التي تتكون منها الشخصية ثم طريقة هذا التكوين ، ثم يعرض الى رغائز تلبية الحاجات العضوية والحاجات الضارة . ويتخلل هذا الكثير من التفسيرات الصحيحة لغرائب السلوك عند الكبار والصغار ، فهو يفسر لنا سلوك من نقابل من إخوتنا واطفالنا وأصدقائنا وتلاميذنا وزوجاتنا ورؤسائنا ومرءوسينا ، كما يفسر الكثير من سلوكنا الخاص ، ويدخل في هذا السلوك من القوى والدوافع ، شعورية كانت او لا شعورية ، فطرية او مكتسبة . ولا ريب ان هذا النوع من المعرفة يجعلنا اقدر على التعامل مع غيرنا ، ويجعل حياتنا اكثر احتمالاً ، وسعادتنا اقرب منالا

وخلاصة القول ان هذا الكتاب الصغير يفيد كل قارئ رجلاً كان او مرأة مهما كانت درجة ثقافته . فنقدمه الى القراء راجين منه النفع ، وراجين من الله المدد الكبير »

مؤتمر المستشرقين

العشرون

أهم ما تلي فيه من المحاضرات

[تابع المنشور عن الصفحة ٤٨٤]

« كتاب الامتاع والمؤانسة » للاستاذ احمد امين (من مصر) . (وصف المحاضر هذا الكتاب وهو مخطوط مخزون في الخزانة الزكية لاحمد زكي باشا وذكر السبب الذي من أجله ألفه ابو حيان التوحيدي وقال ان لجنة النشر والتأليف والترجمة ستخرج الجزء الاول منه بعد اشهر معدودات) — « ثلاث مخطوطات » للاستاذ عزام (من مصر) . وصف المحاضر هذه المخطوطات الثلاث وهي في التاريخ والادب والشعر وترجع الى عهد المماليك) — « تعاون الشرقيين والمستشرقين على دراسة الادب العربي » للاستاذ شاده من (المانيا) . (ذكر المحاضر الشرقيين الذين عضدوا علماء الاستشراق في مباحثهم سواء بالتدريس او تأليف المعاجم وكتب قواعد اللغة أو نشر المؤلفات القديمة أو تدوين فهارس خزانات الكتب) . « مجرى الادب العربي في مصر لسنة ١٩٣٨ » للدكتور بشر فارس (من مصر) — (بسط المحاضر من باب التوطئة للمحاضرة الطريقة التي يجري عليها في نقد التآليف الادبية فقال انهُ ينظر الى هذه التآليف من الجانب الاجتماعي ليقيس مقدار الازمة المعنوية والثقافية والاخلاقية التي يعانيها الآن الشرق العربي وفي طليعته مصر . ثم نقد على هذا الاسلوب ستة كتب ظهرت هذه السنة في مصر وهي « في منزل الوحي » و « على هامش السيرة » و « سارة » و « في الطريق » و « سندباد عصري » و « عصفور من الشرق » — « دراسة تآليف الكندي الصينية ونشرها » للاستاذ جويدي (من ايطاليا) (أخبر المحاضر ان طائفة من تآليف الكندي تنشر الآن في بجمة علمية في روما مع دراسة وافية لها)

القسم التاسع — « بعض الديارات المصرية بحسب مخطوط الشابشتي : كتاب الديارات » للاستاذ عطية (من المانيا) — « المظاهر الاولى للحياة الدولية للاقليات الدينية » للاستاذ سيفريادس (من أثينا) — « النصوص الجديدة للأدب القبطي النيومي » للاب سيمرن (من ايطاليا » — « حول التاريخ الأقدم للخط النبطي » للاستاذ جوردمان (من المانيا)

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثالث والثلاثين

٣٨٩ حصاد الصيف في حقول العلم
١ — رؤية ما لا يرى
٢ — الأشعة السينية في الحيوانيات
٣ — الضغط العالي وخواص المادة
٤ — صنع فيتامين الحمض

٤٠١ تيسير قواعد النحو والصرف واللغة

٤٠٤ ملتقى الشعر والفلسفة: حول شاعرية المعري وفلسفته : لعلي أدهم

٤١٣ ابو العلاء المعري (قصيدة) : لالياس فرحات

٤١٦ الهيكل العظمي يدل على سلالة صاحبه وجنسه وقامته وعمره

٤٢١ الحركات العربية المنظمة وأثرها الادبي : لانيس المقدسي

٤٣٧ مصح ضهر الباشق: عمل انساني وقومي جليل

٤٤١ متحدي اينشتين في الهند : للسيد ابو النصر أحمد الحسيني الهندي

٤٤٦ مجالي الفكر الحديث في الفلسفة والعلم والسياسة
١ — فلسفة الاخلاق والسياسيات
٢ — العلم والمجتمع
٣ — بريطانيا وأخواتها وأمريكا وشأنهم
٤ — السياسة الغير

٤٦٠ موت سوسو (قصيدة) : لسيد قطب

٤٦١ الاسرات الحاكمة : للدكتور زكي محمد حسن

٤٧١ الميكانيكا الكلاسيكية : للدكتور احمد فؤاد باشا

٤٧٦ الكيمياء الضوئية : لعوض جندي

٤٧٩ الرسام حسين بدوي : عرض وتحليل لمحمد فهمي

٤٨٣ مؤتمر المستشرقين الشهير : لاحد تلاميذ الجاحظ

٤٨٥ حديقة المقتطف * صديقي ... للكاتب الالماني اوتو شتيفزلر : شهوة الذهب من ديوان أغاني الفردوس . لالياس أبي شبكة

٤٩٥ سير الزمان * توازن القوى البحرية في البحر المتوسط

٥٠١ مكتبة المقتطف * صفر قريش . أغاني ... مصطفى ... العلم في الشرق الاسلامي. ابن سينا الفيلسوف . علم النفس في الحياة

هديتا المقتطف سنة ١٩٣٨

صقر قريش

تأليف الاستاذ علي ادهم

دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل مؤسس الدولة الأموية بالاندلس وقد نهج المؤلف في كتابة هذا الموضوع منهجاً موفقاً عصريًّا فذكر سياسة وتاريخ وسيرة الامير عبد الرحمن ورحلتهُ الى افريقية ويأسهُ من تأسيس ملك بافريقية ثم دخوله الى الاندلس وأعمالهُ المجيدة فيها وشيئاً من أشعاره وقصته الخطابية وقوة عزيمته

١٣٠ صفحة كبيرة — ثمنهُ ١٠ قروش مصرية يضاف اليها اجرة البريد

نواحٍ مجيدة من

الثقافة الاسلامية

١ — التصوير واعلام المصورين في الاسلام للدكتور زكي محمد حسن

٢ — تأثر الثقافة العربية بالثقافة اليونانية للاستاذ اسماعيل مظهر

٣ — الاثر العلمي للحضارة الاسلامية واعظم علمائها للاستاذ قدري حافظ طوقان

٤ — الصلات بين العرب والفرس وآدابها في الجاهلية والاسلام

للدكتور عبد الوهاب عزام — ١٦٧ صفحة كبيرة و١٦ صفحة بالرونوغرافور

ثمنهُ ١٥ قرشاً مصريًّا يضاف اليها أجرة البريد

ملحوظة : ارسلنا هاتين الهديتين الى جميع مشتركي المقتطف الذين سددوا اشتراكاتهم لآخر ١٩٣٨

يادر الى تسديد اشتراكك تصلك الهديتان مع شكرنا

مؤلفات الامير شكيب ارسلان

يسألنا القراء عن مؤلفات عطوفة العلامة الامير شكيب ارسلان بك فنجيبهم وها نحن نسردها فيما يلي ونذكر أثمانها :

٨٠ حاضر العالم الاسلامي بمجلدين ضخمين	١٥ آخر بني سراج في تاريخ الاندلس
٣٠ الحلل السندسية في تاريخ واخبار الاندلس	٨ الامام الاوزاعي
١٥ السيد رشيد رضا او أخاء اربعين سنة	١٢ اناطول فرانس في بيئته
١٠ أحمد شوقي بك او أخاء اربعين سنة	٢٥ تاريخ غزوات العرب وفتوحهم في اوربا
١٠ ديوان الامير شكيب ارسلان	١٥ تعليقات وحواشي الامير شكيب على تاريخ ابن خلدون

وهذه الاسعار غير أجرة البريد . وتطلب مؤلفات الامير الجليل من المكاتب الكبيرة في القطر المصري

لاغنى ...
للسيدة في بيتها
والفتاة في معهدها
عن صديقتهما

الطالبة

مجلة شهرية

تبحث في شؤون المرأة والادب
والعلم والفن والرياضة
الاشتراك السنوي
عشرون قرشاً
الادارة — ٣ ميدان سوارس بمصر

خطاط الملوك

الاستاذ نجيب هواويني

يتولى فحص الاوراق المطعون فيها بالتزوير بمصر وغيرها من البلاد ويطلب منه كتابه « التزوير الخطي » لمعرفة الخطوط والاختام المزورة والصحيحة عربية وافرنجية ثمنه ٥٠ قرشا صاغا . وتطلب منه كراريسه « السلاسل الذهبية » التي تعلم الخطوط الجميلة بوقت قصير واسلوب مبتكر ومقررة في جميع المدارس ، وكتاب « المجلة » وهو مجلة الاحكام العدلية الصحيحة الوحيدة المصدق على صحتها من باب المشيخة الاسلامية مشروحة ومشكلة بقلمه

وهو يتولى عمل كليشهات وأختام وغيرها . ويكفي كتابة كلمة (مصر) في مخابرته ، أو مخاطبته بتليفون ٥٠٣٣٠

تاريخ اليقظة القومية عند العرب

وهو الحلقة الثالثة من كتاب الدولة العربية المتحدة

تأليف الاستاذ أمين سعيد

يحتوي على تاريخ مفصل لكفاح الاقطار العربية في سبيل الحرية والاستقلال

منذ اعلان الحرب العظمى سنة ١٩١٤ حتى الآن

صور مشاهير زعماء العرب الذين قادوا الحركات القومية في هذه المراحل وسيرهم

عدد صفحاته ٦٥٠ صفحة بالقطع المتوسط

ثمنه ٢٠ قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد ويطلب من مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

الجريدة السورية اللبنانية

الجريدة الرسمية للنزالة العربية في الارجنتين

تصدر صباح كل يوم من ١٦ صفحة باللغتين العربية والاسبانية

أنشأها الاستاذ موسى يوسف عزيزه في ١٢ ك ٢ سنة ٩٢٩

مديرها الحالي : أمين قسطنطين

رئيس التحرير المسؤول في القسم العربي : الياس قنصل

يحرر فيها نخبة من حملة الاقلام الحرّة عنوانها :

EL DIARIO SIRIOLIBANES

Reconquista 339

Buenos Aires Rep. Argentina

مجلة الشرق

ادبية سياسية مصورة

انشئت للدعاية عن الشؤون البرازيلية وما آبي النزلاء الشرقيين في البرازيل تصدر باللغة العربية مرتين في الشهر — صاحبها ومحررها الاستاذ موسى كريم يشترك في تحريرها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل وبدل اشتراكها ٢٤٠ ر شمسكة وعنوانها :

Caixa Postal 1402, Sao Paulo. Brazil

جامع السلطان حسن : راجع مقال الأستاذ جاستون ليت مدير دار الآثار العربية في وصف
هذا الجامع من النواحي التاريخية والمعمارية والروحية صفحة ٥٢٥ من هذا العدد